الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن

جُذورُ القوّةِ الإسلاميّة

قراءة نقديّة لتاريخ الدعوة الإسلاميّة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

جذور القوة الإسلامية

قراءة نقدية لتاريخ الدعوة الإسلامية

ص . ب ١٨١٣ ـ ١١
بيروت ـ لبـنان
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ١٩٨٨

غير أني قائل ما أتاني
من ظنوني مكذب للعيان
آخذ نفسي بتأليف شيء
واحد في اللفظ شتى المعاني
قائم في الوهم حتى إذا ما
رمته، رمت معمى المكان
فكأني تابع حسن شيء
من أمامي ليس بالمستبان.

« ابو نواس»

مــــدخــــل

بجانب العقائد الدينية، وبالتوازي معها، نبتت الخـرافة، ونمت شيئاً فشيئاً، ثم إختلطت بهـا وصبغتها بـالصبغة الأسطـورية، حتى ليظن المطلع عليها بأن الخرافة هي أصل من أصـول الفكرة الـدينية نفسها، تبدأ بها وتعيش بها وتنتهي بها إلى قلوب الناس، ثم يظن مرة أخـرى بأن الجـذور التاريخيـة والإجتمـاعيـة والعـادات والطقـوس القديمة تعكس نفسها على كل فكرة جديدة، بل وتمتـزج بها إمتـزاجاً بيناً أو خفياً، ثم ليظن مرة ثالثـة بأن محـاولة فهم العـالم فهماً كليـاً، ومـواجهة الطبيعـة بـلا أسلحـة فعـالـة، تعكس الضعف والطفـولـة الإنسانية، وللتعالي على هذا الضعف والخوف والمجهول ـ كضرورة للحياة ـ إخترع الإنسان الأسطورة مستخدماً سلاحه القوي الوحيـد وهو الخيال، مفسـراً كل شيء، حـالًا لكل المعضـلات الكونيـة التي تحيط به بكلمة أو جملـة أو طقس جماعي أو قصـة ترتبط بـأرضه ثم تعلـو الى سماء المجهـول لتتحول الى واقـع حي يمـارس يـوميـاً أو شهرياً أو سنـوياً، وبفعـل تقادمهـا تأخـذ في الثبات ثم تتغلغـل في النفوس وتتغذى بها الجماعة، وتغذيهـا نفس الجماعـة مضيفة إليهـا من إمكانياتها وتبعاً للظروف الجديدة التي قد تمر بها.

ولم تنجُ عقيدتنا الإسلامية من هذه الصبغة، فما إنْ تقرأ كتاباً في التاريخ الإسلامي حتى تفاجأ بكم هائل من الخرافات. وما إن تقرأ

كتاباً في السيرة حتى تصدمك كمية الزوائد الأسطورية والإضافات غير المعقولة لتاريخنا، وكأن الإسلام لن يصمد إلا بتلك الإضافات أو بتلك الزوائد

وإنك لتجد في عقول (العامة) وفي عقول بعض (الخاصة) ذلك الإيمان الراسخ بالخرافات والإعتقاد فيها، بل وتمتيلها تمثيلاً حياً في بناء «المقامات» وتقبيل الحيطان، والتغني بالمعجزات مما لايستطيع معها عقل مفكر إلا أن يتساءل.

وتأثرت كتب المفكرين حديثاً أو قديماً بهذه الصبغة الأسطورية، حتى تُجهد وأنت تبحث عن جزء من الحقيقة وسط ذلك الركام الهائل غير الموضوعي.

وهؤلاء الذين نجَوْا بشكل أو بآخر من أحابيل الخرافة محاولين تقديم الموضوعي في تاريخنا، لم ينجوا بشكل كلِّي منها، ولا سيَّما أن معضلة أخرى تضاف إلى هذه القضية، وهي أن التاريخ الإسلامي لم يبق منه مكتوباً سوى القرآن، ثم جمعت الأحاديث النبوية في فترة متأخرة، وإنتشرت الروايات والقصص فدخلتها الأهواء السياسية، فأضافت للنبي مالم يقله وللصحابة مالم يتفوهوا به، وإخترعت بعض الأحداث إختراعاً، وإنتحلت القصص إنتحالاً سواء لأغراض دينية أو سياسية أو قومية.(١)

واذا كان التاريخ الإسلامي قد إنضاف إليه كل ذلك التشويه منذ بدء الدعوة المحمدية، فما بال ذلك الباحث في تاريخ ماقبل

---

(١) يقول د. طه حسين عن العرب (هم مسلمون لم يظهروا على العالم إلا بالإسلام فهم محتاجون إلى أن يعتزوا به ويرضوه ويجدوا في إتصالهم به مايضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان وهم في الوقت نفسه أهل عصبية وأصحاب مطامع ومنافع فهم مضطرون إلى أن يراعوا هذه العصبية ويلاقوا بينها وبين منافعهم ودينهم.) في الادب الجاهلي. ص١١٨.

الـدعوة، وهـو يواجـه أحداثـاً كثيرة ربمـا أضيفت لنفس الإعتبارات والأهواء، بالإضـافة إلى ذلـك فإن حـركة التسجيـل كانت محـدودة للغـاية، فـاعتمد الكـل على روايات الـرواة، وحكـايـات القصـاصين ينبتسـون فيها محـاولين إستخراج الثمين من الغث، فـإن لم يرضـخ الباحث ـ في النهايـة ـ للكسل والطمـأنينة، فـانه سيضـع في ذهنه الشـك وهو يبحث وسيضـع الإحتمـالات وهـو يفكـر، وسيصـل إلى الإستنتـاجـات التي يمكن أن تؤدي إليهـا. ورغم ذلـك تبقى تلـك الإستنتاجات قاصرة ـ لحد ما ـ وأياً كانت وجاهتها، لأنها مبنية على الإستقراء أكثر من اعتمادها على حقائق ثابتة موثـوق في ثبوتهـا، أو كما يقول ريشنباخ «ولاتفيدنا النظرية العلمية ـ أيـة نظريـة علمية ـ من المعلومات عن الحقائق التجريبيـة أكثر ممـا تفيدنـا في الظاهـر، فالحقائق مترابطة مع بعضهاالبعض على نحو معين، وليس بوسعهـا أن تقيم الدليل للإعتقاد بأن الكيانـات التي تفترضهـا من أجل هـذه النظرية موجودة بالفعل إلا من حيث أنهـا أكثر تـرجيحاً، فلغـة العلم هي لغـة التـرجيـح الإستقـرائي، فـإذا لم تُعـرف الحقيقـة بشـأن ماسيحدث أو بشأن ماهو موجـود بالمـلاحظة فسـوف نستعيض عنه بـأفضل تـرجيحاتنـا التي هي أداة الفصل حيث لاتتـوافر الحقيقـة، وتبرير الإستقراء هو أنه أفضل أداة للفصل معروفة لدينا».(١)

فإن قرأت أي كتـاب قديم أو حـديث عن تاريـخ العرب مـاقبل الإسـلام، فستجد الـرواة قد إتفقـوا أو كادوا يتفقـون على أن جذور العرب تنبع إما من القحطانيين في اليمن أو العدنانيين في الحجـاز، وعلى أن القحطانية عـربية عـاربة والعـدنانيـة مستعربـة وإكتسبت

---

(١) ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية. ترجمة د فؤاد زكريا

العربية إكتساباً بعد أن مُحيت لغتها الأولى، وظلت هذه التقسيمة سائدة من مئات السنين وكأنها حقيقة موضوعية لاتقبل الجدل أو النقد، إلى أن شكك فيها طه حسين وهو يقول:

«وفي الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضاً.... فالرواة يحدثوننا أن الشعر تنقل في قبائل عدنان وكان في ربيعة ثم إنتقل إلى قيس ثم إلى تميم، فظل فيها إلى مابعد الإسلام.... ونحن لانستطيع أن نقبل هذا النوع من الكلام إلا بإسمين، لأننا لانعرف ما ربيعة وما قيس وما تميم معرفة علمية صحيحة، أي لأننا ننكر أو نشك على أقل تقدير شكاً قوياً في قيمة هذه الأسماء التي تسمى بها القبائل، وفي قيمة الأنساب التي تصل بين الشعراء وبين أسماء هذه القبائل، ونعتقد أو نرجح أن هذا كله أقرب إلى الأساطير منه إلى العلم اليقين.... فالبرهان القاطع قائم على أن إختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان يعترف القدماء أنفسهم بذلك، ويثبته البحث الحديث....»(١).

«... وكل مانعرفه هو أن هذه القبائل كانت تسمى قحطانية وتنسب نفسها إلى قحطان، على أنها كانت تتردد في ذلك أحياناً فتنتسب إلى عدنان، ولكن من الذي يستطيع أن يؤكد لنا أن هذه القبائل كانت قحطانية حقاً أو عدنانية حقاً دون أن يأتي بالبرهان على

---

(١) طه حسين. في الأدب الجاهلي. ص ٨٢ ـ ٩٤.

صدق هذه الدعوى؟ ..أو نستطيع أن نصدق زاعماً يزعم لنا الآن مثلاً أن الشعب البريطاني إنما هو شعب إسرائيلي هاجر إلى البلاد البريطانية؟!، وماقيمة هذه الأحاديث التي يتكلفها القصّاص وأصحاب الأغراض والأهواء للذّة والمنفعة؟!..».

وتستطيع أن تفتح كتب السيرة وكتب التاريخ الإسلامي قديمها وحديثها، فلن ترى الإختلاف إلا في طريقة الصياغة أو في الشكل، وتبدو معظم المجهودات في هذا المجال منصبة على تجميع المعلومات غثّها وثمينها دون نظرة نقدية فاحصة، وتحكمها في النهاية إعتبارات عصبية أو دينية[1] أو سياسية أكثر مما تحكمها إعتبارات التفكير العلمي الناقد.

ومن هنا بالضبط نواجه عدة إشكالات ونحن نكتب كتابنا هذا..

الإشكالية الأولى في غربلة كل ذلك الركام من الأحداث غير المنطقية، وربط المنطقي منها ربطاً متتابعاً وعلى نحو متسق وشامل وموضوعي، والخوف هنا من السقوط في مستنقع الإنتقائية بما تحمله من نظرة مسبقة للأحداث ومن عدم الإلمام الكلي بالصغيرة والكبيرة. فمن يستطيع مثلاً أن يثبت لنا أن موقفاً ما قد حدث أو أنه لم يحدث على الإطلاق؟! وربما نعتمد في إنتقائنا على حادثة رُوِيت وهي لم تحدث، فنصل إلى نتيجة مبنية على فراغ. ولتجنب هذا الأمر قدر المستطاع ـ فنحن لانستطيع تجنبه تماماً ـ سنعتمد على

---

(١) (رُوي أن عمر بن الخطاب بلغه أنه ظهر في أيدي الناس كتب فاستنكرها وكرهها وقال. إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها فلا يبقين أحد كتاباً إلا أتاني به فأرى فيه رأيي، فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لايكون فيه إختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار.) أنظر ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلي ص ١٦٨ ـ ١٦٩

الخطوط الرئيسية في الموضوع دون أن نغض النظر عن إرتباطها بما قبلها أو بما بعدها من أحداث أقرب للمنطق، ويبقى في النهاية ذلك النص المكتوب الثابت وهو القرآن باعتباره ناصية الحكم ـ ولو بشكل عام ـ عندما تتداخل الزوايا أو تتوه

الإشكالية الثانية القصور الحاد في المسيرة التاريخية، فعندما نبدأ بحثنا عن نقطة ما في الموضوع ونجري وراء الأحداث لإستكشافها، نجد خانة فارغة، أو فجوة أو إنقطاعاً شاذاً، أو بعض الروايات التي لايعتمد عليها، فنقف حائرين أو متسائلين ماذا يمكن أن نفعل؟! فعلى سبيل المثال تروي كتب السيرة النبوية أن محمداً كان يناضل أهل مكة ويجادلهم ويعيبهم بالحجة ويسخرون منه وسلك في سبيل ذلك كل مسلك ليكونوا في صفه، لكن إستجابتهم كانت فردية الطابع فلم يتبعه سوى أربعين في فترة تجاوزت الثلاث سنين[1]، ولم يزد هذا العدد كثيراً في السنوات التسع أو العشرة التالية ليصل حوالي المائة قبل الهجرة مباشرة[2]. ثم يُقال بأن الرسول إلتقى بنفر من أهل يثرب، وعلى الرغم من أن هذا النفر لم يؤمن إلا أنه حين عاد إلى يثرب، نشر بين أهلها خبر دعوة محمد، ثم قابل النبي وفداً آخر من الخزرج وشرح لهم تعاليم دعوته، حتى إذا ماوافى موسم الحج التالي حضر وفد من أهل يثرب يضم إثنا عشر شخصاً فبايعوه على الإسلام، ثم بعث النبي مع هذا الوفد مصعب بن عمير ليفقههم في الدين، ثم عاد مصعب في العام التالي إلى مكة ومعه وفد من ثلاثة وسبعين رجلاً وإمرأتين، وبويع الرسول بيعة العقبة الثانية.

---

(١) انظر. د. جواد علي. تاريخ العرب في الإسلام ص ٢٠٦.

(٢) انظر. هادي العلوي، نصوص منسية من التراث مجلة «دراسات عربية» مايو ١٩٨٦.

هكذا تروي الراوايات بـلا خلاف، فبينما أجهدت مكـة محمداً وهي موطنه، فلم تتبعه سوى قلة قليلة، يـأتيه مـرة واحدة عـدد كبير نسبياً في وطن آخر لم يجهد معهم ولم يحاورهم أو يجـادلهم أو يبذل معهم مجهوداً كبيراً وخاصة والأمـر يتعلق بمسألـة العقيدة والـدين، وهو أمر ليس من البساطة ليتركه أصحابه بعـد لقاء أو لقـائين. وهنا نواجه المشكلة، فترك أهل يترب لدينهم ودخولهم بهذه السرعة وبهذا العدد في دين محمد أمر مثير للتسـاؤل والحيرة، هـذه الحيرة وذلـك التساؤل الذي لاتجيب عنــه كتب التاريـخ إجابـة شافيـة والإجابـة الجاهزة دائماً أن الله قد فتح قلـوبهم وعقولهم فـاعتقدوا في محمـد ودينه، وكأنهم لم يكونوا بشراً كبقية بشر ذلك الزمان. وهذه الإجابـة لاتكفينا. أما أن قصة البيعة فهي غيـر مشكوك فيهـا بحكم التطورات التي إستتبعتها وبحكم إشارة القـرآن لمنـاصـرة يثـرب لمحمـد في مواضع كثيرة، وأما حجم الداخلين في الدين الجديد وبهذه السرعـة إعتماداً على السماع من محمـد أو مصعب بن عمير في لقـاء بسوق عكاظ أو في المدينة، فمسألة تثير الشكـوك، لأن أمراً كهـذا يفترض بـالضرورة أن تكـون هناك أسبـاب قويـة وأحداث سـابقة على لقـاء البيعتين، أو يفترض حدوثها بشكل مختلف مما قد يجعلنـا نسأل عن معنى المناصرة وكيفيتها وما علاقتها بالاعتقاد في دين محمـد؟!. إلا أننا لانجد في كل ماقرأناه شيئاً عن ذلك، وهذا هو مـانسميه الفجـوة الفارغة أو الإنقطاع الذي تحدثنا عنه

ونستطيــع أن نسوق مثـلاً آخر يتعلق بهـذه النقطـة في بعض جوانبها، فقد يُفهم بسهولة دخول أبي سفيان الإسلام آخر لحظة قبل فتح مكة كتعبير عن هزيمة نهائية لايملك لها رداً ولا صداً، وقـد يُفهم بسهولة دخول علي بن أبي طالب الإسلام، فهو في الحقيقة قد تـربّى

عليه منذ العاشرة من عمره، أما دخول عثمان بن عفان، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان، وقد كانوا من أصدقاء أبي بكر وخاصته وتجاراً في مكة، نقول بأن دخولهم الجماعي في الإسلام يحتاج لتوضيح أكثر، حيث لم تقل كتب التاريخ إلا عن الإقتناع وأن الله قد فتح قلوبهم للدين الجديد، أما ظروف إقتناعهم فلا نعرف إلا حكايا هامشية لاتكفينا، فالإقتناع وحده والإعتقاد بصدق محمد غير كاف من تجار المفروض في طبيعتهم المفاوضة والمساومة والأخذ والرد وحساب الربح والخسارة. قد يُقال بأنهم الفئة الأكثر إستنارة في مكة لأن التجارة تعني الإتصال بالعالم، ولأن التجارة تعني مصدر الحياة الأساسي لناسها، وبها إرتبط الحج والدين والعقائد الوثنية، وبالتالي الوعي الأكبر بدورها في الإنعكاس على سلطة الأفكار الدينية والسياسية والإجتماعية. وقد يُقال بأنهم الفئة الأكثر جرأة بحكم تميزها الطبقي والفئوي، وبحكم ثرائها كسبب كاف للحماية من ردة فعل سادة مكة. وقد يُقال بأنهم الفئة الأكثر ثورية بحكم أحلامها في السيطرة على مقدرات الأمر، وخاصة أنها كانت فئة (متوسطية) بمعنى أنها لم تكن جزءاً من التركيبة الارستقراطية القرشية من شيوخ وسادة مكة، وبحكم مزاحمتها والمنافسة غير المتكافئة المضروبة عليها من هذه الأرستقراطية، ولذا كان عليها أن تبحث عن بديل، فوجدت في صديق قوي الشخصية قوي البيان تحقيقاً لحلمها، فتلقفت دعوته وناصرته.

وبالطبع فإن هذه الإستنتاجات تخضع لباب الترجيح أكثر من خضوعها لأحداث واضحة جلية، وخاصة وقد تشوه التاريخ الخاص لكل منهم على حدة بحكم ماأدخل عليه من إضافات وقد لاتخلو من هوى أو منفعة، فلا نستطيع أن نظفر ببغية أو حادثة إلا وينتابنا الشك في أمر حدوثها من عدمه.

وما سقناه هنا ليس إلا مثلين من أمثلة كثيرة تؤكد هذه الإشكالية.

الإشكالية الثالتة في عدم دقة التواريخ وترتيب أحداثها، بل وإهمالها أو تناقضها في أغلب الأحوال فلترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً متتابعاً فائدة قصوى في إستقراء مسيرة القوة الإسلامية وإثباتاً لتتابعها المنطقي، فالروايات قد تتناقض وقد تتفق عن زمن ما، مما يجعلنا نقف حائرين أمام هذا الخلط ونحن نحاول تحليل أمر ما من الأمور، فالبعض يقول مثلاً بأن النبي صفّى بني النضير في يثرب قبل بني قينقاع، والبعض يقول العكس. والبعض يقول بأن صحيفة المعاهدة بين محمد وأهل يثرب بكل عشائرها، جاءت بعد الهجرة مباشرة، والبعض الآخر يقول بأنها حدثت بعد إنتصار بدر، وهذا لا يستطيع أحد أن يملك له رداً بسبب إعتماد التدوين على الذاكرة وربما الأهواء.

وندّعي أن الترتيب الزمني في تعاقبه مهم جدًا في عملية فرز حوادث التاريخ، وفي غربلة الغث من الثمين، بل وفي إلقاء بعض الروايات في سلة المهملات إن تناقضت مع الصيرورة الموضوعية في تناميها وإستمرارها. وبقدر مانستطيع فإن تلك الصيرورة هي التي ستحكم ترتيبنا في الحكم على حدث بوضعه في إطار لحظته التاريخية بعد لحظة سابقة يجب أن تكون، ولحظة تالية كنتيجة له وبناءً عليه وأيا كان الأمر فإننا لن ننجو بشكل كامل من إعمال العقل لنقص الوثائق وتناقض الروايات مما قد يحمل معه من مخاطر الشطط أو التعميمات أو الاطلاقات والتي تحتاج إلى لجام يلجمها ورادع يردعها.

الإشكالية الرابعة محاولة تنقية التاريخ الإسلامي من شوائب الخرافات والأساطير وهوى التقديس المضر بعملية التأريخ وخاصة

في بحثنـا، والجري وراء المـوضوعي في مسيـرة القوة الاسـلاميـة ودورهـا الأسـاسي في إنجـاح المشروع المحمـدي، أو بمعنى آخـر عقلنة بعض التاريخ الإسلامي من هذه الزاوية. وليس معنى هذا أنـه كتاب في السيرة أو في التـاريخ، وإنمـا هو التـركيز على دور القـوة بمعناها الشامل وباعتبارها محصلة ظروف موضوعية متـلاحمة، وفي صيرورة تلك المحصلة يتداخل التاريخ بالسيرة بالنصوص وبإعمـال سلاح النقد الموضوعي. ونحن نبحث في تلك القوة إكتشفنـا إلى أي مدى إحتل العمل العسكري الـدور الرائـد فيها فـوجهها وصعـد بها واحتواها وبدا سيداً لها من كل الوجوه

والمشكلة هنا أن تلك المحاولة قد تهـدم آراءً، إستكان اليهـا البعض وسكن، وقـد تثير نفـوس الـذين رضـوا بـالأوهـام وتحكمهم (غـريزةالخـرافة) ـ إن جـاز التعبير ـ والـذين لايستطيعـون قبـول الإستنتاجات والشكوك، لأنهم لايفهمونها ولم يتعودوا عليها فما بالهم إن تعدى الأمر روايات آمنوا بها منذ القدم وعاشت في «ضمـائرهم»، بـل ومثلت جزءً أسـاسياً من تـركيبتهم الدينيـة؟!. وقد تثيـر جـدل البعض الثـالث، لأننا ـ كمـا قلنا ـ ونظـراً لكثرة الخـانات الفـارغـة، سنضطر أن نستقرئ الأحداث استقـراءً، ونجري وراء الترجيحـات الأقوى جرياً، وربما نتوقف ـ مضطرين ـ عند حد إستخـدام مبضع الشـك في حدث مـا من الأحـداث غيـر قـادرين على تخطيـه بسبب الفجوات التي لايمكن عبورها إلا بالقفـز عليها. وهـذا البعض الثالث ربما لايهنأ كعادة هؤلاء الناس الذين يبحثون عن حل نهائي وشـامل لكل المعضلات. لكن كل هذا لن يمنعنا من أن نخوض في ذلـك البحر المضطرب، فنتير من إستكان أو إطمأن لوهمٍ يلوكه ليل نهـار، أو أن نثير جدلاً ربما يصل بنا إلى نتائج مرضية للبعض الأخير.

لكننا هنا لاندعي أننا سنحل كل المسائل أو المشـاكل، ولكننـا

ندعي أننا سنوجه طاقة ضوء نحو بعض الأركان المظلمة فيما يخص موضوعنا، أو أنها محاولة لإستكتشاف الموضوعي من غير الموضوعي في مسيرة القوة الإسلامية.

والقوة التي سنتعرض لها ليست القوة العسكرية وحدها ـ رغم أهميتها القصوى ـ وإنما مايمكن أن تشمله من عناصر عسكرية ومعنوية وتاريخية وجغرافية وبشرية. الخ.

فكل الدعوات الكبرى في التاريخ، كانت ولازالت تغذيها وتحميها وتنشرها، بل وتنقلها من محليتها إلى عالميتها. ولا نظن أنه بدون القوة، ماقدر لأحدها أن يعيش إلا في حدوده الضيقة فالدعوة المسيحية ـ في بدايتها ـ كانت مطاردة ضعيفة، وعرفت ضحايا كتيرين أو ما يسمى بعصر الشهداء نتيجة الحرب المعلنة عليها من الأباطرة الرومان، حتى إعتنقتها الإمبراطورية والتي كانت في حاجة لإتساع رقعتها وأطرافها، وما كان لها أن تغزو العالم بعدة أعلام وعدة آلهة يتزودون بالأساطير اليونانية والرومانية، فكانت المسيحية حينئذ أنسب (ايديولوجية) حملتها سيوف الرومان، فتوسعت الإمبراطورية ومعها توسعت الديانة الجديدة، (ففي الطقس المسيحي وقناعاته المرادفة، نحن أمام تقافة حية مسلحة خير تسليح بأدب واسع، وجذورها تضرب عميقاً في الأزمنة القديمة، فضلاً عن ذلك، بقدر ماكانت المسيحية «تعويضاً» لمزيج مشوش من الحركات الدينية التي إتسم بها العالم الإغريقي الروماني في بداية عصرنا، فأعطت دلالة وظيفية جديدة للخطوط القديمة الداخلة في نسق الثقافة الجديدة)(١).

---

(1) James C.O. : CHRISTIAN MYTH. and RITUAL P.vi. Translated into Arabic by Sobhi Hedidi. DAR IL HEWAR SYRIA

ونستطيع أن نقول أيضاً بأن إنتشار المسيحية فيما بعد سواء في أفريقيا وآسيا وأمريكا حملته بنادق الإستعمار الأوربي وبضائعه وحضارته ومبشريه، ليحل محل الوثنية السائدة ويختلط بها. ورغم دعوة السيد المسيح بالسلم وبفصل الدين عن الدولة «أعط مالقيصر لقيصر وما لله لله» إلا أن تلك الدعوة تلاشت تحت سيوف الغزو الروماني، وبنادق الإستعمار حاملة إسم السيد المسيح نفسه على أسنة حرابها، فبدون القوة العسكرية والمادية والبشرية لايمكن المحافظة على فكرة ما، وإذا كان هذا القانون صحيحاً في العصر القديم فهو أيضا صحيح في العصر الحديث.

وهذا لايعني أننا ننفي ماللأفكار من تأثير في حياة الناس، وخاصة تلك التي قد تجد هوى مع مصالحها وحاجاتها، فقد يكون الدين الإسلامي أو المسيحي ـ في ذلك العصر ـ متمشياً مع طبائع بعض الناس وحاجاتهم، فاستجابوا له ودافعوا عنه، ولكن طبائع الناس وأفكارهم تختلف طبقاً لمواقعهم داخل التقسيمة الإجتماعية السائدة، فأفكار العبد تختلف عن أفكار السيد، وأفكار الفلاحين تختلف عن افكار الملاك، وأهواء الفقراء غير أهواء الحكام، والفكرة البدوية قد لاتتمشى مع المجتمع الزراعي، والقيم الفلاحية قد لاتجد لها أرضاً في مجتمع الآلة، وبالطبع فإن تلك الأشكال والتقسيمات ليست تقسيمات ميكانيكية وإنما بسّطناها لتقريب المعنى. ولكي تتحقق فكرة ما، فإنها تحتاج لقوة السلاح وقوة الحجة، فلا الحجة وحدها كافية ولا القوة وحدها كافية، والحجة في مفهومنا هي الملائمة لحاجات الناس «وطبائعهم»، وقد يُعترض بأن حكاماً وأباطرة إستمروا قروناً رغم أنف «الحجة» تلك، وضد حاجات الناس، بل إنهم غيروا تلك الحاجات بما يوافق أهواءهم هم، ومصالحهم هم، وإستخدموا في ذلك أساليب القوة الموجودة في أيديهم، فكبتوا حجة

كان يجب أن تظهر من سنين، وقتلوا حججاً لم تظهر أبداً وماتت بموت أصحابها. ونوافق على هذا، فلكل جديد قوته، ولكل قديم قوته، وتتطاحن القوتان لفترات زمنية قد تطول وقد تقصر حتي يخلي القديم مكانه للجديد، ويتحول الجديد الى قديم في مواجهة جديدٍ جديد. وهكذا تجري عجلة التاريخ.

ولكي ينتصر الجديد يبحث عن قوته في السلاح وفي الظروف التاريخية المناسبة، بل وفي اللحظة الفعالة من تلك الظروف، وفي قوته بكونه جديداً وأكثر صلاحاً من القديم في مواجهة الزمن.

وهنا نسأل: هل إمتلكت الدعوة الإسلامية وسائل قوتها بوصفها دعوة جديدة؟، وإلى أي مدى نجحت في إستخدام القوى المتوفرة تحت يديها لتغزو أجزاء واسعة من العالم القديم؟ ونجيب على ذلك قائلين نعم. إمتلك الإسلام القوة وفهم مغزاها ودورها واستثمرها لأقصى حد ممكن، ونجح في تعريب أمم كثيرة، واختلطت الحضارات القديمة بالدين الجديد، فأعطت مايسمى بعصر الحضارة العربية الإسلامية والتي سيطرت على رقعة واسعة من العالم على مدى عدة قرون.

نحن لن نعيد التاريخ إلى الوراء، فما قد جرى قد جرى، ولا يمكن لنا أو لغيرنا أن يفكر حتى في ذلك، ولكن مايمكن أن نفعله هو أن نتبع هذا التاريخ ونجري وراءه بحثاً عن بغيتنا.

وفي تتبعنا لهذا التاريخ قد نتغاضى عن أحداث كثيرة لن تفيدنا في بحثنا رغم أهميتها، ولن نتبع الترتيب الزمني - رغم أهميته - وإنما قد نأخذ حادثة قديمة مع أخرى حديثة بحثاً عن تأصيل لفكرة ما، أو لنفي فكرة أخرى.

ونظن بأن من يبحث في أي موضوع من مواضيع الدين الإسلامي سواء في الفقه أو في الشريعة أو في السيرة أو في أي

فرع من فروع العلوم الدينية إلا ويصيبه مس كتير من التاريخ، رغم أن ذلك العهد لم يكن عهد تسجيل وآثار بقدر ماكان عهد تغيير وحركة، فلم يبق إلا القليل، ومُحي الكثير لعوامل متعددة ذكرنا بعضها سالفاً[1].

والتاريخ أيضاً يربط الزمن بخيط واحد فلا يتفرق، فنجد الجذور ونصل الفروع، ونرتبط بها إرتباطاً كلياً، فنرى الجزئية في إطار من الشمول العام غير منفصلة عن الكيانات التي ترتبط بها وتمدها بمعناها.

وهنا سنركز أكثر على الفترة المحمدية باعتبارها أهم فترة في التاريخ الإسلامي وسبباً للإنتصار الحادث فيما بعد، أو باعتبارها الخط الفاصل بين عصرين وعالمين، وإن أشرنا لبعض حوادث التاريخ بعد محمد، إنما سنشير إليها في تماسها بما قبلها وفي إطار الفكرة الرئيسية للكتاب، ولذا سنمر عليها دون أن نبحثها تفصيلاً، فذلك يحتاج كتاباً أو كتباً أخرى ربما يقدر لنا أن نكتب أحدها فيما بعد. بل إن اهتمامنا بتلك الفترة راجع لاعتبارنا أن أحداثاً تالية لها كانت امتداداً واستمراراً لنفس خطها العام، وفوق كل ذلك أنها الفترة الوحيدة التي لم يتم تناولها بالتحليل الموضوعي إلا في بعض الكتابات القليلة والتي كانت تتغاضى عن الانقطاع البيِّن والنقص

---

(١)..ذلك أن العرب كما هو معلوم كان لهم دواوين رسمية تحفظ سجلاتهم كديوان الخراج وديوان الرسائل وغيرهما من الدواوين وتحفظ فيها الوثائق الرسمية ولكن التراث كله فُقد في الكوارث التي مرت على العالم الإسلامي وفي الحروب الصليبية وغزوات المغول.. وبخصوص الوثائق في المصادر تعتبر لحد ما وثائق وذلك لفقدان الأصول وعدم وجود بديل عنها وهي مشتتة في بطون المصادر والرجوع إليها يتطلب الرجوع لعدد كبير من المراجع للإطلاع عليها والإستفادة منها «أنظر الوثائق السياسية والإدارية» محمد ماهر حمادة ص ١٠ ـ١١.

الواضح في الأحداث، فلا تتجرأ على الاستنتاج والاستقراء والترجيح، ربما خوفاً من تلك الغابة من الموانع المفروضة على من يلجأ الى الولوغ في أشواكها، فظل خوفها هذا نقطة ضعف كبرى في كل مساهماتها في هذا الميدان.

وهذا الاستقراء والترجيح لن يعني أننا سنطلق العنان لتصوراتنا، أو أننا سنبدأ بتصور مسبق للأحداث فنضفي عليها ما لايحق لنا أن نضفيه، ونخلق أشياء في الوهم مايحق لنا أن نخلقها، ولكننا نعتقد أنه بدون سلاح النقد سنتجمد عند كتب السيرة القديمة، فلا نضيف ولا نُعمل العقول، وما الفائدة، إذن، من كتاب جديد يقول القديم، والكل يعرف التاريخ ويلوك السيرة وربما يحفظها عن ظهر قلب؟!

وربما ـ دون قصد منا ـ لاننجو من تأثير إنفتاح الاستقراء بلا لجام أحياناً، لأن كلمة «ربما» كثيراً ماتضعنا على طريق الإحتمالات اللانهائية عندما يختفي أو ينعدم طريق الوتوق.

فهل ننجح أن نكون قريبين من طريق الحقيقة؟.. ربما.

لكن ذلك لن يمنعنا من المغامرة.

(١)
نظرة في التاريخ

مـايهمنا في التـاريخ هـو منطقة الحجـاز قبل منطقتي الهـلال الخصيب وجنوب الجزيرة في اليمن،التابعتين إما للسيطرة البيزنطية أو الفـارسية. أي تلـك المنطقة الصحـراوية الجغـرافيا، المتنـاثـرة السكان، المعزولة القرى والبلدان والواحات. ثم يزداد اهتمامنا أكثـر بمكة بوصفها المركز السيادي لتلك المنطقة القاحلة، وبوصفها بداية وأصل التاريـخ الاسلامي من الـدعوة حتى الفتـح، وبوصفهـا كانت المؤهل لولادة وقيـادة جديـدة تحمل طـابعاً مختلفـاً عما كـان قبلها، وتكون نتيجة لما يتمخض في رحمها من تناقضات.

وبـالفتح الإســلامي تنتهي مرحلـة وتبدأ مـرحلة جـديـدة من الصراع الفاصل لحل المعضلات والتناقضات القديمـة، آتية بشكـل جديد من التناقضات

ثم نهتم أكثر بتلك المرحلة من التاريخ السابقة مباشرة لظهـور الدعوة الإسلامية، باعتبارها مرتبطة إرتباطـاً عضويـاً بها، وبـاعتبار لتلك اللحظة الفعـالة والتي قـد تحكم كل الـزمن التاريخي لـلأحداث الهائلة التي مرت بها شبه جزيرة العرب

ونظـرتنا لن تكـون سـرداً كسـرد الـرواة ولا حكيـاً كحكـايـا القصاصين، لأن الروايات التي وصلتنا لم تسلم من الهوى والزوائد، وللأسف لم يترك لنـا التاريـخ نصوصـاً مكتوبـة بأي لغـة سواء عن

التاريخ السابق مباشرة للإسلام أو حتى عن علاقة ما بسيرة الرسول سوى بعض الروايات المتأخرة العهد[1]، «حتى القراطيس والألواح التي دوّن كُتّاب الوحي عليها آيات الله، لم يبق منها شيء.. ونسخة القرآن التي كانت لدى حفصة بنت عمر بن الخطاب، أو نسخة عثمان وبقية النسخ التي أمر بتوزيعها على الأمصار، فلم يبق منها شيء كذلك. لم يبق أيضاً أي أثر لنسخ المصاحف الأخرى التي كان الصحابة قد كتبوها لأنفسهم، ومنها نسخ كُتبت في أيام الرسول، وأما مايقال عن وجود نسخة أو نسخ مكتوبة بخط الإمام علي أو نسخة عثمان، فكلام يحتاج لدليل مقنع.... وأقدم ما وصل الينا عن أيام الرسول مكتوب بالعربية التي نزل بها الوحي ويعود عهده الى أيام العباسيين...»[2].

وبالطبع فاننا لن نذكر كل صغيرة وكبيرة في هذا التاريخ ولكننا سنضع خطوطاً، أو قل أننا سننبش فيما يهم موضوعنا بغض النظر عما قد يقوله البعض بأن رجل التاريخ يجب أن يكون مصوراً، واصفاً صادقاً، فهذا الكتاب ليس كتاباً في التاريخ بقدر ماهو استقراء مافي هذا التاريخ من عناصر أمدت الدعوة الإسلامية بأصل نجاحها فالكل قد قرأوا عن تاريخ مكة وتنظيماتها وحياتها بالتفصيل الممل، والكل قد قرأوا عن حياة النبي وصحابته بما دُوِّن في كتب

---

(١) رُوي عن عمر بن الخطاب قوله: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأن عرب الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يئلوا إلى ديوان معروف ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك، وقد هلك العرب من هلك بالمدن والقتل فحفظوا أقل من ذلك وذهب عنهم الكثير» وما يقال هنا عن الشعر يقال عن التاريخ واحداثه أنظر السيوطي، «المزهر في علوم اللغة»
(٢) د. جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام. ص ١٥ ـ ١٦

السيـرة، ولكن القليلين هم الذين أعملـوا سلاح النقـد في كـل ذلـك الركام الموروث.

هم مثلاً يقولـون بأن قصي بن كـلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، هو الذي نقل مكـة من حيـاتها البـدائية الى حيـاتها المنظمـة بعد أن تمكن من طـرد قبيلة خزاعة صاحبة السيطرة إذ ذاك على مكة، فجمـع قومـه من الشعاب والجبـال والمسالـك وأسكنهم في مكة، أي أنـه جمع قـريشاً ووحّـد بطـونها وعشـائرهـا، ثم أنشأ مجلس «المـلأ» و «دار النـدوة» ونظم الحجابة والرفادة والسقاية والعمارة وشؤون الحرب، مما مكن مكة من السيطرة الدينية والتجارية على كل بلاد الجزيرة العربية.

وقـد يكون نسب قصي مختَلَقـاً وقد يكـون صحيحاً، فـلا أحد يستطيع أن يجزم بأمر كهذا جزمـاً لأنه إنتقـل الينا مـروياً عبـر كتب التـاريخ المتـأخرة العهـد. وقد يكـون قصي هذا رجـلاً داهية قـوي الشخصية، عبقري الإمكانيات في عصـره، لكن الغريب أن يتم ذلـك كله مرة واحدة وكأن الأمـر قرار إتخـذه ونفذه، فـأقصى خزاعـة من السيـادة، وجمع كنـانة من كـل مكان وأسكنهـا بمكـة، وصنـع كـل التنظيمات التي وجدت بمكـة صنعاً، والتي كـانت ضروريـة لانتعاش حياتها الاقتصادية والـدينية، ممـا يجعل الأمـر مبالغـاً فيه ويتنـافى وطبيعة الأشياء.

حقاً، قد يكون دور قصي «نقطة تحول في حياة مكة»، لكن حياة مكة نفسها لابد وأن تكون قـد تطورت ونُظِّمت طبقـاً لتغير دورهـا التاريخي رويداً رويداً، وشيئاً فشيئاً، بعد اكتشاف أنها كانت ملتقى أسهل الطرق لتجارة الشمال مع الجنوب، فأضاف هذا الإكتشاف لها أهميتها التي تنامت مع الأيام، ومعها تنامى وتغير نظام حياتها، فبعد

أن كانت الكعبة ملاذ عرب مكة، بدائية الإنشاء محلية الطابع،(١)، لابد وأنها احتاجت وقتاً طويلاً لتأخذ تلك المكانة التي أخذتها قبل الاسلام مباشرة، ولابد وأن الأنظمة التي سادت في مكة تلك السيادة، لم تستتبع رغبة فرد فصنعها بنفسه، وإنما احتاجت أيضاً ردحاً من الزمن لتكون ماكانت عليه. ومع تنامي تجارتها مع الشمال والجنوب، تغيرت وتبدلت الموازين والنظم، وإنضافت آلهة جديدة لم تكن موجودة بالكعبة، ودخلت آلهة القبائل البعيدة عن مكة الى مكة، وتغيرت سيادات أشخاص وقبائل، ونبتت قيادات جديدة، وتناقضت المصالح أكثر من ذي قبل، ولا بد وأن صراعاً طويلاً قد مر قبل أن تدوم السيادة لقريش.

وإذا كانت مكة تقع في منطقة قاحلة جرداء، فقيرة بلا زراعة أو صناعة فان ذلك جعل حياتها في البداية بدائية الطابع تعتمد على الرعي وبعض الأمطار التي قد تتساقط، وبالتالي كانت ديانتها بدائية أيضاً وبسيطة بحكم بساطة الحياة نفسها، وربما عكس ما قيل بأن ديانة التوحيد (ملة ابراهيم) كانت موجودة حتى جاءت خزاعة فأنشأت عبادة الأصنام، لأن توحيد عدة آلهة في إله واحد أو صنم واحد، أو بالاعتقاد المجرد في هذا الإله، لاينتج الا عندما تكون حياة الناس قد تطورت بالقدر الكافي، فاختفت عزلة القبائل والعشائر في مراعيها أو حول المياه، فاندمجت وتجمعت واختلطت وتقاربت، ومعها تندمج وتتجمع وتقترب، بل وتتوحد عباداتها وآلهتها.

ولم تتطور الحياة الدينية لمكة إلا بعد أن دخلت عالم التجارة وأصبحت ممراً مهما لقوافل الشمال إلى الجنوب وقوافل الجنوب إلى

---

(١) (ربّنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) إبراهيم ٣٧.

الشمال، وليس قبل ذلك، وهذا لابد وأنه قد حدث بعد أن سيطرت الإمبراطورية البيزنطية على الحبشة وأطراف من أفريقيا، فمرت بقوافلها عبر تلك الطرق البرية القريبة من البحر الأحمر وفي مركزها مكة. وعندما اكتشفت مكة هذا الدور، دخلت اللعبة واستطاعت أن تستثمر تلك الميزة أقصى استثمار، فخرجت بقوافلها التجارية إلى الشمال والجنوب أيضاً، وأمنتها الدولة البيزنطية وأمَّنوا هم قوافل الأخيرة أيضاً، فانتعشت الحياة الاقتصادية وأُنشئت أسواق جديدة، وراحت القبائل المنعزلة في واحاتها أو حول آبارها تدخل تلك الأسواق باحثة عن تبادل أو مقايضة، ولم لا تدخل هي أيضا عالم التجارة، أو تستفيد بمهاجمة تلك القوافل المارة قريباً من أراضيها، أو من معاهدة حماية تؤمن لها رسوم مرور عبر طرقها؟! وجُذب العرب الى الأسواق فوضعت التماثيل وآلهة القبائل في الكعبة، ولما أصبحت كل الآلهة حول الكعبة، فلم لايحج اليها العرب في موسم التجارة الكبير؟ وسادت حرية دينية إرتبطت بالمصلحة التجارية، فقيل بأنه قبل الفتح مباشرة كان بالكعبة وحدها أكثر من ثلثمائة وستين صنماً وتمثالاً بالإضافة الى الصور بما فيها تماثيل وصور المسيح والعذراء والملائكة والأنبياء لهؤلاء النصارى الذين كانوا يأتون للتجارة والتسوق أو هؤلاء الذين عاشوا في مكة أو قريباً منها(١).

وصبغت التجارة شبه الجزيرة العربيةكلها بصبغة واحدة، فقربت المسافات وطورت وسائل الاتصال والحركة وعقدت الأحلاف،

---

(١) أنظر حواد علي. تاريخ العرب في الإسلام ص ٥٨ (لقد كانت وثنية قريش وثنية متطورة تقبل كل تطور مادام التطور في حدود الوثنية وإطارها فعبادة مكة في هذا العهد عبادة شفعاء ووسطاء مقربين تتمثل في تماثيل وأصنام وصور وأوثان)

وتنازعت القبائل فيما قد تراه حقاً من حقوقها أو بحثا عن مـورد رزق، ومع كل ذلك ازدادت التناقضات حدة

الأحـلاف القبلية على أطـراف الهلال الخصيب كـانت تتفكـك بفعل الحروب الدائمة، وبفعل الصراع بين الفرس والروم متمثـلا في دولتي المناذرة والغساسنة، وكانت الصراعات المستمـرة في جنوب الجزيرة مـابين اليهوديـة والنصرانيـة ومابين الأحبـاش وأهل اليمن عـاملاً كبيـراً في عدم استقـرار تلك المنطقـة، مما أتـاح لمكة مـركز الصدارة على بلاد العـرب كلها في القـرن السادس الميـلادي، نظرا لبعدها عن دوامة تلك الصراعات.

واستطاعت التجارة أن تؤمن حياة إقتصادية مستقرة لمكة وما حولها من البـلاد، ولأن التجارة تحتـاج شكلاً من أشكـال الاستقرار لمنح الأمان للقوافل، والبيـع والشراء بحـرية وحـل مشكلة الحـروب القبلية الدائمة، إخترع العرب الأشهر الحرم كهدنـة طويلـة يلتقطون فيها أنفاسهم، فيمارسوا البيع والشراء بحرية، وليمـارسوا الطقـوس الدينية أيضاً، فأصبح للحج دور كبيـر في تجميع القبـائل في مكـة. وكان أهم الأسواق سوق «عكاظ» الـواقع بين الطـائف ومكة وينصب في أول ذى القعدة حتى العشرين منـه. ثم يتوجـه العرب الى سـوق «ذى المجنة» حتى نهايـة ذى القعدة، ثم سـوق «ذى المجان» من أول ذي الحجة الى الثامن منـه، ثم يذهب النـاس الى مكة لأداء فـريضة الحج.

واستتبع إنتعاش الحياة التجاريـة والدينيـة في مكة إنتعـاش الحياة الإجتماعية والثقافية، فأصبحت أهم مدينة «سياحية» حينئـذ، فامتلأت بدور اللهو ومنـازل «ذوات الرايـات» وأُجبرت الجـواري على البغاء، وأتاها الكل من كل لون ولهجة ولسان. وهناك أيضا كانت تُعقد اللقاءات وتُحل المشاكل المستعصيـة بين القبائـل، وتقدَّم الاتـاوات

المفروضة على البعض طبقاً لتوازن القوى وقوانينها، فأصبحت مكة أيضاً داراً للقضاء وداراً «للدبلوماسية» القبلية ـ أن جاز التعبير ـ.

وما إن تهدأ الحالة، وترجع القبائل الى مستقراتها البعيدة والقريبة لتواجه نفس الظروف الصعبة من قحط وجوع وضيق في الرزق، فتعود دورة الحروب القبلية من جديد، وما إن تبدأ، فلا تنتهي، وتدور الدورة على المهزوم أو المنتصر. ويضاف الى الصراع على الموارد المحدودة عوامل كثيرة كالثأر والفخر والمنافسة والغلظة والأنفة، أو كما يقول ابن خلدون عنهم «هم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة، والأنفة وبُعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم»[1]. وغدا «الاعتداء» يكتسب شرعيته من حالة الإقتتال المستمرة والدائمة.

والحروب القبلية تلك يمكن أن نسميها مناوشات متقطعة بلغة العصر الحديث فلم تكن المعارك تنتهي أبداً بسحق طرف سحقاً نهائياً للطرف الآخر، بل تبدأ بهجوم مفاجىء فتفر جموع القبيلة المهزومة ليجمع الغازون غنائمهم ويرحلون، ليعود الفارون إلى مواقعهم مرة ثانية يبنون من جديد ويجهزون للإنتقام، ومعظم المعارك التي سمعنا عنها تحمل نفس النمط، حتى تلك الغزوات الأولى التي تمت بعد الإسلام صبغت بنفس صبغة الحروب القبلية تلك في شكلها، كمعركة بدر وأُحُد وغيرهما. أي هجوم بلا إحتلال سوى احتلال وقتي للمواقع ثم الرحيل. ولعل كثرة الحصون في قرى الحجاز كانت تعبر أصدق تعبير عن حالة الحرب تلك.

لكن تلك الحروب كانت تختلف كثيراً عن حروب الدول المركزية ذات الجيوش الضخمة، والتي تحتل فيها المواقع لفترة زمنية طويلة

---

(١) مقدمة إبن خلدون. ص١٥١

أو قصيرة، طويلـة بأن يسكن المحتلـون الأراضي ويسخرون أهلهـا لمصلحتهم وقصيرة حتى يتم التأمين الكامل لحـدود تلك الـدولة من الهجمـات الخـارجيـة، أو بـأن يهـزم هـذا الجيش على يـد القـوات الداخلية للبلد المحتل

ولم تتغير طبيعة تلك الحروب القبليـة الا بعد انتصـار الاسلام وظهور بوادر دولة إسلاميـة آخذة في التكـون بجيشها ومؤسسـاتها، فـالتعبئة القبليـة لم تكن «جيشـا» بـالمعنى المفهوم من هـذه الكلمة، وانمـا هو (جيش) يجمـع سـاعـة الحرب من متطـوعين أو من أفـراد القبيلة، وكانت القيادة والإمارة تختار من شجعان القبيلـة وسادتهـا، وفي مكة مثلاً إرتبط بهذه النظم الحربية عدة شعارات أهمها «القبـة» وكانوا يضربونها عند الخـروج للقتال ويجمعـون فيها حـاجة الجيش من الأسلحة والعتاد[1].

بينما يتحول المحـاربون في الـدول المركـزية إلى عسكـريين متخصصين يأخذون أجـورهم من بيوت المـال ووظيفتهم الأساسيـة هي الحرب.

وبالطبع فان تلك الحـرب القبلية لم تكن بسبب الغلظـة والأنفة العربية، وإنما فرضتها الحياة في الصحـراء فرضـا. فرضتهـا حياة الجدب والقحط والصراع على مواطن الرزق والمياه، وفرضتها الرغبة في السيادة والمنافسة من أجل السلطة، ثم ولأنها كانت شيئاً متكرراً في حيـاة العرب، تـلاها الإنتقـام كرد فعـل، واستتبعها الفعـل كـرد لـلإنتقام. فيُـروى مثلا أن قبيلتي «كلب» و «السكـون» تنـازعتـا على سيادة سوق دومـة الجندل في شمـال نجد والحجـاز، مما أدى بعـد حروب طويلـة الى تبادل السيطـرة على السوق بين شيـوخ القبيلتين

---

(١) د. ابراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ح١. ص٧٢

المتنافستين، ويكون للغالب الحق في اخراج القبيلة المغلوبة منه والتحكم في البيع والشراء وجباية العشور.

وقيل الكثير عن حروب طويلة كحرب البسوس أو داحس والغبراء، وقد رُوي عن الأخيرة أنها استمرت أربعين سنة، ورُوي أن سببها كان سباقاً بين فرسين هما داحس والغبراء، لقيس بن زهير بن جذيمة سيد بني عبس، وحذيفة رئيس بني بدر وفرساه الخطار والخنفاء.[1] وسواء كانت تلك الروايات حقيقية أو مختلقة، إلا أنها كانت تعكس الحالة التي كانت تعيشها القبائل العربية من صراع دموي طويل لايهدأ إلا ويشتعل، ولا يشتعل إلا ويهدأ، وهكذا كانت تدور المعارك في حلقة مفرغة ومعها تتوه الحدود بين المعتدي والمعتدى عليه، ويتنامى الفخر بالأنساب وبالبطولة والفروسية وتلك القيم التي ترتبط عادة بمثل هذا النوع من الحروب.

ورغم أن الشهورالحرم قد إخترعت ليتمالك العرب أنفاسهم، الا أنها قد انتهكت، وبسبب ذلك الانتهاك قامت حروب مضادة مثل تلك التي سميت بحرب «الفجار» وصارت بين قريش وكنانة وقيس عيلان، وروي أن سببها كان التنافس على حماية القوافل التجارية المعروفة باللطيمة (قوافل العطور) وكان النعمان بن المنذر ملك الحيرة يرسلها الى سوق عكاظ في كل عام في جوار رجل شريف من أشراف العرب يحميها حتى تباع هناك ويشتري له بثمنها بضائع أو مايحتاج اليه. وروي أن النبي قد اشترك في هذه الحرب وهو ابن أربع عشرة سنة وكان يناول عمومته من بني هاشم النبل[2].

واخترقت قريش نفسها تلك الهدنة كثيراً فغيرت من مواقع

---

(١) إبن الاثير. الكامل في التاريخ. ج١. ص٥٧٧.
(٢) نفس المرجع. ج١. ص٥٩٣.

الأشهر الحرم من السنة بما يُعرف (بالنسيء)[1] لأن الظروف كانت كثيراً ماتحتم على قبيلة من القبائل أن تتحايل على التحالفات والتقاليد بحثاً عن فرصة أو مغنم، أو ردعاً لمخالف، بل ان الرسول نفسه حارب في الأشهرالحرم رداً على عدوان أو كسباً لقوة في لحظة تاريخية لاتدوم [2]

وفرضت حياة العزلة والقتال الدائم على الروح القبلية عدم التجانس والتعاون والعداء المستعر، وقد عبر القرآن عن ذلك في سورة آل عمران ١٠٣ ﴿ . **إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم** .﴾ فاذا أضفنا الى الطبيعة القاسية والأوبئة الفتاكة والحياة الصعبة وقلة المياه وموارد الرزق، الحروب القبلية، يمكن أن نتخيل الى أي حد كانت عناصر الهدم داخل شبه الجزيرة وخاصة الحجاز قوية .

ومن هنا لم يكن لأهل الحجاز والبوادي مخرج سوى الإتصال ببلاد الأنهار في اليمن وفي الهلال الخصيب،أو أبعد من ذلك في بلاد فارس والهند والحبشة ومصر، ذلك الاتصال الذي جلب جزءاً من خيرات تلك البلاد، فأمد قبائل الصحراء العربية بعناصر البناء في مواجهة عناصر الهدم السابقة، والتي بدونها يمكن أن نتخيل فناء تلك القبائل حول مراعيها أو في صراعها المستمر مع بعضها البعض أو مع الطبيعة الفاتكة حولها، ولذا كان للتجارة ذلك الدور الحيوي في الإبقاء على مسيرة التاريخ العربي حية رغم عوامل الهدم تلك، وبهذه التجارة إنتعشت مكة واحتلت دورها المركزي في الحجاز وبلاد

---

(١) (إنما النسيء زيادة في الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله، فيحلوا ماحرم الله زُين لهم سوء اعمالهم..) الآية

(٢) (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل فيه قتال كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) البقرة ٢١٧.

العـرب، وبمكة انتعشت التجـارة والحياة الـدينية وتـداخلت السلطة السياسية مع الاقتصادية والدينية، ومع الزمن شكلت وحدة عضـوية كان من الصعب فصلها. وسيـادة مكة تلـك لم تكن سيادة دولـة على أنحاء تلك الدولة ولاسيادة دولة على غيرها من الـدول، ولكنها كـانت مركزاً سيادياً من الناحية الاقتصادية والعقائدية، فصارت جنيناً لهذه العاصمة الدينية فيمـا بعد، وبسبب ذلـك بدأ الصـراع فيها وانتهى عندها لتبدأ صياغـة «قوميـة» إسلاميـة جديـدة، نقلت الجزيـرة من حالتها القبائلية الى حالة الدولة المركزية.

برزت مكة، اذن، على بلاد العرب بالتجارة، ومع الأيام برز دور بني أمية في مكة نفسها، بالسيطرة على التجارة والثروة، تم آل اليهم اللـواء وقيـادة الـركب في القتـال، أي بمعنى آخـر التحكم في أهم عنصرين حَكَما ويحكمان الناس على مر العصور، وهما المال والقوة.

وارتبط تركز السلطة في مكة بتكون أرستقراطية قرشيـة غايـة في الغنى والمنعة، مع التحكم شبـة التام في الحيـاة التجاريـة لمكة ولعرب الحجاز، وكلمـا إزدادت غنى، إزدادت التناقضـات حدة وسط أغلبيـة فقيرة تعتمـد في حياتهـا على ما تلقيـه اليها الأرستقراطيـة المكية من فتات.

ونستطيع أن نرى ببساطة الى أي حـد وصل غنى تلـك الأقلية وفقر تلك الأغلبية، بأخذ قافلة مكة (التي سببت موقعةبـدر) كنموذج، فقد اتفقت الروايات على أنه كان بهذه القافلة مـايوازي خمسين ألف دينار (ذهباً) حملهـا حوالي ألفين وخمسمـائة بعيـر، وكان يحـرسها مايقارب الثلثمائة رجل يضاف اليهم عـدد آخر ينضم عنـد الحاجـة. وهذا الرقم المذكور يعتبر ضخماً جداً بمقاييس ذلك العصر لابالنسبة لمكة وحدها وانما بالنسبة لكل بلاد العرب. وفي تحليل هـذه القافلـة ذكر أن فرع (أبي أحيحة) من عائلة سعيد بن العاص الأموي سـاهم

بثلاثين ألف دينار، أي مايوازي ٦٠بالمئة من هـذه القافلـة، وذكر أن بقية بني أمية ساهموا بعشـرة آلاف دينار، أي مـايوازي ٢٠بـالمئة، وأن بقيـة أهل مكـة ساهمـوا بالعشـرة آلاف الأخيرة، أي مـايوازي ٢٠بـالمئة أيضـاً فان قلنـا بأن هـذه القافلـة لم تكن الا انعكـاسـا للتقسيمة الإجتماعيـة داخل مكـة، بمعنى أن عائلـة واحدة هي (بنـو أحيحة) كانت تمتلك حوالي ٦٠بالمئة من ثـروة مكة، وأن بقيـة البيت الأموي يملك ٢٠بالمئة من ثروة مكة، أي أن البيت الأموي كان يمتلك مايقرب من ٨٠بالمئة من هذه الثروة، وبقية أهل مكة يملكون مايقارب العشرين بالمائة الأخيرة، بما في هـذا التقسيم من إجمال قـد يغفل تفاصيل التناقضات من غنى فاحش لأقلية وفقر رهيب للأغلبيـة، فان قلنا ذلك فسنكون أقرب للحقيقة أو في قلبها تماماً. وقد حدثنـا القرآن نفسه عن هؤلاء الذين كـانوا يقتلـون أولادهم خشية إمـلاق وحاجـة **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾** الأنعام١٥١ فلك أن تتصور حينئذ بشاعة الفقر الذي يجبر أباً على قتل أولاده أو وأد بناته.

كـانت التقسيمة الطبقيـة في مكة تـرتبط، إذن، بارستقـراطية مالية بـالغة الثـراء، يليها أثـرياء متوسطـو الثـراء، إرتبطوا أيضـا بالتجارة، وتجار صغار لم يكـونوا أثـرياء، وانمـا عاشـوا على هامش الحياة التجارية، فتاجروا بأموالهم وبأمـوال غيرهم أو بـالاستدانـة، ومـارسوا مهنـاً أخـرى دينيـة إستفـادت من الكعبـة كبني هـاشم، وارتبطت مكـانتهم ومنزلتهم بـالحياة الـدينيـة من خـدمـة الحجيـج وخلافه، أكثـر من ارتباطهـا بالثـروة كبني أمية، ثم أغلبيـة كبيرة من الفقراء المحرومين والعبيـد والرعـاة تلقفوا عيشهم وسط ذلـك الجو التجاري والديني وعلى هـامشه بممـارسة حـرفة أو العمـل كحراس للقوافل أو البيـع والشراء أو في الحـوانيت والورشـات، أو في بعض المهن ذات الطابع المؤقت والتي قد ترتبط بموسم الحج. الخ.

ومن هنا أخذت التناقضات في مكة عدة مستويات..

أولاً. مستوى عاماً.

فيما يسمى بلغة العصر الحديث «التناقضات الطبقية» ما بين أقلية غنية متعجرفة، وأغلبية محرومة مهانة ينهش قلبها الحقد والحسد كرد فعل طبيعي عن حالة الحرمان التي تعانيها

ثانيا: مستويات خاصة:

١ ـ منهاطبيعة التناقضات القبلية والعائلية والتي ارتبطت بالتناقض العام وتلاحمت معه. فالحياة في مكة كانت قائمة على العصبية القبلية، فقد قسمت الى شعاب، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة تحكمها الأسر، وبين الأسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ، مثل النزاع على الرئاسة في مكة بين بني هاشم وبني أمية، وقد انعكس هذا النزاع فيما بعد الاسلام في انفجار الصراع على الخلافة، وقد روي أن جعفر قال: «سألت عما عنده في أمر علي وعثمان فقال هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم، وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم، وكان أبو سفيان يحسد محمداً وحاربه..».(١)

ولم تكن في مكة حكومة مركزية ولا ملك ولا تاج ولا عرش ولا رئيس واحد ولا جيش ولا سجن ولا حاكم مدني أو عسكري.. فاحتلت العادة والعرف دور القانون في حياة الناس، وخلق هذا الوضع نوعاً من الحرية الجزئية في مواجهة سطوة الأقلية الثرية، فاحتمى الفقراء بأسرهم وقبائلهم وتاريخهم وأنسابهم، ولعل حماية بني هاشم للنبي ومؤازرته رغم عدم اتباعه كان يحمل طابعاً قبلياً رغم تعرضهم

---

(١) انظر حواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ص٦٩.

للحصار الاقتصادي داخل شعبهم في مكة، كما تتفق أغلب الروايات.

٢ ـ ومنها تناقضات الصراع على السيادة سواء الدينية أو الاقتصادية والاجتماعية، وكان هذا الصراع بين القبائل القوية ذات التاريخ القديم أو ما بين أعضاء الأسرة الواحدة، أو دخول جيل جديد متحمس تلك الساحة فلم يرضَ بالسيادة القديمة التي شاخت، وكان هذا الجيل من هؤلاء الشباب المتحمسين الذين دخلوا عالم التجارة وكونوا ثروة لاتطول ثروة الارستقراطية القرشية، فحلموا بمطاولتها أو الوقوف بجانبها، ودخلوا في عالم من المنافسة غير المتكافئة بين غيلان يسيطرون على كل شيء وبين صغار مفروض عليهم أن يظلوا تابعين الى الأبد، وكان هذا الجيل أكثر وعياً، فتلاحم مع الخارج وجاب البلدان وتعلم، فصار لايقر بالسيادة للأقلية التي رضت بوضعها ورضي وضعها بها. ولعل انخراط كثيرين من هذا الجيل في الإسلام كان انعكاساً لوضعيتهم (المتوسطية) داخل التقسيمة الاجتماعية في مكة.

٣ ـ ومنها التناقضات الدينية التي كانت تعتمل مابين الوثنية والحنيفية واليهودية والنصرانية، ولكنها لم تبرز على السطح بفعل الحرية الدينية التي أتاحتها الكعبة بحثاً عن إرضاء القبائل العربية سواء الوثنية أو غيرها، بما لها من انعكاس على استقرار الحياة الاقتصادية لأهل مكة، فلم تهاجم مكة ـ رغم وثنيتها ـ النصارى بل وضعت صور العذراء والمسيح والملائكة وتماثيلهم في جملة التماثيل داخل الكعبة.[١] وكان اليهود يعلمون أولادهم أصول عقائدهم في

---

(١) يقول جواد علي في «تاريخ العرب»، «.. حتى صار البيت متحفاً أو مخزناً تُكدّس فيه التماثيل بما فيها الصور المستوردة من الشام ومن أصل نصراني يمثل القديسين والأنبياء والملائكة متحولت في مكة إلى أوثان معبودة إختص كل واحد منها أو كل =

مدارس خاصة بهم، والأحناف الذين لم يدخلوا يهودية أو نصرانية ولم يقبلوا الأوثان، فاعتزلوا قومهم وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر وحياة الجاهليين الصاخبة. ولذا كانت الحياة الدينية داخل بلاد العرب خصبة بما يموج في كل منها من أفكار وأفكار مضادة وجدل دائم وآلهة كثيرة، فتهود بعض العرب وتنصر البعض الآخر، واعتزل البعض الثالث، ورضي البعض الرابع بما عرفه من آلهة، لكن الحياة الوثنية كانت هي الغالبة على الفكر الديني لمعظم القبائل العربية في بلاد الحجاز. أما ذلك الجدل الدائر فكان يُسْتَوعبُ دائماً في إطار النظم السائدة ولم يصل أبداً لحالة ما يسمى بالصراع الديني الا فيما بعد بتصميم محمد على الانتصار، لأن ذلك الجدل القديم لم يمس المصالح الأساسية لنظام مكة ومن تبعها من القبائل، بل إن دعوة محمد نفسها لم تعامل بجدية من سادة قريش الا عندما قويت وتكونت لها أسنان قادرة على أن تعض في ذلك النظام نفسه.

يقول طه حسين مشيراً الى الحياة الدينية عند العرب: «وكان اليهود قد تعرَّبوا حقاً، وكان كثير من العرب قد تهوَّدوا، وليس من شك عندي في أن الاختلاط بين اليهود وبين الأوس والخزرج قد أعدَّ هاتين القبيلتين للدين الجديد وتأييد صاحبه».. ويقول أيضاً «..تغلغلت النصرانية إذن، كما تغلغلت اليهودية في بلاد العرب، وأكبر الظن أن الاسلام لو لم يظهر لانتهى الأمر بالعرب إلى اعتناق إحدى هاتين الديانتين، ولكن الأمة العربية كان لها مزاجها الخاص

= مجموع بقبيلة إذا جاءوا إلى مكة توجهوا لتحيتها ورؤياها وقد كان تمثال المسيح ومريم في العمود الذي يلي الباب. وقيل إن كل الصور أزيلت في فتح مكة ماعدا صورتي المسيح ومريم بقيتا حتى حريق الكعبة أيام الزبير»

الذى لم يستقم لهذين الدينين، واستتبع ديناً جديـداً أقل مـايوصف بأنه ملائم ملاءمة تامة لطبيعة الأمة العربية .».[١]

ونعتقـد بأن المـزاج الخاص والطبيعـة العربيـة ـ في رأينا ـ ليس العامل الأول، بقدر ماللعوامل السياسية والعسكرية والتـاريخية والاقتصادية من دور، فلقـد انتصر محمـد قبل أن يفيق العـرب بقوة إمكانياتـه السياسيـة والفكريـة، وداهم مكة وداهم القبـائل قبـل أن تمتلك وسائل قوتها، وقد أثار محمد في نفـوس العرب أحـلاماً قـومية ماكان لعدة أديان وعدة آلهة أن تثيـرها، وحـرَّك كوامن انتمـاء أرحب بكثير من الإنتماء القبلي المتخلف، وسنعالج هذا الأمر تفصيـلاً فيما بعد. ونرى أيضا مع طه حسين أهمية تواجد عقيـدتي التوحيـد على أرض العرب لفترة طويلة مما مهد الأرضية لتقبل الإسـلام باعتبـاره إستمـراراً لهذين الـدينين، والخـلاف بين الإسـلام وبينهمـا لم يكن جذرياً وإنما كان فيما فرضته ظروف الصـراع الجديـدة «والطبيعة» العربية ـ إن صـحَّ القول ـ ورغم مـا في كلمة «الطبيعـة» من غموض يحتاج إلى إيضاح . وربما كان طه حسين يقصد بهـا طابـع الظروف القبليـة والصحراويـة التي انعكست على تـركيبـة البشـر حينـذاك وتصرفاتهم وعلاقاتهم.

وأتاحت تلك الحيـاة الدينيـة المُتعددة الـوجوه إمكـانية نشـر ثقافات توحيدية، وتكوين جمـاعات رافضـة للوثنيـة، مع ذلـك الوعي الذي أكسبته الرحلات التجـارية للـذاهبين من مكة والقـادمين إليها والإختلاط بالشعوب الأخرى ومعـرفة لغـاتها وعـاداتها، أضفى على مكة طابعاً حضارياً متميِّزاً رغم حدة التناقضات التي تنخر فيها، ولذا

---

(١) في الأدب الجاهلي. ص١٤٧ ـ ١٤٨.

قد يفهم بسهولة لماذا نبعت دعـوة محمد من مكـة ولم تنبع من وسط قبيلة أخرى من القبائل المتناثرة في الحجاز

وليس معنى هـذا أن الحياة الثقـافية في الحجـاز كانت حيـاة كتابة وتسجيل، وإنما كانت الصفة الغالبة على الثقافة هي الشفهيـة، والمكتوب كان محدوداً، ولم تترك أي آثار أو نقوش مكتوبة قد وصلتنا حتى الآن، ونعتقد أن تلك الكتابات والنقـوش القليلة التي ربمـا كانت موجودة قد مُحيت وأُزيلت تماماً لتبقي للإسلام السيطرة التـامة على الأفكار. وقد رُوِي عن عمر بن الخطاب مثـلاً أنه كـان يمنع المسلمين من نسـخ كتب أهـل الكتـاب، فيشتـد على مسلم لأنـه نسـخ كتـاب «دانيـال»، ويستجلب رجـلاً آخـر من الكـوفـة بلغـه أنـه يطلب كتب «دانيال»، فاشتد عليه وضربه، وذلك عملاً بموقف حدث لـه مع النبي، بعد أن مرَّ برجل يقرأ كتاباً، فاستمعه فاستحسنـه فقال لـه: أكتب لي من هذا الكتاب، واشتـرى أديماً فهيـأه ثم جاء بـه اليه فنسـخ له في ظهـره وبطنه، ثم أتى النبي فجعـل يقرأ عليـه وجعل وجـه الـرسـول يتلوَّن، فضرب رجل من الأنصار بيذه الكتاب وقال: ثكلتك أمـك ياابن الخطاب، أما تـرى وجه رسـول الله منـذ اليوم وأنت تقـرأ عليه هـذا الكتـاب؟! فقال النبي عن ذلـك: إنما بعثت فـاتحـاً وخـاتمـاً وأُعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصـر الحديث لي اختصـاراً، فلا يهلكنَّكم المتهوكون (أي الواقعون في الأمر بغير روية).(١).

ومـع سيادة مكة، سادت لغة قريش وعـرفتها القبـائل العـربية

---

(١) أنظر التفسير المأثور عن عمـر بن الخطاب ابـراهيم بن حسن ص١٩، ٢٠. (ويُروى أيضاً عن عمر بن الخطاب انه ضرب رجلاً من الكوفة يُدعى «صبيغ» بـالجريـد حتى ادمى رأسه، وحمله على الإبل وطاف به في العشائر والقبائل وبودي عليه، لمجرد انـه جاء يسأل عن أشياء في القرآن قيل المتشابه ميه، وقيل أنه اقبل على علم الكلام!!)

بحكم اتصالها بمكة وتبادل حاجاتها ومنافعها، أو كما يقول طه حسين: «ونحن إن فكرنا، عرفنا أن سيادة اللغات إنما تتصل عادة بالسيادة السياسية والإقتصادية. لغة قريش إذن هي اللغة العربية الفصحى فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والإقتصادية، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش».(١)

٤ ـ ومنها تناقضات العلاقة مابين أصحاب الثروة والسلطة وما بين المتغيرات الطارئة والجديدة على حياة شبه الجزيرة. ولنفهم هذا الأمر جيداً علينا أن نضرب مثلاً بسيطاً. إذا كان هناك جيش ما من الجيوش القديمة، أسلحته السيوف والحراب والخيول، فلا بد وأن تكون العلاقات داخل هذا الجيش منظمة بالقدر الذي يعطيه الفعالية في الحرب سواء بالنسبة للقيادة وتوزيع الجند والأسلحة، وخطط المعارك وتكتيكها وأهدافها، وطرق القتال، أما إذا دخلت الجيش أسلحة جديدة كالمدافع والدبابات والطائرات والصواريخ، فإن كل شيء يتغيَّر تغيُّراً جذرياً وعلى جميع المستويات التنظيمية، وعلى مستوى آلية الحروب وتختفي القوة البدنية بشكل ما لتحل محلها القوة العقلية والعلمية، وتختفي الخيول لتحل محلها العربات أو الطائرات، وبدلاً من مراعيها وورشات الحدادة وصناعة الأسلحة البدائية، تبنى المصانع الضخمة وتستخدم العقول الإلكترونية، وتظهر الأكاديميات العسكرية والمدارس ويتعلم الجند الرياضيات والفيزياء..الخ.

---

(١) طه حسين. في الأدب الجاهلي. ص١٠٧،١٠٨.

فإن كانت قوى الجيش تتغير، فلا بد وأن تتغير العلاقات داخل هذا الجيش، أو بمعنى أصح مايطلق عليه الإقتصاديون (التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج)، فقوى الانتاج في تطورها تتطلب علاقات جديدة كضرورة لاستمرار هذا التطور، فان ظلت هذه العلاقات على حالها القديم رغم وصول قوى الانتاج لمرحلة تستوجب التغيير فإنَّ صراعاً قوياً قد ينشأ داخل المجتمع لتغيير هذه العلاقات سواء بشكل تدريجي أو عن طريق الثورات.

وهكذا وصلت الأوضاع في مكة للدرجة التي يمكن أن يقال بأن سادة مكة كانوا يركبون بغلاً في قيادة معركة حربية حديثة، أو كذلك الفلاح الذى يجر (تراكتوراً) أو محراثاً آلياً ببقرته إن جاز التعبير. كيف ؟! لنفهم هذا الأمر، علينا أن ندرس باختصار الظروف المحيطة بأرض الحجاز.

كانت أجزاء كبيرة من العالم القديم قد حسمت فيها مسألة الدولة المركزية، سواء عبر صراعاتها الداخلية أو عبر الغزو الخارجي أو عبر الإثنين، وفي شمال جزيرة العرب تكونت دولتان تابعتان للروم والفرس، الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة، وانعكس الصراع بين الإمبراطوريتين على الحروب المتواصلة بين الدولتين، وفي جنوب شبه الجزيرة، تكونت دولة في اليمن تهودت حيناً وتنصرت حيناً آخر حتى خضعت للسيطرة البيزنطية عبر احتلال الأحباش لليمن. وظلت الصحراوات العربية مابين الشمال والجنوب بكراً، لم يستطع أحد أن يغزوها أو يحتويها. ففي التاريخ القديم يروى أن الإسكندر الأكبر حاول السيطرة عليها فلم يفلح أسطوله، فظل رابضاً والتف حول السواحل الغربية. ثم حاول القيصر أوغسطس السيطرة عليها أيضاً للاتصال باليمن والمحيط الهندي، أي السيطرة على طرق التجارة البرية بجانب الطرق

البحرية، ولم يفلح هو الآخر. وحاول أبرهة، فمات جيشه من وباء إنتشر خلال مسيرته نحو مكة، وكانت تجربته من التجارب المرة في ذكريات محاولي الغزو.

وروى أيضاً أن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى المعروف بالبطريق، كتب له قيصر عهداً وختمه بالذهب، لملك مكة ـ وقيل أنه تنصر ـ وقال لأهل مكة (ياقوم، إن قيصر قد علمتم وأمانكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفه وقد ملكني عليكم، وأنا إبن عمكم وأحدكم، فآخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك ثم أذهب إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه)[١]، وحكي أنه قُتل بعد رفضهم لمشروعه.

وبالطبع فان فشل كل تلك المحاولات ليس بسبب شجاعة أهل الحجاز، وإنما كان سبب فشلها هو ظروف الجزيرة القاحلة والصحراء الواسعة المتناثرة السكون، ونضوب موارد الثروة وصعوبة السيطرة الدائمة على قبائل منعزلة وواحات متفرقة، مما يشكل مغامرة بلا مكسب حقيقي. ثم إن وجود بديل عن طرق القوافل البرية بالطرق البحرية سواء في البحر الأحمر أو الخليج، جعل كل هذه المحاولات لاتأخذ طابعاً جدِّياً للسيطرة على بلاد الحجاز، فاكتفوا بالسيطرة على الشمال والجنوب وعقدوا بعض المعاهدات ذات المنفعة المتبادلة في تأمين قوافل الطرفين. وبفرض نجاح محاولات الدولة البيزنطية في السيطرة على مكة وغرب شبه جزيرة العرب، لكان من الممكن تغلغل النصرانية بشكل أكبر عما كانت عليه، أو ربما تنصَّر العرب بشكل كامل.

---

(١) العقاد العبقريات الإسلامية. ص١٣٠

هذه هي الصورة المحيطة بجزيرة العرب، أما الصورة داخل مكة كما ذكرنا من قبل كانت قد وصلت الى مرحلة التناقض الذي يستدعي الحل. فالثروة قد تضخمت لدرجة هائلة في أيدي عدة أفراد استفادوا لأقصى درجة مما وصلت إليه الحالة في مكة، واستطاعوا أن يمتدوا بثرواتهم خارجها فاشتروا المزارع في الطائف، وتاجروا في العبيد واشتغلوا بالربا، وكانت ثروتهم الهائلة تعني بالبديهة رغبة أكبر في الإستثمار خارج حدود القوافل التجارية، فتصطدم دائماً بحائط ظروف الجزيرة العربية القاحلة. الثروة تبحث دائماً عن مصادر لتنميتها، وأموال بهذا الحجم الذى ذكر، لابد وأنها كانت تبحث عن مخرج بدلاً من أن تكنز لقوافل تالية غير مأمونة تماماً، وأرض الحجاز محدودة المياه محدودة المزارع، عدا بعض الواحات في يثرب والطائف وحول آبار المياه. سيطروا على الطائف، أما المدينة فقد سيطر عليها اليهود والأوس والخزرج.

المشكلة هنا أن هذا المال المتضخم بفعل تاريخ التجارة الطويل لم تُعَدْ دورته بشكل أساسي إلا في التجارة، وذلك بسبب قصور وسائل الإنتاج الأخرى كالزراعة والصناعة.. فهل كل هذه الثروة كانت تخزن وتكنز حتى تحين مواعيد رحلتي الشتاء والصيف؟!. وهل كانت أساليب الإستثمار الأخرى في أرض الحجاز كافية لاستيعاب جزء كاف من هذه الثروة؟!. ونظن أن أساليب الإستثمار الأخرى لم تكن كافية لاستيعاب كل هذه الأموال وبالتالي كانت تكنز، وقد أشار القرآن الى ذلك بشكل عام ﴿..**والذين يكنزون الذهب والفضة**..﴾ التوبة ٣٤.

يدخل عائق آخر في استثمار تلك الأموال في أماكن بعيدة عن مكة، وهو الحالة القبلية السائدة، والعزلة المفروضة على البلدان بما تشكله من وحدات مستقلة بقبائلها وعشائرها ووسائل حياتها.

وبفرض أن هذا العائق كان محدودا، بمعنى وجود طرق واسعة وكثيرة تقلل من حالة العزلة، وبمعنى وجود تاريخ توحيدى بسبب نهر ممتد أو غزو أو حروب سيطرة، فإن أموالاً كتلك التي تجمعت كان ولابد لها أن تجد وسائل استثمار فعالة ومجدية[1]. لكن هذا لم يحدث، وظلت القبائل تنظر الى تلك الثروة المتدفقة الى مكة بعين الحسد والحقد مرة وبشهية مرة أخرى وهنا يبدو التناقض جلياً. فمكة كانت في حاجة للقبائل، والقبائل كانت في حاجة الى مكة. كانت مكة في حاجة إليهم في مجيئهم إليها وكانت تضمن ذلك بحكم التاريخ.وكانت في حاجة إليهم بأن تجد عندهم مخرجاً لحالة ركود أموالهم المكدسة، ولكن ذلك كان يحتاج بناء طرق وحفر آبار والسيطرة على الصراعات القبلية الدائمة، بل وخوض حروب طويلة من أجل قهر القبائل وضمها تحت جناحها، واستخدام القوى البشرية المعطلة بفعل بدائية وسائل الإنتاج، وتطوير تلك الوسائل. لكن ذلك لم يحدث، لأن أرستقراطية مكة آلت إليها الثروة عبر التجارة والوراثة، وكانت حياة الاستقرار النسبي من نظم وحراسة وأحلاف تؤمن لحد كبير سلامتها، فلم يكن أرستقراطيو مكة مغامرين بل كانوا محافظين رجعيين، فتجمدوا عند التجارة واكتناز الذهب

(١) (إن الوجود المحض للثروة النقدية، بل وحتى انتزاعها لنوع من مركز الهيمنة ليس كافياً لكي ينتج عن هذا التحلل رأسمال، فلو كان كذلك لكانت روما القديمة وبيريطة قد ختمتا تاريخهما بالعمل الحر ورأسالمال، ولكانتا قد دخلتا تاريخاً جديداً) «انظر الاشكال الإقتصادية ماقبل الراسمالية ماركس النص الإنجليزي ص١١٠.» (فلكي تكون الثروة رأسمالاً فإنها تحتاج دائماً أن تكون قوة العمل سلعة وهذا لم يحدث نظراً لأن المورد الرئيسي للثروة في مكة كان التجارة أي التعامل مع الخارج حيث لم تكن البنى الإنتاجية التحتية في مكة كافية لاستخدام قوة العمل أو أدواته إستخداماً مؤثراً). (انظر أيضاً كتاب في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج احمد صادق سعد. ص٩٨.)

والفضة، وشراء بعض الاستراحات خارج مكة، ولم يعتمد تكوُّن تلك الثروة على شراء قوة العمل وتطوير أدواتها، بل اعتمد على نمو تجاري لم يرتبط ببيئة إنتاجية داخل مكة. وإن كان الحج قد أضاف لمكة ثروة (عربية) إلا أنه ارتبط إرتباطاً كلياً بعملية التجارة المعتمدة في نموها على الرحلات الى خارج أرض الحجاز.

وكانت القبائل في حاجة الى مكة بحثاً عن استقرار لحياتها وموارد رزقها الوقتية الضنينة، وبحثاً عن تنمية تلك الموارد بما يؤمن لها بعض الاستقرار المعيشي، لكن ذلك كان يحتاج ناساً غير سادة مكة، وقد كانت وضعيتها تطرح «لغة قومية»، لكن سادتها تقوقعوا داخل خزائنهم.

وكان شعب مكة نفسه يحتاج استثمار تلك الثروة بشكل عادل فيؤمن نفسه من غائلة أيام الصحراء، وبالطبع فإن ذلك الاستثمار سيتيح فرص عمل جديدة وثابتة لهؤلاء الذين لايجدون العمل إلا وقتياً..

وكما قلنا، فإن التجارة قد صبغت الحجاز صبغة واحدة، فقربت الأفكار، وأصبح الاختلاط سبباً في تقريب اللهجات وتوحيد اللغة والثقافة والدين والعادات. لكن الحالة القبلية ظلت على حالها، لاتتغير ولا أمل في تغييرها

كان أمام سادة مكة إذن، أن يحكموا الجزيرة العربية كلها ويغيروا حالتها القبلية إلى حالة «قومية» كانت جذورها قد أخذت في التشكل بفعل توحد الدين حول الكعبة، وبفعل التجارة، لكنهم ظلوا على وضعيتهم الغارقة في المصلحة القبلية وضيق الأفق فلم يستثمروا أموالهم في السياسة أو المغامرة بحرب طويلة هم ليسوا في حاجة إليها بشكل ملح، لأن توحيد القبائل تحت سلطة واحدة لايمكن تخيله إلا بمعارك دموية متواصلة، وهذا ماحدث فيما بعد

بدخول محمد حلبة الصراع. وانضاف الى تصعيب الأمر في ذلك الحين تلك العزلة الأبدية التي خلقتها الصحراء بين القرى العربية في الحجاز[١]. ويشير أدونيس إلى هذا الأمر قائلاً. « وكان مجتمع الجزيرة يتكون من ثلاث طبقات، أرستقراطية تجارية هي الحاكمة، وهي قريش البواطن، وطبقة وسطى هي قريش الظواهر، وطبقة دنيا (بروليتارية رثة) هي البدو والغرباء أو الموالي، وكانت كل طبقة تعيش في شبه عزلة واستقلال عن الأخرى، لذلك لم تطالب الطبقة الدنيا بالمساواة على مستوى المجتمع ككل وإنما انحصرت هذه المطالبة في إطار القبيلة وحدها، وهكذا عرفت القبيلة نوعاً من الملكية الجماعية للمراعي ومجاري المياه وللقطعان أحياناً..»[٢]. وكما قلنا سابقاً فإن الإعتماد على مصادر لاترتبط ببنى إنتاجية داخل مكة وإنما على التجارة مع الخارج، شوه العلاقات الطبقية ولم يتح للفقراء أن يدخلوا حلبة الصراع الطبقي، وذلك لأنهم كانوا أيضا على هامش العملية الإقتصادية ولم يكونوا إلا تابعين لها وليسوا خالقين لوجودها بقوة عملهم.

ولذا كان على التغيير أن يأتي من اتجاه آخر، ليس له أية مصلحة في الإبقاء على تلك الحالة المتدنية، وله مصلحة أكيدة في

---

(١) انظر تاريخ العالم الإسلامي. إبراهيم العدوي ص٤٣ (وكان قوام هذا الصراع، بين الروح الفردية التي فُطرت عليها النظم القبلية وبين المحاولات التي قامت بها مجموعة من القبائل لبناء أحلاف تصلح نواة لمجتمعات سياسية كبرى. فالهدف من النظام القبلي لم يكن إقامة حلف كبير أو تشييد مجتمع ثابت وإنما ظلّ هذا النظام يعمل على تثبيت نفوذ أسرة كبيرة أو إعلاء شأن عشيرة أو قبيلة ورفعها إلى مكان الصدارة على أقرانها، إذ بقيت القبيلة هي الوحدة السياسية العليا وشيخها هو الرئيس الأعلى .)

(٢) أدونيس. الثابت والمتحول تأصيل الأصول. ج٢ ط٣ ص١٣.

التغيير، وكانت رياح التاريخ تهب في اتجاه الدعوة المحمدية، والتي كانت ظروف شبه الجزيرة آنذاك قد نضجت بالشكل الكافي لهدم الحالة القبلية وبناء «الدولة».

سيطرت مكة على الثروة والأفكار، لكنها كانت ناقصة القوة «فالمؤسسات» القبلية لم تكن قادرة على استيعاب المتغيرات الجديدة، ولاستيعابها كان لابد من القوة للسيطرة على العزلة والطرق والآبار، وإرضاخ التبجح العائلي الغارق في التخلف، وجاءت الدعوة المحمدية بعيداً عن المؤسسة القبلية، حاملة القوة المتنامية شيئاً فشيئاً لتتخطى حدود عزلتها الى خارج حدود شبه الجزيرة العربية.

٩ - ومنها تناقضات الأفكار السائدة مع التركيبة الإجتماعية التي كانت تحكم مكة، فمن الفقراء ارتفعت صيحات الرغبة في العدل والتغيير، لكن القيم الحاكمة كانت مع الفخر بالأنساب والأحساب والجاه والسلطان، فماذا يجدي الفقير أن يفخر بقبيلته ذات المجد التليد وهو لايجد قوت أطفاله؟!، ولذا جاءت الدعوة المحمدية ثورية الشكل وخاصة عندما تبعها بعض العبيد والمستضعفين.

فإذا نظرنا إلى التناقضات السابق ذكرها، فإننا لانستطيع أن ننظر الى كل تناقض على حدة، فمستوياتها تتداخل تداخلاً بيِّناً وتتوحد أحياناً بحيث لايمكن فصلها عن بعضها بسهولة وربما يقودنا الكلام عن تلك التناقضات الى تناقض ذي مستوى خاص، وهو التناقض بين مكة وبين بلاد الحجاز الأخرى، وهو مرتبط بمكانتها أكثر من ارتباطه بحالة الصراع القبلي القائم والدائم بين البلاد وبين العشائر بعضها البعض. ويشد انتباهنا بشكل خاص طبيعة ذلك التناقض القائم بين مكة ويثرب، نظراً لأهمية الأخيرة القصوى في مسيرة القوة الإسلامية.

رُوِي الكثير عن يثرب، لكن أكثر ما كُتِب، صوّر حالتها بعد

الإسلام نظراً لأهمية الصراعات التي انفجرت داخل الدولة الإسلامية فيما بعد، وما رُوِي عنها في الجاهلية معظمه يدخل في باب الأساطير أكثر من دخوله في باب علم التاريخ، وهذه طبيعة الناس عندما يجدون معلوماتهم ناقصة عن أمر ما من الأمور، فإنهم يلجأون غالباً إلى خيالهم، ليحل لهم كل نقص وليملأ لهم كل فراغ. وهنا يجد الباحث صعوبة قصوى في استقراء الأحداث نظراً لاختلاط الخيال بالتاريخ المعتمد أساساً على ذاكرة الرواة وقص القصاصين، فكثيراً مانجد أصولاً لمدن كثيرة تؤول وتتسلسل، حتى تصل الى سام بن يافث بن نوح. فنضطر أن نسأل. كيف استطاعوا أن يصلوا إلى نوح بهذه البساطة والإستهانة؟!. فلا نملك إلا أن نضحك على قدرة الخيال البشري. ويأتي الحديث أيضاً متشابهاً عن نشأة مدن الحجاز من هجرات مستمرة من جنوب الجزيرة في بلاد اليمن. ومن المعروف أن الهجرات غالباً ماتحدث من المراكز البدائية إلى المراكز الحضارية، ومن الفقر إلى الغنى ومن أماكن الموارد المحدودة إلى أماكن الموارد الغنية، كمعظم تلك الهجرات السامية القديمة من الصحراء إلى بلاد الأنهار في العراق والشام ومصر، أو كالهجرات الحديثة من القرى إلى المدن. لكننا هنا نقرأ بأن نشأة مكة أو يثرب أو غيرهما من قرى نجد والحجاز قد تمت كلها تحت يد قبائل هاجرت من مراكز غنية وحضارية لمراكز مجدبة. قد يكون ـ بل من المؤكد ـ أن بعض الهجرات قد تمت سواء من الشمال أو الجنوب الخصب إلى بعض الواحات داخل الحجاز بفعل تمردات أو ثورات أو هروباً من قهر ما قد يكون وقع على مجموعة من السكان، فلاذت بالفرار باحثة عن أمنها هنا وهناك، أو هجرات تمت بفعل أوضاع اجتماعية لم يجد المهاجرون فيها مواطىء قدم آمنة داخل بلادهم. لكن تلك الواحات داخل الصحراء المجدبة لم تكن خالية من السكان،

ونظن بأن الهجرات الكبرى كانت تتم في الإتجاه العكسي، أي من الصحراء إلى اليمن وبلاد الشام، تلك الهجرات التي أخذت عدة أشكال سلمية أو حربية، بحثاً عن موارد رزق جديدة. ولعل قيام دولتي المناذرة والغساسنة ليس إلاّ تعبيراً عن حماية أطراف الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية، من غارات القبائل العربية في الصحراء.

ولكي لانخرج عن موضوعنا نعود إلى يترب مكتفين ببعض ما رُوِي عنها. فرغم أن يثرب كانت من أخصب المدن العربية في الحجاز (خصبة. سبخة الأرض. بها نخل كثير ومياه وزروع وضياع تسقى من الآبار)[1]، إلا أنها لم تحتل نفس المكانة التاريخية التي إحتلتها مكة قبل الإسلام. فقد كانت نصف مكة مساحة وشديدة الحرارة لإحاطة الجبال بها، وقيل أيضاً إنه كان عليها في الجاهلية وعلى «تهامة» أيضاً، عامل من قبل (مرزبان الزارة) يجبي خراجها، وكانت قريظة والنضير اليهود ملوكاً حتى أخرجهم منها الأوس والخزرج الذين كانوا يؤدون خراجاً إلى اليهود، وكانت تشتهر بتمورها وحب اللبان والعطور[2]. وكان لليهود فيها وضع متميز بما يملكون من أموال وثروات وضياع في يثرب حتى أسفلها، وقد أمنوا الصراع لفترة عبر أحلاف أقاموها مع كل من القبائل داخلها لكنهم ككل أقلية عاشوا في عزلتهم باحثين عن الأمن والإستقرار. كانت لهم دعوتهم ومدارسهم وأفكارهم التي عرفها العرب الذين عايشوهم، واحتفظوا بتوازن دائم بين الصراع الطويل المنهك للأوس والخزرج، بل لعل ذلك الصراع كان سبباً قوياً في استمرار وجودهم حتى

---

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموي. ج٥. ص٨٢ ـ ٨٨.
(٢) نفسه. باب (مدينة).

انتصار الإسلام، بل ودخول بعض أفراد القبائـل في اليهوديـة. لكن غـالبية الأوس والخــزرج لم تدن بـاليهوديـة وربما يـرجـع دلـك الى سببين:

الأول: هو طبيعة العقيدة اليهودية نفسها والتي ترتبط بتاريـخ بني إسرائيل كقوم أكثر من ارتباطها بكل البشر، فهي عقيدة خاصـة بهم أكثر من كونها ديناً عاماً يدعى إليه، فأمدت علاقاتهم بمن حولهم بروح من العزلـة، فلم يتقبلهم الناس ولم يتقبلـوا تاريخهم وعقـائدهم بسهولة، لكن هـذا لايمنع تهـود بعض العرب سـواء في اليمن أو في الحجاز.

الثاني: هو تاريخ العـداء القديم بين قبيلتي الأوس والخــزرج من جانب، وبين اليهود من جانب آخر، للسيطرة على السيادة داخـل (يثرب) كما تحكي الروايات وكتب التاريخ

ونظـراً للمكانـة الإقتصاديـة التي احتلتها المـدينـة في بـلاد الحجاز بعد مكة، بسبب قربها من مكة ومرور القوافل التجارية عليها، وبسبب بنيتها الزراعية، فإن حالة من الحسـد انزرعت داخـل نفوس أهلها بسبب سيطرة مكة على الحياة الإقتصـادية والـدينية في بـلاد العرب. فالقوافل التجارية للشمال كانت تمر بالمدينة، لكن أسهل طرق تجارة الشمال مع الجنوب كانت تلتقي كلها في مكة(١). والكعبة كانت في مكـة. والآلهة كـانت في مكة والحـج كـان في مكـة.فلم تضطلـع

---

(١) يقول احمد امين في «فجر الإسلام» ص١٣ (كانت الجزيرة العربيـة معبراً للتجـارة بين الشرق الاقصى وأوربا والشرق الأوسط وكان يمر بها طـريقان للتجـارة يربطـان المحيط الهندي بالشام، يبدأ أحدهما من حضرموت ويمر بالبحرين ثم يصل إلى صور بالشام. والطريق الثاني يبدأ من حضرمـوت ثم اليمن ويسير بمحـاذاة ساحـل البحر الاحمر حتى مكة ثم الشام)

المدينة بدورها الفعال إلا بعد أن دُمِّرت الأصنام وعُبد الإله الواحد.

المدينة كانت واحة زراعية خصبة جعلت حياة أهلها أكثر إستقراراً من حياة البدو والأعراب، وربما جعل ذلك الثبات والإستقرار حول الأرض والمياه أهلها أقل مغامرة، فلم تضطلع بذلك الدور في جوب العالم والإختلاط به كما حدث بالنسبة لمكة، ولم يكتشف أهل يثرب هذا الأمر إلا بعد أن سادت مكة سيادة إقتصادية وروحية على كل بلاد شبه الجزيرة. ولم يترك الصراع الدائم بين الأوس والخزرج أو بينهما وبين اليهود فرصة تاريخية كبرى، يمكن أن يلتقطوها، بينما أتاحت مكة الأكثر تنظيماً والأقل قتالاً وصراعاً والأكثر أحلافاً والأمتن تعاهداً، والأكثر غنى والأخصب تاريخاً، لأهلها أن يتبوأوا مركز الصدارة وسط القبائل العربية.

ثم نضطر هنا أن نتجاوز فجوة واضحة حول طبيعة العلاقة بين مكة ويثرب. ماهي أشكال الصراع الخافية والظاهرة بين المدينتين؟ وما شكل الأحلاف؟! وما هي المصالح التي تجمعهما أو تفرقهما؟!..الخ. لم نجد إجابات قاطعة لهذه الأسئلة، وإنما قد نجد إشارات عن بعض أحلاف ومعاهدات بين الأوس وقريش أو بين الخزرج وقريش لتأمين القوافل وعدم التعرض لها(١). أو بعض أحلاف الجوار بين ناس من المدينة وناس من مكة أو بين رجل من هنا أو من هناك وكلها ذات طابع فردي كنوع من الإجارة أو الولاء أو حماية القوافل أو استضافتها وما الى ذلك.

ويلفت انتباهنا أن غالبية الأنصار الأول كانوا من قبيلة

---

(١) انظر تاريخ العرب في الإسلام. إبراهيم العدوي. ص٦٢ حيث يقول (والتقى الرسول بنفر من قبيلة الأوس كانوا قد وفدوا إلى مكة لعقد تحالف مع قريش ضد الخزرج).

الخزرج، ذلك الوفد الذي خرج إلى سـوق عكاظ من بني عبـد الأشـهل الخزرجي فقابلوا الرسول وقالـوا له: «إنـا قد تـركنا قـومنا، ولا قـوم بينهم من العداوة والشر مابينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الـذى أجبناك إليـه من هذا الـدين فإن يجمعهم اللـه عليك، فـلا رجل أعـز منك».[1] وفي العـام التالي حضر وفـد من أهل يثـرب يضم إثنا عشـر شخصاً تسعـة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وفي العام التالي للحج جاء وفد من ثـلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين غالبيتهم كانـوا من الخزرج (قيـل إن عددهم كان اثنين وستين خزرجياً). وكان العباس بن عبد المطلب قـد حضر مـع النبي العقبة الثـانية واستهـل الحديث ـ بـرغم أنـه لم يكن قـد أسلم ـ ليأخذ المـواثيق من أهل يثـرب لإبن أخيه، فقـال: «يامعشـر الخزرج، إنَّ محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قـومنا من هـو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قـد أبى إلا الإنحياز إليكم واللحوق بكم، فـإن كنتم ترون أنكم وافـون له بمـا وعدتموه إليـه ومانعـوه ممن خالفـه، فأنتم ومـا تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده». ثم قال الرسول« أبـايعكم على أن تمنعونني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فتدخل أحد رجال يثـرب طالباً المزيد من المـواثيق لأن قبولهم لحمـايته ونصـرته يعني قطـع عـلاقة قبـائل يثـرب باليهـود وقال: «بيننـا وبين اليهود حبـال وإنـا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فرد الرسول «الدم الدم والهدم الهـدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم... أخرجوا إليَّ منكم إثنا عشر

---

(١) المرجع السابق. ص٦٢

نقيبا ليكونوا على قومكم بما فيهم ».[1]

وسـألهم العباس: صفـوا لي الحرب، كيف تقـاتلون عـدوّكم؟، فأجاب عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري «نحن والله أهـل حرب، غُذِّينا بها ومُرِّنا عليها، وورثناها عن آبائنا كابراً فكـابر. نـرمي بالنبـل حتى تفنى، ثم نطـاعن بالـرماح حتى تنكسـر، ثم نمشي بـالسيـوف فنضـارب بها حتى يمـوت الأعجل منـا أو من عدوِّنـا» فرد العبـاس متهللاً: أنتم أصحاب حـرب إذن، فهل فيكم دروع؟. قـالوا نعم لـدينا دروع شاملة.»[2].

ورغم هذا خرج العبـاس في موقعـة بدر مجبـراً على قتال ابن أخيه، وتمّ أسره فرغب في مغادرة الأسـر بلا فـدية قـائلاً إنـه مسلم يُخفي إسلامه، لكن النبي لم يقبل قوله وأمره أن يفدي معه ابن أخيه عقيل بن أبي طالب، ونـوفل بن الحـارث، وحليفه عتبـة بن عمرو أخـا بني الحارث بن فهر، لأن العباس كان غنياً، ومما يؤكـد عدم إسـلامه رد القرآن عليه **﴿يـاأيها النبي قـل لمن في أيديكم من الأسـرى إن يعلم اللـه في قلوبكم خيـراً يؤتكم خيراً ممـا أخـذ منكم ويغفـر لكم﴾**

وفي بيعة العَقبة الثـانية قـال أهل يثـرب لمحمد إنـا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. ولذا فإن النبي قد تخـوف قبل معـركة بـدر مباشـرة ألّا يكون الأنصـار ترى عليهـا نصـره إلا ممن دهمـه بـالمـدينـة من عـدوه، وأن ليس عليهم أن يسيـر بهم إلى عـدو من بـلادهم[3] لكنهم كانـوا قد خـرجوا للقـافلة التجـارية ومـا كـانـوا

---

(١) المرجع السابق. ص/٦٤.

(٢) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول. ص٥٢٢ ـ ٥٢٣

(٣) أنظر إبن كثير، السيرة النبوية ص٣٩٢ ج٢.

يستطيعون التراجع بعد أن اشتركوا في سرايا قطع الطرق ومهاجمة القوافل التجارية مع المهاجرين، فارتبط مصيرهم بمصير الآخرين.

جاء العباس، إذن، خفية وقيل ليلاً، مع إبن أخيه ليأخذ المواثيق من أهل يثرب، وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية.

ونعود فنقول: لماذا تميزت العقبة الأولى والثانية بتبعية أهل الخزرج أكثر من الأوس؟! وهنا نرجح - حيث لانملك غير ذلك - أن مكة كانت تلعب على الصراع التقليدي داخل يثرب، فتؤيد طرفاً وتتحالف معه ضد طرف آخر، ثم تعود لتفعل العكس طبقاً لتغير موازين القوى آنذاك. وربما كانت كفة الأوس أكثر رجحاناً عند سادة مكة من أعدائهم الخزرج، وقد رُوِي أن الأوس قد حضروا إلى مكة بحثاً عن أحلاف جديدة مع سادتها، وربما أثار ذلك الطرف الآخر ليتلقف دعوة محمد كحلف مناوىء للأوس وقريش. ولأن كثيراً من الأحلاف كانت تأخذ طابعاً فردياً، فربما استطاع الأوس أن يقووا علاقاتهم مع قريش بإحتواء الحماية للقوافل المارة عليهم، وقد اتضح ذلك الأمر أكثر بعد الهجرة، عندما خرج أبوعامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان بن ضبيعة الأوسي، إلى مكة مباعداً للرسول ومعه خمسين رجلاً من الأوس. وكان يعد قريشاً أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان وفي غزوة أُحُد خرج ضد محمد، ونادى قومه فلم يستجيبوا له، لأن الأمر كان قد أفلت من أيديهم هم باتباع محمد في كل غزواته، وقيل أنه قاتلهم قتالاً شديداً ثم أرضخهم بالحجارة فاستسلموا له [1] فإن صحت هذه الرواية فإنها تعني أيضاً بأن الأوس اشتركوا في حربهم ضد النبي مع

---

(١) نفس المرجع ج ٣ ص ١٨ وما بعدها .

قـريش. والبيعة كمـا قرأنـا لم تأخـذ شكلاً دينيـاً صافيـاً، كما يحب البعض أن يبالغ، بقدر ما أخذت شكلاً من أشكال تلك الأحـلاف التي كانت سائدة حينذاك، ولعل اشتراك العبـاس عم النبي رغم وثنيته في البيعة، أضفى عليها طابعاً قبلياً رغم تجاوز الـدعوة الإسـلامية لتلـك الحالة، فما كان يمكن للقوة أن تتخطى عصرها تخطياً كاملاً أو مطلقاً وخاصة في تلك الأيام الأولى، وعليه يمكن أن نفهم لِمَ استعان محمد بعمه في مواثيقه مع الخزرج.

والقـول بـوجـود عـدد من الأوس في البيعتين، يمكن تحليلـه باحتمال أن تلك الأقلية الأوسية ربما دسّت دسـاً لاستكشاف طبيعـة الحلف المضـاد، وقد حـدثنا القـرآن والتاريـخ عن المنافقين الـذين مـلأوا المدينـة بعـد هجـرة محمـد إليهـا، وربمـا أضيف الأوس في المرويات بعد نجاح الإسلام النهائي كمحاولة للقول بأنهم كانوا أيضاً من السبـاقين للإسـلام. وربما كـانت تلك الأقليـة الأوسية من هؤلاء الـذين رفضـوا الصـراع القبلي الـدائـر بين القبيلتين والـذي راح ضحيته عدد كبير من الفريقين، فرأوا في محمد فرصة لتجميـع أهل يثرب على كلمة واحدة، وفي هذه الحالة يمكن اعتبـارهم إستثناء من حالة عامة. وربما هنا تعني أن الأمـر تحيط به الإحتمـالات ولا يمكن الجزم فيها.

يُروى عن جابـر بن عبداللـه أن النبي كان يعـرض نفسه على الناس بالموقف بعرفة فيقول : هـل من رجل يحملني إلى قـومه، فـإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل. فأتاه رجل من همدان، فقال: ممن أنت؟ قال الـرجل: من همـدان. قال: فهـل عند قـومك من منعة؟ قال: نعم. ثم إن الرجل خشـي أن يخفر قومـه، فأتى الـرسول، فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابـل. قال: نعم. فـانطلق وجاء

وفد الأنصار في رجب[١] وعليه يمكن اعتبار أن أمر الأنصار بدأ بإجارة محمد من قريش حتى يبلغ مايريد، أما مسألة الدعوة والدين فلم تكن إلّا نوعاً من العرض يعرضه محمد على القبائل على الإيمان بدعوته كحد أقصى فإن رفضت طلب الحد الأدنى وهو نصرته وإجارته وحمايته من قريش ليبلغ مايريد من أمره فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج. قال: أمِن موالي (حلفاء) اليهود؟ قالوا: نعم. وقيل إنهم كانوا ستة أو ثمانية[٢]، فعادوا إلى قومهم ليخبروهم بأمر محمد، وأرسل النبي معهم مصعب بن عمير، فصلى بهم لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض [٣].

وكما أن بيعة العقبة الثانية كانت نقطة تحول في تاريخ القوة الإسلامية، كانت أيضاً نقطة تحول في تاريخ يترب نفسها. لأنه قرّبها من حلمها القديم بمضارعة مكانة مكة ذلك الحلم الذى كان دافعاً من الدوافع «التحتية» التي أفرزتها حالة الجدب داخل شبه الجزيرة العربية ككل. ولقد انعكس ذلك على الصراع على السلطة بين المهاجرين والأنصار بعد موت النبي، فيما سُمِّي «باجتماع» سقيفة بني ساعدة، ومؤشر ذلك ماقاله سعد بن عبادة زعيم الخزرج في هذه المناسبة: «يامعشر الأنصار، إن لكم لسابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب إنّ محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا الرسول ولا

---

(١) رواة أهل السنن الأربعة من طرق. وقال الترمذي حسن صحيح أنظر سيرة إبن كثير ج٢ ص١٧١

(٢) أنظر نفس المرجع ج٢ ص١٧٧

(٣) نفسه

يُعِزُّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمُّوا به، فلما أراد ربكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، وحتى أثخن الله لرسوله بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب..» فرد أبو بكر قائلاً (نحن الأمراء وأنتم الوزراء.) فقال الحباب بن المنذر: «يامعشر الأنصار، إملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم ولن يجترىء على خلافتكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم، وأنتم أهل العز والثروة وأولو العدة والمنعة والتجربة، وذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ماتصنعون، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ويقتضي عليكم أمركم، أبى هؤلاء إلا ماسمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير»، فرد عمر بن الخطاب قائلاً «.. ومن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدلٍّ بباطل، أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة؟). فقال الحباب: لاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبيكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ماسألتموه، فاجلوهم عن البلاد، وتولوا عليهم هذه الامور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإن بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين..»».

وانعكست أيضاً حالة ذلك الصراع الخفي بين مكة والمدينة قبل الإسلام، على طبيعته في ظل دولة عمر وعثمان والدولة الأموية عندما وصل الحد إلى كثرة الهجاء بين شعراء مكة وشعراء المدينة(١)، وذلك رغم أن طه حسين يقول«إن إستحالة الجهاد إلى

---

(١) يقول طه حسين في كتاب الادب الجاهلي ص١٢٢ ـ ١٢٣ (.. ومقه هده الرواية يسير =

جهاد سياسي بعد أن كان جهاداً دينياً قد استحدث عداوة بين مكة والمدينة أو بين قريش والأنصار» لم تكن موجودة من قبل، «فالسيرة تحدثنا بأن صلات المودة كانت قوية بين قريش وبين الأوس والخزرج قبل أن يهاجر النبي إلى المدينة، وكان ذلك معقولاً وطبيعياً، فقد كان الأوس والخزرج على طريق قريش إلى الشام، ولم يكن لهذه المدينة التجارية التي تسمى مكة من أن تؤمن طرقها التجارية وتوثق صلات المودة مع الذين يستطيعون أن يعرضوا هذا الطريق للخطر..»(١).

وبالطبع فإن مايقوله طه حسين منطقي، لكن ذلك لايعني بالضرورة أن ثمة اتفاق كلي مطلق بين مكة والمدينة، وأن أشكالاً أخرى من الصراعات تحت السطح لم تكن موجودة. وإلا لِمَ حاول الأوس تغيير أو تعزيز حلفهم مع قريش أثناء البعثة، وكان ذلك سبباً للدعاية للإسلام بين أهل يثرب؟ فهل كانت المعاهدات القديمة غير كافية؟ أم أن الحالة الإقتصادية داخل يثرب دفعت بعض القبائل للدعوة لتجديدها؟! أم أن للصراع بين الأوس والخزرج علاقة بذلك؟!. وقبل كل شيء ماالذي يجعل الخزرج ينصرون محمداً وقد خذلته كل القبائل العربية، ومحمد لم يكن منهم ولابينهم، وهم يعرفون أنهم بذلك يهدمون معاهدات بينهم وبين قريش إن كانت هناك

= لمن يلاحظ ماقدمناه من أن الأنصار كانوا موتورين وأن عصبيتهم لاتطمئن إلى انصراف الأمر عنهم، فكانوا يتعزون بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش، وما كان لهم من البلاء قبل موت النبي وماأفادوا بأيديهم وألسنتهم من مجد... وكان عمر قرشياً تكره عصبيته أن تُزدرى قريشاً وتنكر ماأصابها من هزيمة وماأشيع عنها من منكر، وكان فوق هذا كله أميراً حازماً يريد أن يضبط أمور الرعية وأن يؤسس مُلك المسلمين على شيء غير العصبية وقد وفق بعض التوفيق ولكنه لم يظفر بكل ما يريد ..).

(١) نفس المرجع ص١٢٠.

معاهدات؟! إلا إذا كانت هناك أسباب أخرى لم تذكرها كتب السيرة والتاريخ؟!. ثم إن المضار الأول من معاهدة العقبة الثانية هو مكة وليست يثرب، لأن تجارة الأولى هي التي تمر على المدينة ولا تستطيع قريش أن تؤثر في حياة يثرب تأثيراً قوياً، بقدر مايمكن أن يحدث النقيض!.

وقد دخل محمد يثرب وقد أنهكها صراع طويل بين الأوس والخزرج، كان قد انتهى بوقعة (بعاث) والتي قتل فيها خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل، وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة أنها قالت .

ـ كان يوم بعاث يوم قدمه الله لرسوله، فقد قَدِم الرسول إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقتل سراتهم.[1]

فبدلاً من أن يناوئه ملأ أو طامع في سلطة، إحتمت به الخزرج فأيدته وتأيدت به، وانتظرته الأوس فبحثت عن فرصتها فيه، فلم تعلن عداءها وأعلنت تأييدها بحثاً عن حماية به. وفي تفكك يثرب لم تجتمع عليه كلمة أو موقف. فقد كانت اللحظة التاريخية لحظة إنهاك تام والتقاط أنفاس. فما إن التقط أهل يثرب أنفاسهم إلا وكان محمد قد قوي بما فيه الكفاية، فرأوا أنفسهم يهرعون خلفه.

أما أمر القبائل العربية الأخرى فكان أكثر سهولة فتلك القبائل لم تضر ضرراً مباشراً بالدعوة المحمدية، ولم يكن يهمها محمد ولا دينه الجديد، فالمتناقضون الحقيقيون كانوا في مكة، والمضارون الأساسيون كانوا أيضاً في مكة، أما القبائل الأخرى فلم تنظر إلى الإسلام أو تعاديه إلا وهي تدافع عن نفسها في مواجهة

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج٢. ص١٧٥.

قوة صاعقة تحمل في طياتها روحاً جديدة، ففوجئت القبائل بـرؤوسها تتهاوى، وبسيوفٍ تعمـل في صدورهـا، فلم تملك إلا أن تـذعن ـ ولو إلى حين ـ لسطوة القوة الجديدة والتي هبت ريحها فعصفت بنظامها القـديم، وما كـان لها أن تنهض ثـانية إلا وهي تحمـل نفس الطابـع الجديد ونفس الأسلحة في مواجهة العالم الخارجي وإخضاعاً له

(٢)
التنظيم المحمدي الجديد

ثقافة محمد

رغم صعود مكة إلى مركز الصدارة في الجزيرة العربية، ورغم دور التجارة في نقل الأفكار وتداولها، وتقريب المسافات وتوحيد الثقافات، ورغم تلك الحالة من البحث عن الإستقرار بإصطناع بعض الأنظمة والقوانين والتحالفات، إلا أن الحياة كانت بدائية، والقوانين كانت بدائية، والنظم كانت بدائية، مقارنة بتلك المجتمعات التي بلغت شأناً متطوراً في المدنية والحضارة، كتلك الدول ذات التاريخ الحضاري الطويل كمصر والشام أو بيزنطة ورغم تأثر العرب بتلك الحضارات بشكل أو بآخر عبر التجارة والتنقل إلا أنه كان محدوداً للغاية، ويقول في ذلك أحمد أمين:

«كانت تتسرب هذه المدنيات من مجرى ضيق، وقد ينال التحريف ماينقلون من غيرهم، فلم يكن العرب يأخذون ممن حولهم علماً منظماً كما نأخذ نحن عن المدنية الغربية، لأن هناك عوائق كانت تحول دون ذلك منها العوائق الطبيعية بين العرب والفرس والروم من حيث الحالة الإجتماعية والدرجة العقلية، وأكثر ما يكون اقتباس الحضارة والمدنية إذا تقاربت العقليتان، ومنها إنتشار الأمية بين العرب إذ ذاك، حتى ندر أن تجد فيهم القارىء أو الكاتب، إنما كان المخالطون للفرس والروم ينقلون حِكَماً أو قصصاً أو أمثالاً أو حوادث

تاريخية مما يخف حمله على الناقل، ومما يستطيع البدوي ومن في حكمه أن يهضمه..»[١]

وقد اتضح هذا الأمر أكثر بعد إنتصار الإسلام وتخطيه حدود الجزيرة العربية فوجد الظروف غير الظروف والحياة غير الحياة في البلاد المفتوحة، فاختلطت التشريعات الإسلامية بالنظم والمدنيات التي قامت في هذه البلدان، وانفتح الباب واسعاً أمام الإجتهاد.[٢] أو كما يقول المستشرق الألماني جولتسير:

«إن فقهاء دمشق وبغداد لايمكنهم بقوانينهم البدائية التي حملوها معهم من الجزيرة العربية، سد حاجات مجتمعات بلغت شأواً بعيداً في المدنية والحضارة كالمجتمع السوري أو العراقي، ولهذا سارعوا إلى ابتداع نظام قانوني لمواجهة حاجات هذه المجتمعات الجديدة مستخدمين في ذلك الوسائل الرومانية»[٣]. وقد رُوِي أن الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في مكة لم يتجاوزوا السبعة عشر شخصاً حتى بدء الدعوة رغم أن بمكة أعظم قبائل العرب وأكثرها حضارة، حتى التجار الأثرياء لايصلحون أداة لنقل الفكر والثقافة الرومانية أو غيرها، وإن كانوا يصلحون لنقل بعض المظاهر المادية لحضارتها، ويؤكد هذا النظر أن العرب ظلواعلى حالهم من التأخر الإجتماعي رغم صلاتهم التجارية خارج جزيرة العرب.[٤]

وسواء كان الرقم (السبعة عشر قارئاً) دقيقاً أم لا، إلا أنه

---

(١) انظر كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين وتطبيق الشريعة الإسلامية.. لصوفي أبو طالب ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية صوفي أبو طالب

(3) Goldziher · In Byzantienische, Zeitschrift. P317-325

(٤) تطبيق الشريعة. صوفي أبو طالب. ص٢٥٣

يعكس - على كل حال - أمِّيّة سكان الجزيرة كصفة غالبة، مما يؤدي رغم كل مظاهر البهرجة الفارغة إلى توقف العلاقات والعادات والنظم والأفكار عند مستواها البدائي، وقد أشار القرآن إلى حالة العرب في الجاهلية قائلاً ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ الجمعة٢، وقد شرح البعض صفة الأمِّيّة التي جاءت في آيات كثيرة على هؤلاء القوم الذين ليس لهم كتاب توحيد كالوثنيين والمجوس، وقد قال النبي (نحن أمة أمِّيّة لاتكتب). ويقودنا ذلك إلى سؤال قد لانجد له إجابة قاطعة نظراً لاختلاف المرويات حوله، والسؤال هو: هل كان محمد أمِّيّا؟ بمعنى هل كان لايقرأ ولايكتب؟.

يقول القرآن ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل..**﴾ الأعراف١٥٧، ويقول القرآن﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون**﴾ العنكبوت٤٨. ويفسر البعض كلمة (الأمي) نسبة إلى أمة العرب التي ليس لها كتاب. وعندما يقول ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك**﴾ يعني أن ذلك قبل مجيء القرآن، ورغم ذلك شككت قريش في ذلك على لسان القرآن نفسه ﴿**وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً**﴾ وهذا يعني أن قريشاً كانت تشك في معرفة محمد للكتابة والقراءة، وقد ذكرت كتب التفسير إسم رجل زعمت قريش أنه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ النحل١٠٣، وقيل عنه أنه كان بياعاً في حانوت بمكة وكان الرسول

يجالسه ويأنس إليه ويحادثه.[1] فكيف برجل أعجمي ولغته غير عربية أن يُعلِّم قرآناً عربياً مبيناً؟!، فيرد أهل مكةبأنه لايمنع أن يكون هذا الرجل مجيداً للعربية ككل الموالي والرقيق الذين سقطوا في الأسر وبيعوا وأُتيَ بهم إلى مكة، أو أن الرسول نفسه كان يعرف اليونانية أو السريانية بحكم مخالطته للعجم والنصارى الذين كانوا يعيشون في مكة أو يأتون إليها، حتى أن أحد المستشرقين الإيطاليين قد بالغ في الأمر حين قال بأنه كان للرسول معرفة واسعة بالقانون الروماني البيزنطي(!!!).[2] وهذا الأمر لايحتاج لرد كثير، ذلك أن النظم والقوانين التي جاء بها الإسلام كانت عربية الطابع وارتبطت بفترة تاريخية طويلة منذ بدأ محمد دعوته حتى وفاته، ولم تأت مرة واحدة، اي أنها كانت إستجابة لمرحلة طويلة من الظروف التي مرت بالمسلمين داخل الجزيرة، وأما التطور الذى حدث فيما بعد فارتبط بالإجتهادات التي تمت أثناء الفتوح الواسعة والسريعة خارج بلاد العرب، وربما تكون تلك الإجتهادات آنذاك قد أُخذت من النظم والقوانين البيزنطية بحكم التعايش وسط تلك المدنيات، بل وسهولة النظم المعمول بها منذ وقت طويل داخل تلك البلدان، وبحكم تطور الكتابة ونمو حركة الترجمة فيما بعد. أما ماجاء في القرآن مخالفاً لنظم وعادات القبائل العربية فإنما جاء رداً على تلك النظم القبلية وضرباً لها، وإن كان قد إستمد روح الإنجيل والتوراة باعتبارهما كتابي التوحيد اللذين عاشا وسط العرب ردحاً طويلاً من الزمن.

---

(١) انظر. جواد علي. تاريخ العرب في الإسلام. ص١٧٦.

(2) CARUS · Il Problemo Scientıfico del dırınıtto musulumano. In.Rivısta Italıano. P147

يقـول أحمد أمين (....والبنـاء القانـوني الذي أقـامه الفقهـاء المسلمـون يعتمد أسـاسه على القـانون العـربي القديم الـذي تعدّل وصُحِّح على يد محمد وتطور تحت تأثير عناصر مستمدة من اليهودية والنصرانية، فإذا كان للغرب أثر في الشـريعة الإسـلامية فـإن ذلك كان بسبب قانون الكنيسة وليس بسبب القانون المدني..)[1]، وتروي السيرة الحلبية (.. أنه هو الـذي كتب الكتاب بيـده الشريفـة ..)[2]، وتروي سيرة إبن هشام حول صلح الحديبية (فبينما رسول الله يكتب الكتب هـو وسهيل)، وفي البخـاري (وأخذ الـرسول الكتـاب ليكتب، فكتب هذا ماقاضى عليه محمد، وقال لعلي: إمـح رسول اللـه، قال: لا واللـه لاأمحوك أبـداً، فأخـذه رسول اللـه فكتب هذا مـاقاضى عليـه محمد، لايدخل بالسـلاح..الخ)، وعن ابن شيبـة وغيره أنـه (مامـات رسـول الله حتى كتب وقـرأ) وقالـوا (إن معرفـة الكتابـة بعد أميتـه لاتنافي المعجزة، بل هي معجزة أخـرى بعد معـرفة أميتـه)[3]، وقال البعض الآخر (يحتمل أن يراد أنه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييـز الحروف كما يكتب بعض الملوك علاماتهم وهم أميُّون).[4]

ونحن نظن أو نـرجح بـأن النبي كان يجيـد القراءة والكتـابـة سواء قبل الدعوة أو بعدها، فكل ماترك من تراث من أحـاديث نبويـة وغيرها يتسم بـالبلاغـة وقوة البيـان، لايستطيع أن يـأتي بها إلا ملم باللغة الفصحى أو ضليع فيها، وقـد يُرَدُّ على ذلـك بأن الـرسول قـد اكتسب قـوة لسانـه من قبيلة بني سعـد في طفولتـه خارج مكـة فلم

---

(١) أنظر أحمد أمين، فجر الإسلام. لجنة التأليف والترجمة. القاهرة ١٩٤٥.

(٢) أنظر جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام ص١٧٦ ومابعدها. السيرة الحلبيـة ج١ ص٢٣.

(٣) نفسه. ص١٧٣.

(٤) أنظر الكامل في التاريخ لإبن الأثير. ج١ ص٣٧٣، سيرة إبن هشام ج١ ص١٦٩

يتشوه كما تشوهت اللغة العربية في مكة بحكم وضعها كمركز تجاري وسياحي تفد عليه كل الأجناس وقد يرد على ذلك أيضاً بأن الفصاحة وحدها لاتعني الإلمام بالقراءة والكتابة ككثير من الذين يحفظون الأشعار وأصول البلاغة وقواعد اللغة دون أن يكتبوا أو يقرأوا، وإنما إكتسبوها اكتسابا عبر السماع فقط، ورغم ندرة هؤلاء الناس فإننا نعتبرهم مثقفين، وقد ترك لنا التاريخ مثل أبي العلاء المعري كشاعر فذ لايكتب ولايقرأ بسبب عاهته، واذا وافقنا على أن محمداً قد إكتسب ثقافته الدينية وبلاغته اللغوية سماعياً فقط، فعلينا أن نهمل العوامل الأخرى والتي تشير إلى أنه كان يعرف أهمية القراءة والكتابة ولعلّ تعليم بعض أسرى بدر للمسلمين مبادىء القراءة والكتابة لخير دليل على ذلك، ولم نقرأ أنه طلب من أحدهم أن يعلمه هو نفسه القراءة والكتابة وهو أولى الناس بها بحكم موقعه الريادي تم اشتهر عن علي بن أبي طالب - باتفاق عام - أنه كان يجيد القراءة والكتابة منذ طفولته، ونحن نعرف أنه تربى وتعلم في حجر الرسول وتحت رعايته، فمن أين اكتسب كل علمه وبلاغته التي اشتهر بها؟، وكل صحابة النبي الذين هاجروا معه كانوا يقرأون ويكتبون، فهل يعقل أن يكون قائدهم ومعلمهم جاهلاً بالقراءة والكتابة؟.

وقبل كل شيء، فإن القرآن قد أُنزل على لسان محمد، فكان يقوله ويشرحه ويقرأه للناس بلا عوج أو تردد أو إلتواء، فهل يجوز مع قوة القرآن اللغوية أن ينطقه أمِّي ويعلِّم الناس به؟! وبالطبع لايستطيع أحد أن يتيقن من هذا الأمر أو يؤكده، وإنما يستطيع ترجيحه أو استنتاجه من مجمل التاريخ الذي ذكر حول الموضوع.

عاش محمد وسط العرب، لكنه لم يعش كأي عربي، فلم يقدس ماقدسوه ولم يحترم مايحترمونه، بل كان ثائراً على هذا الوضع،

مفكراً فيه، وكانت حياته صعبة، وُلِد فقيراً ويتيماً، حاول أن يخوض بحر التجارة فلم يربح الكثير، وأصدق تعبير عن هذا الوضع ما قاله له عمه أبو طالب (يابن أخي، أنا رجل لامال لي وقد اشتد الزمان، وألحت علينا ودامت سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضرت .)[١]، فملأت تلك الحالة نفس محمد ثورة وسخطاً على أقلية تفوق ثروتها كل ثروة الجزيرة العربية، فحلِم بتغيير تلك الحالة والإنتصار عليها. وكانت عزلته عزلة تأمل أكثر منها هروباً، وكانت عزلته عزلة بحث أكثر منها عزلة انسحاب عن الناس حوله.

لكن. ألم يتأثر محمد بحياة العرب حوله؟!

بلى، لقد تأثر، لأنه عاش وسطهم واستمد وعيه وثقافته مما حوله ومما رآه وعايشه. عايش حياتهم الدينية قبل البعثة، وقابل يهوداً ونصارى فسمع منهم[٢] ككل عربي يعرف قصص التوراة والإنجيل بحكم تواجد المسيحية واليهودية بين ظهرانيهم، وقد تهود بعض العرب وتنصر البعض الآخر، بعد أن «تسربت النصرانية إلى الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان معتنقوها من أتباع الكنيسة النسطورية في الحيرة، بينما إنتشر أتباع الكنيسة اليعقوبية في غسان والشام، وقامت عدة صوامع في وادي القرى، وكان أهم موطن للنصرانية في نجران وهم على مذهب اليعاقبة، ولكن ذا نواس وهو

---

(١) طبقات إبن سعد ج١ ص١١٩.

(٢) إشترك محمد وهو في الخامسة عشرة من عمره في حرب الفجار فكان ينبل عمومته وشاهد حلف الفضول لإنصاف المظلوم وخرج وهو في الثامنة عشرة من عمره مع عمه أبي طالب للتجارة إلى بُصرى بالشام مشاهد رهباناً ونصارى يقيمون بها وبمدين ووادي القرى وقيل أنه قابل راهباً يُدعى «بحيرا» فأوصى به عمه لما رآه من ذكاء. (أنظر جواد علي . تاريخ ص١٣٨).

يهـودي أعمل فيهم القتـل فاستنجـدوا بالحبشـة، وكانت مثلهم على المذهب اليعقوبي، والتي غزت جنوب الجزيرة العـربية مـا بين عامي ٥٢٢و٥٢٥م. وهـزمت ذانواس واستمـر احتلال الحبشـة حتى عـام ٥٧٥م حينما غزا الفـرس بلاد اليمن واستمـر بعض أتباع الكنيسـة اليعقـوبية في نجـران حتى أجلاهم عمـر بن الخطاب»[١]، «أمـا عن اليهود فبعضـهم كان من العرب الذين تهودوا وبعضـهم كان من الذين نزحوا من الشام إلى الجزيرة بعد إضطهاد الرومان لهم وهدم هيكـل سليمـان عام ٧٢م، وطـردهم اليهود نهـائياً من فلسطين عـام ١٣٢م وكان عددهم قليـلاً قبل الإسـلام ومعظمهم كانـوا في اليمن والبعض النازح أقام مستعمرات يهودية أشهرها في فدك وخيبر ووادي القرى ويثـرب والتـي عـاش فـي الأخيـرة بنـوالنضيـر وبنـوقينقـاع وبنوقريظة..».[٢]

فهـل يعقل ألا يتـأثر محمـد بهاتين العقيـدتين وهـو البـاحث والمتأمل والمفكر؟ ألا شك أن الإتجاه نحو فكرة الإله الـواحد ورفض الأصنام كانت لها علاقـة باليهـودية والنصـرانية، ككثيـر من العرب الذين تأثروا بهما لكن أفكارهم لم تستجب لهما وقـد دعوا بـالأحناف كزيد بن عمرو، وأمية بن الصلت، وورقة بن نوفل..الخ لكن تأثرهم لم يتعد طابعه الفردي، عكس محمد بن عبد الله الذي جاء مسلحاً بوعي أكبر وثقافة توحيدية وسخط على حالة الناس وعلاقاتهم داخل جزيرة العرب، فكان أول عنصر في قوته هو تلك الإيجابيـة الفاعلـة بحثاً عن تغيير شامل للأفكار والأوضاع داخل مكة وخـارجها، وبـدأت ملامـح ذلك الفعل بعد أن استقر معيشياً بالتجـارة لخديجـة ثم الزواج منهـا فيما بعد ليتفرغ بشكل شبه كامل لدعوته.

---

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام. ص٢٥ ـ ٢٩

(٢) نفسه ص٢٣ ـ ٢٥.

رُوِي أن قادة مكة إشتكوه إلى عمه أبي طالب وهو على فراش الموت، وقالواله: ماتريد من قومك؟، فرد محمد. ياعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات لاكلمة واحدة قال: لاإله إلا الله. فقالوا: أتريد أن تجعل الألهة إلهاً واحداً؟![1]، وهذا معناه - إن كانت الرواية صحيحة - أن نظرة محمد كانت أبعد من مجرد دعوة دينية، وبأنها كانت تحمل طابعاً إستراتيجياً منذ أيامها الأولى، رغم أنه رُوِي بأن محمداً كان في أيامه الأولى يدعو مكة ومن حولها وأن هذا كان غاية مراده ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها..﴾، وأن القول بعالمية الدين لم يأت إلا وهو ينتصر نصراً تلو الآخر ويغزو غزواً بعد غزو. وأيا كان القول، فإننا نعتقد بأن محمداً كان صاحب فكر، فلا بد إذن أن يتمنى أن تنتشر دعوته وتلقى مالقيته النصرانية من إتساع وما لقيته اليهودية من إعتناق في بقع كثيرة من العالم، إلا أنه كان عليه أن يبدأ من الأرض التي وُلِد فيها ويعرفها وباللغة التي يتكلمها ويُتقنها وبالروح العربية التي عايشها فعايشته.

منذ متى بالضبط كان محمد يفكر في قلب تلك الأوضاع؟

لم تقل كتب التاريخ شيئاً ولم تحدد لحظة فاصلة في حياته يمكن أن يشم منها أنه كان يجهز نفسه لأمر عظيم، سوى أن كتب السيرة قالت إن الوحي أتاه في غار حراء، وأنه كان مرة بأجياد فرأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح، يامحمد، أنا جبريل...[2].

---

(١) سيرة إبن كثير. ج٢. ص١٢٣، ١٢٤.

(٢) انظر حواد علي. تاريخ العرب، السيرة الحلبية ج١/٢٧٧

وكل مانستطيع قوله هو أن محمداً جاء واعياً بما حوله راغباً في تغييره، جاء كرد فعل ثوري على تلك المتناقضات التي كانت تعمل داخل جزيرة العرب وبشكل خاص مكة وماحولها، فرفعت تلك المتناقضات دعوة محمد إلى صدارة الأحداث ثم ألقتها في سدة القرار المتحكم في مستقبل شبه الجزيرة. لكن الفعل المحمدي لم يكن رد فعل فقط بقدر ماكان أمراً مقصوداً منظّماً إخترق فواصل التاريخ وتغرات التناقضات ليعلوها ويوجه مصيرها.

التنظيم السري

بدأ محمد بخديجة زوجه وحبيبته عندما عاد من حراء قائلاً «لقد خشيت على عقلي(بعد أن أصابته الحمى والرعشة فرأى ملكاً) فلما سمعت منه هذا الكلام هدأت روعه وطيبت خاطره قائلة له: كلا. أبشر فوالله لايخزيك أبداً. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكَل وتكسب المعدوم وتُقري الضيف وتعين على نوائب الحق»[1] فأخبرت إبن عمها ورقة بن نوفل الذي قيل عنه أنه كان أحد الحنفاء الذين رفضوا الأصنام وحرّموا الخمر على أنفسهم، وكما يقول البعض أنه قرأ التوراة وكتبها بالعبرانية وقرأ الكتب، وكتب الكتب العربية، ويكتب من الإنجيل بالعربية ماشاء الله[2]، ولم يرد خبر دخوله الإسلام إلا أنه طمأن خديجة وذُكر أنه أخبرها بأنه - أي محمد - النبي المنتظر. وبالطبع تبعه أهل بيته خديجة وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة الذي كان عبداً لخديجة فوهبته لمحمد وتبناه، وصلّوا وراءه.

ثم دعا أصدقاءه المقربين كخطوة تالية ومنهم أبوبكر وقيل إن

---

(١) أنظر جواد علي، عمدة القارىء ١٩/ ٣٠٤.
(٢) نفسه

أبابكر لم يتردد في الدخول طبقاً للحديث (مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ماكان من أبي بكر بن أبي قحافة ماعَكِم عنه حين ذكرته له وماتردد فيه.)[1] وتبع أبا بكر مجموعة من أصدقائه كعثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، ومعظمهم كانوا في سن محمداً شباباً ممتلئاً بالحماس والرغبة في التغيير فضلاً عن وجودهم الوسطي في التقسيمة الإجتماعية داخل مكة كما أسلفنا الذكر. وتبعه بعض العبيد والفقراء كبلال وعماربن ياسر، وأبي ذر الغفاري، فأمدوا دعوته بالطابع الثوري.

لم يكن النبي متعجِّلاً في ضم الناس إلى دعوته، بل ظل مايقارب الثلاثة أو الأربعة أعوام ولم يكن معه مايزيد عن الأربعين، وكان عليه أن يعلمهم ماتعلمه، فيكون منهم قادة دعوته وحملة لوائها، فيستطيع بهم أن يبدأ إعلانها على الناس بعد ذلك.

وتكونت الجماعة الأولى من المؤمنين من تجار أثرياء نسبياً إستطاعوا ـ لحد ما ـ أن يمدوا الدعوة بحاجاتها من المال وأن يشتروا بعض العبيد ويعتقوهم ويدخلوهم الإسلام، ومن رماة ومقاتلين شجعان كمسعود بن ربيعة القاري، وعتبة بن غزوان، ومن مملوكين كعامر بن فهيرة، إشتراه أبوبكر وأعتقه، وصهيب بن سنان الرومي مولى عبدالله بن جدعان وعمار بن ياسر ومن فقراء يشتعلون حماساً وحقداً، ومن قبائل مختلفة وحَّدها محمد تحت فكرة واحدة ووراء إله واحد باحثاً عن الإنتشارية في حذر، وعن تغلغل أفكاره وسط القبائل، فهذا مثلاً عمرو بن عنبسة يقول (أتيت الرسول وهو

---

(١) سيرة إبن هشام. ١/٢٦٨، إبن سيد الناس ١/٩١

بمكـة مستخفيـاً، فقلت: من أنت؟ قـال. نبي. قلت. ومـا النبي؟ قـال. رسول الله. قلت: الله أرسلك؟ قـال: نعم. قلت بم أرسلك؟ قـال. بأن نعبد الله ونكسر الأوثان ونصـل الأرحام. قلت: نِعم مـا أُرسلت به... فأسلمت وقلت: أتبعك يارسول الله؟ قال. لا ولكن إلحق بقـومك .)[1]، وحدث نفس الأمر مع أبي ذر الغفاري حين قـال له النبي: إرجـع إلى قومك حتى يبلغك أمري، فيعود إلى قبيلته غفار ليدعو فيها للإسلام

ورغم عدم تجانس تلك التركيبة الأولى أو ذلك الفصيـل الأول، بمعنى إنضمام الغني والفقير والعبـد والحر وبين قبيلـة وأخرى، إلا أن شيئـاً كان أقـوى من تلك الخـلافات الـراقـدة تحت السطـح قـد جمعهم. جمعتهم شخصية محمد والتي لابـد أنها كـانت تمتلك قـدراً كبيـراً من قوة التـأثير وبـلاغة الحجـة. وجمعتهم فكـرة واحـدة في مـواجهة متنـاقضات قـريش. وجمعهم عداؤهم لقـريش ورغبتهم في التغييـر. وجمعتهم أحلامهم التي تنـامت بإتبـاع طريق الثـورة كمثل أعلى وككل فكرة جديدة. ثم فيما بعد وحدهم عداوة قريش لهم جميعاً وبلا استثناء، فخلقت بذلك نوعاً من التجانس وسط خليط من الناس

ولأن محمداً كان واعياً بما يمكن أن يواجهه في مكة آثر الدعوة الفردية الطابع، سرية المحتوى، خوفاً من أن يضربها الموج قبل أن تمسك جذورها بالأرض. فكـانوا يتقـابلون في أطـراف مكة وشعـابها وإن أرادوا الصـلاة خرجـوا فرادى أو مثنى إلى الشعـاب والبـريـة يُصلُّـون على حذر ولهم عيـون ترى القـادم لتنبه المصلين عليـه فلا يؤخذوا على غرة[2]. وكانت الصلاة بلا أذان، فالأذان لم يَعْـلُ إلا في يثرب.

---

(١) الطبري ٢/٥.

(٢) جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام ص١٩٧

وعـرف محمد أهميـة العلاقـات القبلية داخـل جزيـرة العرب وعصبية الدم الضاربة في جذور الزمن والتي لايمكن أن يهدمها مـرة واحدة، ورغم أن دعوتـه كانت بعيـدة عن الروح القبليـة إلا أنه كـان يعرف أهميتها في الدفاع عنه ومؤازرته عند الحاجة، وقد قـال القرآن ﴿**وأنـذر عشيرتـك الأقربين**﴾ الشعـراء٢١٤. ورغم عـدم دخـولهم الإسلام إلا أنهم رغم ذلك دافعوا عنه وتحملوا الجوع والحصـار في شعب أبي طالب من أجل رابطـة الدم لا أكثـر ولا غير. ولعـل حضور العباس بيعة العقبة الثانية رغم وثنيته تحـدد إلى أي مدى كـان لتلك العلاقات من تأثير. (فعن ابن عمر أنه قـال: لما أُسـر الأسارى يـوم بدر، أُسر العبـاس فيمن أُسر. أسـره رجل من الأنصـار وقد وعـدته الأنصار أنهم قاتلوه فبلغ ذلك النبي فقال: لم أنم الليلة من أجل عمي العباس فقال له عمر فأتيهم؟ قال: نعم، فـأتى عمر الأنصـار فأخـذه منهم. فلما صار في يده قال لـه: ياعبـاس أسلم وماذاك إلا لمـا رأيت من الرسول يعجبه إسلامك، فاستشـار النبي أبابكر في أمر الأسـرى فقـال. عشيرتـك فـأرسلهم، وقـال عمـر: أقتلهم، ففـداهم النبي.)[١] وهكذا فعلت أيضاً العلاقات فعلهـا عندمـا إحتدم الصـراع بين مكة ومحمد.

عـرفت قريش دعـوة محمد ـ فهي لايمكن أن تبقى سـرِّيّة إلى الأبـد ـ ورغم أنها لم تـأخذهـا على محمل الجـد، بل سخـرت منهـا وهزأت بها. ثم حدثت وقعة شجـار تافهـة بين المسلمين وهم يصلُّون في شعب أبي دب وبين بعض الوثنيين، فاستـرجع محمـد المسلمين واختفى بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم وهـو رجـل ثـري مـن آل

---

(١) السيوطي. الدر المنثور. ج٣/٢٠١، ٢٠٢.

مخزوم الأقوياء في مكة وأمه من خزاعة وكان شاباً متحمساً، وكانت هذه الوقعة اختباراً لحكمة محمد ولجدية قريش. وقيل إن فترة الإختفاء لم تزد عن شهر وقيل إنها كانت عدة شهور حتى هدأت النفوس، وقيّم محمد كتيبته الأولى وإمكانية حماية دعوته فبدأ بعد السنة الرابعة من البعثة بالنضال العلني.

هكذا شكّل محمد تنظيمه القوي وسلّحه بالأفكار الجديدة واحتمى بالسرِّيّة وبتركيبة ذلك الفصيل، واحتمى في رابطة الدم والعشيرة، ثم إن التهاء قريش عنه وإهمالها له وعدم معاملة دعوته بجدية، معتبرة بهؤلاء الذين خرجوا أو صبأوا من دين آبائهم من قبل، متخيلة أن الزمن كفيل باسترجاعهم إلى حظيرة الوثنية. ثم لم يبد في الأيام الأولى من دعوة محمد مايهدد مصالح مكة التجارية أو موقعها المتميز. ونظراً للسرِّيّة التي تمت بها كانت فكرة قريش عنها مشوشة غير كاملة الملامح، فلم تملك إلا أن تسخر منها. فأتاح ذلك الإهمال أن يثبت محمد جذوره بالأرض التي يقف عليها، ثم يفاجئهم واقفا على رؤوسهم في الجبال والأسواق والكعبة وهو يصرخ فيهم بدعوته.

العلنية

يقول طه حسين(وأول مايحسن أن نلاحظه هو هذا الجهاد العنيف الذي اتصل بين النبي وأصحابه من جهة وبين قريش وأوليائها من جهة أخرى. أما في أول عهد الإسلام بالظهور حين كان النبي وأصحابه في مكة مستضعفين، فقد كان الجهاد جدلياً خالصاً، وكان النبي يقوم وحده بإزاء الكثرة المطلقة من قومه يجادلهم بالقرآن ويقارعهم بهذه الآيات المحكمات، فيبلغ منهم ويفحمهم ويضطرهم إلى الإعياء، وهو كلما بلغ من ذلك حظاً انتصر له من قومه فريق حتى

تكوّن له حزب ذو خطر، ولكنه لم يكن حزباً سياسياً ولم يكن يطمع في مُلك ولا تغلُّب ولا قهر، أو لم يكن ذلك في دعوتـه آنذاك. غيـر أن هذا الحزب كان كلما اشتدت قوته وقوى أسره، إشتدت مناضلة قريش له وفتنتها إياه، حتى كـان ماتعلم من الهجـرة الأولى ثم من هجرة النبي الى المدينة... ولكننا نستطيع أن نسجل مطمئنين أن هذه الهجرة قد وضعت مسـألة الخـلاف بين النبي وقريش وضعـاً جـديـداً، جعلت الخلاف سياسياً يعتمد في حله على القوة والسيف بعد أن كان دينياً يعتمد على الجدال والنضال بالحجة ليس غير..)[1].

فعنـدما خـرج محمد بـدعوتـه إلى الأسـواق أحست قـريش بخطورته، لكنها كانت مملـوءة بالإستهـانة بـه، ملهية عنـه بنزواتهـا ورغباتها وصراعها وحياتها الصاخبة. حقاً لابد وأنها كانت تخاف من تأثيره على الأعراب الذين يأتون للتجارة فيغريهم بالتمرد على سيادة مكة وهو لا يني يعرض نفسه على كل القبائل العربية هنا وهناك فيعد هؤلاء ويمتنع عن هؤلاء، فها هو يعرض نفسه على قبيلة بني شيبـان ابن ثعلبة، فيلاينـوه ويقولـون: إن أردت أن ننصرك ونمنعـك مما يلي العـرب فعلنا، فسـألهم محمـد: أرأيتم إن لم تلبثـوا إلا يسيـراً حتى يمنحكم بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه، فقـال له النعمـان بن شريـك: اللهم وإن ذلك لـك يـاأخـا قـريش.[2] ويعـرض نفسه مثـلاً على قبيلة «بني عـامـر بن صعصعـة» فيجلس يحدثهم عن دعوته، فيقولوا له: (أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟!) لكن محمـدا لم يستطع ذلك الوعد فقال: الأمر للّه حيث يشاء.[3]

---

(١) طه حسين، في الأدب الجاهلي ص١١٩.

(٢) سيرة إبن كثير ج٢ ص١٦٦ وما بعدها.

(٣) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول. ص٣٤.

ولا بد أن قريشاً كانت تخاف على آلهتها وآلهة القبائل لأنها مصدر للثروة والسلطة قبل أن تكون مصدراً للإمتلاء الروحي، فهم لم يكن يهمهم إله محمد بقدر ما أن هذا الإله يقرب الناس أو يبعدهم عن مصالحهم، فهم رغم وثنيتهم تعايشوا مع كل الأديان وعايشوا الحنفاء ووضعوا صورة المسيح والعذراء وتماثيلهما في الكعبة، بل إنهم قالوا في جدلهم مع محمد أنهم يعرفون إلهه لكن هذه التماثيل ليست إلا تقريباً لهم إليه، ذلك الإله الذي خلق الشمس والقمر والأرض وأسقط الأمطار وحرك الرياح، كما ذُكر في مواضع كثيرة من القرآن.[1].

وبقدر استهانة قريش بقدر ماكانت إجراءات «ملأها» لمواجهة محمد، فسلّطوا عليها جماعة من المستهزئين يسخرون منه، والمقتسمين الذين اقتسموا مكة ودأبوا على حضورهم المواسم وصد النبي عن الإتصال بالقبائل، ثم أخذت كل عشيرة توقع عقوباتها الخاصة بالتعذيب أو غيره على مسلميها. ثم حاولت قريش أن تجسّ نبض محمد فجرّبوا الإغراء قائلين له. إن كان يريد مالاً جمعوا له من أموالهم، وإن كان يريد شرفاً جعلوه بجوارهم سيداً، لكن محمداً كان أذكى من هذا وقد تخطاه بمراحل فرفض عروضهم وعاد رسولهم عتبة بن ربيعة قائلا لهم (..فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزُّكم وكنتم أسعد الناس به..). ولم يفلح معه التهديد ورفض أبو طالب تسليمه إليهم.

---

(١) (. والذين إتخذوا من دونه أولياء، مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى،.) الزمر٣، (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله) يونس١٨، (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) العنكبوت. الخ

ولم تتوقع قريش أبداً أن دعوته سيؤمن بها الأعراب والقبائل، ونظراً لحالة مكة آنذاك لم يتبع محمداً عدد كبير، وقد قال سعد بن معاذ (إن محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل..)[1].

ظل محمد يدعو أكثر من عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة في مكة قبل الهجرة ولم يزد المسلمون زيادة محسوسة، يؤكد ذلك هادي العلوي حين يقول(.. إن مسلمي مكة كانوا من المستضعفين والأحلاف وبعض الشباب القرشيين من العوائل العربية الارستقراطية وكان عددهم عند الهجرة لايزيد عن تسعين وقد نمت هذه الكتلة بسرعة بعد الهجرة)[2]. فإذا كانت فترة الإستخفاء ثلاث أو أربع سنين وعدد المسلمين بعدها أربعون، ثم فترة العلنية في مكة حوالي تسع سنوات وزاد عدد المسلمين إلى تسعين، أي خمسين مسلماً في تسع سنوات، فسنعرف مدى المقاومة التي لاقاها محمد في مكة. وبفرض عدم دقة الأرقام إلا أن الإتفاق العام يؤكد أن المسلمين قبل الهجرة كانوا قليلين جداً بالنسبة لعمر الدعوة آنذاك. فهل كانت إجراءات مكة لمواجهة محمد مؤثرة إلى هذه الدرجة؟ أم أن ارتباط أهل مكة غنيهم وفقيرهم بالكعبة كمصدر للرزق والحياة جعلهم يُزوِّرون عن دعوة محمد؟[3]، أم أن قريشاً كانت متدينة قوية

---

(١) أنظر إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ص٩٨.

(٢) مجلة «دراسات عربية»، مايو ١٩٨٦. نصوص منسية من التراث. ص١٠٦.

(٣) أنظر أحمد صادق سعد، النمط الآسيوي ص٨٤ وهو يقول (كانت التجارة والغنائم الحربية توفر «للحكام» موارد لاتتصل مباشرة بالزراعة اي بالوضع للإنتاج الداخلي، فتعطي لأجهزة «الدولة» إمكانية اكبر للإستقلال والإرتفاع عن البنية السفلى للمجتمع فمنح هذا للدولة نوعاً من الحصانة النسبية والإستقرار إزاء الإضطرابات التي يمكن =

الإيمان بدينها ولهذا الدين وللإيمان به جاهدت ماجاهدت وضحّت بماضحّت؟»[1]، أم أن محمداً قد فشل في تلك المرحلة في أن يتخطى عزلة المدن والقرى والواحات وهو يدعو إلى فكرة تَعِدُ الناس بجزاء في العالم الآخر بعد الموت قبل أن تعدهم بملء بطونهم الخاوية أو بجنات في الأرض وليس في السماء؟ ولعل قولة أبي لهب ابن عبدالعزى بن عبدالمطلب (يعدني محمد أشياء لاأراها يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك؟ ثم ينفخ في يديه ويقول (تباً لكما، لاأرى فيكما شيئاً مما يقول محمد؟! فيرد القرآن ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾»[2]، نقول لعل قولته تلك تعبر عن ذلك ولا سيما وأن ذلك الجدل لم يتحول إلى أداة فعالة بإضافة القوة إليه لتدب فيه الحياة ليصبح كائناً حياً مسلحاً يضرب بأسنة السيوف وعنف الحراب فيُقِرُّ حُجّة ويُقوِّض حجة أخرى.

والأسئلة كثيرة كثيرة، لكن المؤكد أن تلك السنين الطوال من الدعوة السلمية لم تؤت ثمارها بتغيير حالة المسلمين تغييراً جذرياً وإنما كانت ذات فائدة كبيرة فيما يسمى بلغة العصر الحديث «الدعاية السياسية». فرغم عدم تبعية القبائل للإسلام في هذه الفترة، إلا أن دعوة محمد كانت قد تخطت العزلة، فطيرتها الأنباء والأسواق، والرحالة من مكان لآخر، وسمع بها الجميع داخل جزيرة العرب، بل كانت الهجرة للحبشة نوعاً من الدعاية للإسلام خارج حدود شبه الجزيرة، وهي لم تكن هجرة بالمعنى المفهوم للكلمة وإنما

= ان نسميها طبقية) ورغم ان الجزيرة لم تكن دولة إلا اننا يمكن أن نرى ذلك مشابهاً بوجه من الوجوه للحالة التي كانت عليها الجزيرة قبل وأثناء البعثة مما جعل الصراع الطبقي غير واضح الملامح وأقل حدة

(١) طه حسين، في الأدب الجاهلي ص٧٥

(٢) سيرة إبن كثير ٢/ ٤٩

كانت إجراءاً وقائياً لحماية المسلمين في البداية نتيجة ضغوط قريش عليهم لكي لايضعفوا في مواجهة الأهل والأصدقاء والأبناء والمصالح، وكانت وسيلة للتجارة أيضاً، فكثيرون ذهبوا ثم عادوا ثم ذهبوا ثم عادوا والذين عادوا أول مرة هم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت النبي، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته، وعبدالله بن جحش، وعتبة بن غزوان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم قيل إنهم كانوا ثلاثة وثلاثين رجلاً، ونلاحظ فيهم التاجر والمثقف كعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير، فإذا راجعت شخصية هؤلاء، لاكتشفت إلى أي مدى كان ذلك الإختيار ذكياً، ولعل إختيار مصعب كأول مهاجر للمدينة كان يحمل دوره في الدعاية للإسلام. وربما أضيف إلى تلك الدعاية السياسية مع الغادين والرائحين من هوى النفوس وحكايات القصاصين، وربما وصلت إلى القبائل البعيدة فأدهشت البعض وأثارت البعض الاخر، لكنها لم تقلب حياة الناس رغم هذه الأعوام الطويلة من الجدل بين محمد والقبائل. ولأن محمداً كان مدركاً لأسباب إمتناع العرب عن دعوته، كان يقول لهم: لاأُكره أحداً منكم على شيء، فمن رضِيَ بما أدعو إليه فذلك. ومن كره لم أُكرهه، وإنما أريد أن تُحرزوني فيما يراد لي من القتل حتى أُبلِّغ رسالة ربي. وكان العرب يقولون. أفسد قومه ولفظوه، فلا حاجة لنا به.[١] ولما تغيرت الموازين، أُمر بقتالهم حتى يسلموا فرضخوا للسيف طوعاً أوكرهاً.

ثم جاءت الفرصة التاريخية والتي أتاحت للفكرة الإسلامية أن تخرج من عزلتها وأن تمتلك وسائل قوّتها فتضرب وتغنم، ثم تضرب فتنتصر، ثم تضرب فتُرهِب، ولم تنته تلك المرحلة القصيرة نسبياً

---

(١) سيرة إبن كثير. ٢/١٥٨.

ـ بحكم الأحداث الجسام التي وقعت فيها ـ إلا وقد بسط الإسلام سيادته.على كل أرض العرب. وهذه الفرصة التاريخية تمثلت في بيعة العقبة الثانية، والتي ذكرنا تفصيلها سابقاً. وهنا بالذات أدركت قريش جدِّيّة الموقف وخطورته، فلو أن تلك البيعة قد تمت بين محمد وبين قبائل عربية أخرى، لاتمر تجارة مكة عليها، فإنها ماكانت قد قابلت الأمر بذلك الفزع الذى تجلى في تصرفاتها، لأن تجارة قريش مع الشام ستصبح مهددة من ذلك الحلف الجديد، ففي الصباح التالي لليلة العقبة، عرفت قريش بالأمر، فذهبوا من فورهم إلى رحال أهل يثرب وقالوا لهم: يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله مامن حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم)، فانبعث وثنيوًا يثرب يحلفون ماكان من هذا شيء وماعلموه، وانطلقوا إلى عبد الله بن أبي سلول، فقال لهم. إن هذا لأمر جسيم، ماكان قومي ليتفرقوا على مثل هذا.[1] واجتمعت قريش على عجل في دار الندوة وقرر الملأ أن يتم التخلص من محمد ويكون قتله جماعياً بحيث تشترك فيه كل بطون قريش ليتفرق دمه، فتعجز عشيرة محمد عن حربها جميعاً فتقبل الدية، لكن النبي كان متوقعاً لغضبة قريش فقرّر الهجرة إلى يثرب قبل أن تطوله أيديهم، فدخل إلى شعب أبي طالب ليمنع عنه أذى قريش وكان إذا جاء الليل رقد في مكانه أحد أولاد عمومته.

وبالهجرة بدأ محمد مرحلة جديدة وانتهى من مرحلة قديمة، لقد جاءت فرصته التاريخية وما كان له أن يتركها تضيع من يديه، وكانت نقطة تحول كبرى في تاريخ القوة الإسلامية ويؤكد ذلك طه

---

(١) نفسه. ص٢٠٤، ٢٠٥

حسين حين يقول: «منذ هاجر النبي إلى المدينة، تكونت للإسلام وحدة سياسية لها قوتها المادية وبأسها الشديد، وأحست قريش أن الأمر قد تجاوز الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة إلى شيء آخر فيما يظهر أعظم خطراً في نفوس قريش من الدين ومايتصل به وهو السيادة السياسية في الحجاز، والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التي كانت ترحل إليها بتجارتها في الشتاء والصيف. وأنت تعلم أن محاولة الإستيلاء على العير هو أصل الوقعة الكبرى الأولى بين النبي وقريش في بدر. فليس من شك إذن في أن الجهاد بين النبي وقريش قد كان دينياً خالصاً ما أقام النبي في مكة، فلما انتقل إلى المدينة أصبح هذا الجهاد سياسياً ودينياً واقتصادياً وأصبح موضوع النزاع بين قريش والمسلمين ليس مقصوراً على أن الإسلام حق أو غير حق بل هو يتناول مع ذلك الأمة العربية أو الحجازية على أقل تقدير لمن تذعن والطرق التجارية لمن تخضع...)[1].

(١) في الأدب الجاهلي. ص١١٩.

(٣)
فـك الحصـــار

كان حلف العقبة الثانية فرصة تاريخية للنبي ليخرج من عزلته وحالة الحصار التي عاشها داخل مكة بعد أن تجمدت أوضاع دعوته عند أقلية لاتزيد إلا ببطء شديد كما ذكرنا. وكانت يثرب أهم نقطة في ذلك التحول، لأنها لم تكن مدينـة كأي مـدينة ولا واحـة كأي واحـة، وإنما كانت المدينة الثانية بعد مكة في الأرض الحجازية، وأول مدينة خصبة ذات زرع ومياه، وبها تمر طرق التجارة إلى الشام ومنها، وبها أهل الكتاب الذين تركوا بذرة توحيد داخل نفوس أهلها فكانت مؤهلة لتقبل الدعوة الجديدة ومستعدة لنصرتها، وبهـا مقاتلـون أشداء ذوو خبـرة طويلـة في حروب المـدن وحـروب الصحـراء وغـارات البـدو والصراعات القبلية، وقيل إنهم كـانوا أهـل القلاع والـدروع والآطام الحصينة، وفوق كل شيء فهي مدينة لم تكن غريبة على محمد، ففيها أخواله من بني النجار وأمه منهم[١]. وقبل كل شيء فهي مدينة مـات سـادتها في قتـال دموي طـويل، فكـانت بـلا سيـد حقيقي ومنهكـة مقطوعة الأنفاس بعد وقعـة «بعاث»، وكـانت أحلافهـا مع مكـة تتغير وتختلف طبقاً لحالة الصراع داخلها، وبها بنية إقتصادية تعتمد على الزراعة والرعي، كأساس أكبر للحياة عكس حياة المكيين التي تعتمد

---

(١) انظر جواد علي تاريخ العرب في الإسلام وسيرة إبن هشام ص١٠٢، ١٠٨

على التجارة والدين بشكل أساسي، لكن الصفة العائلية أو العشائرية كانت أكثر وضوحاً من الصفة الطبقية كبقية الحياة داخل شبه الجزيرة.

كانت مكة إذن، نقطة قوية لم يستطع محمد تذليلها، لكنها كانت نقطة الدعاية التي عرفت بها الجزيرة العربية كلها دعوته، ولم يكن له في القبائل سوى أتباع قليلون، وكان البعض قد فرَّ إلى الحبشة كملجأ أمين في زمن الضعف الأول.

وبمناصرة يثربية ظلت تتنامى على مدى عامين، كانت الثغرة تتسع لينفذ منها، فتصبح نقطة رحبة وأقل مقاومة أو بلا مقاومة حقيقية له. فيثرب منقسمة على نفسها وقد فني ملؤها، ويثرب لاتمتلك كعبة يحج إليها العرب، وليست تجارتها محور حياتها، وأثرى الأثرياء يمرون بقوافلهم عليها غدوّاً ورواحاً فيثيروا شهيتها وحسدها، وهكذا استقبلت يثرب محمداً. فنظر غير المتحمسين إليه بحذر إنتظاراً وتقوقع اليهود في مستعمراتهم يتبعونه شذراً إلى أن تأتي الأيام بجديد، ونظر المتحمسون إليه كقائد بديل يلتقطون أنفاسهم خلفه بعد حروبهم الطويلة.

التراكمات

لم تتحدث كتب السيرة تفصيلاً عن كيف عاش المهاجرون داخل يثرب، عدا بعض الإشارات القرآنية وبعض الروايات تحدثت عن نصرة الأنصار ومشاركة المهاجرين في أموالهم وبيوتهم وحتى نسائهم. وهو أمر رغم أهميته إلا أن روح المبالغة قد سادته. ولم تذكر كتب التاريخ عدد الذين دخلوا الإسلام بعد الهجرة مباشرة، سوى أننا وكأننا نقرأ في كتب السيرة أن كل أهل يثرب قد أسلموا عدا اليهود. وفي القصص تبدو يثرب كلها مستقبلة لمحمد مرحبة به

بلا جدال وبلا روية ولا أخذ ولا رد، وأن محمداً قد دخل يثرب زعيماً لها وقائداً متحكماً في أمورها، وكأنها كانت خالية تماماً من قادة قبائلها وزعمائهم، ومن الوثنيين ودينهم ومن اليهود وسادتهم. ونرى في القصص والروايات الإعلامية الطابع إشارات طفيفة لاتغني ولا تسمن من جوع، فتزداد حيرتنا أكثر، لأنه لابد وأن ليثرب حياتها الخاصة، الدينية والعقائدية والإقتصادية والإجتماعية، ولسادتها الجدد ولناسها وعشائرها أهواؤهم وقناعاتهم ومصالحهم وأحلافهم القديمة ونظمهم السائدة فلا تستسلم هكذا ببساطة أمام وافد غريب عليها، وهذا أمر لم تعرفه العرب وغير العرب، ويناقض طبيعة الأشياء، ولا سيما وأن محمداً لم يدخلها فاتحاً بقوة السلاح وإنما دخلها ملتجئاً إليها من بطش قريش.. وهناك رواية أكدها القرآن في قوله ﴿.. **هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون**﴾ المنافقون٧، وقال البخاري (عن جابر بن عبدالله قال كنا في غزاة فكسح رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري ياللأنصار، وقال المهاجر ياللمهاجرين، فرد النبي بعد أن سمع قصتهما دعوها فإنها منتنة، وقال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبدالله بن أُبي: أو قد فعلوا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن منها الأعز الأذل)[١]، (ثم قال يابني الأوس والخزرج عليكم صاحبكم وحليفكم ثم قال. والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل· سمِّن كلبك يأكلك.)[٢]. فقال عمر ابن الخطاب دعني يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق، لكن حكمة

---

(١) صحيح البحاري، ج٣./ ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) الدر المنثور للسيوطي ج٦./ ٢٢٥

محمد قالت: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

ورغم حدوث هذه القصة فيما بعد وكانت قوة المسلمين قد ازدادت بكثير عن ذي قبل، إلا أنها كانت تعكس نفسية بعض أهل يثرب الذين كانوا يتبعون محمداً وهم غير راضين، فإن انتصر كانت لهم، وإن كانت عليه فهم لم يقطعوا حبالهم كلها مع أحلامهم ومصالحهم وأحلافهم القديمة. ومن هنا يتضح أن محمداً دخل يثرب تحت حماية بعض الخزرجيين وتحت مظلة أحد زعمائها سعد بن عبادة، وأخذ وضعه شبه القيادي على مجموعة المسلمين فقط لا على يثرب كلها كما تشير إلى ذلك بعض كتب التاريخ إستناداً إلى الصحيفة التي كانت بين محمد وعشائر يثرب كلها في نصها.. (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد).[1] معتمدين على أن تلك المعاهدة قد وقعت بعد الهجرة مباشرة. لكننا نعتقد بأن تلك المعاهدة - إن كانت النصوص المذكورة في محتواها دقيقة - لم تحدث إلا بعد معركة بدر وكما تؤكد ذلك بعض كتب السيرة، ونرى ذلك منطقياً بحكم توازن القوى داخل يثرب بعد بدر، ذلك الأمر الذى لايمكن حدوثه ومحمد وأصحابه أقلية هاربة لاجئة من بطش قريش معتمدة على مواثيق بيعة العقبة بينه وبين من ناصره من أهل يثرب. وسنقرأ نصوص تلك الصحيفة تفصيلاً فيما بعد. ومما يؤكد هذا الأمر هو أن جماعة المسلمين من المهاجرين والانصار كانت قليلة بالنسبة لبقية أهل يثرب في تلك الأيام الأولى - بل بعد مايقارب العامين في يثرب - وأصدق تعبير عن ذلك، أقصى إمكانيات التعبئة الإسلامية في وقعة العير (معركة بدر) لم تزد عن ثلثمائة رجل، منهم حوالى المائة من المهاجرين والبقية

---

(١) انظر. عمر شريف كتاب الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية ص٢٠ - ٢١.

من الأنصار، فهل يعقل ليثرب بتاريخها الحربي الطويل أن تكون هذه أقصى إمكانيات تعبئة لديهـا، إن لم يكن عدد المسلمين آنـذاك ليس من الكثرة بمكان يجعلها تواجه قريشاً التي خرجت بألف رجل لتنقـذ عيرها؟! الأمر الآخر هو قدرة التعبئة المدينيـة والتي وصلت الثلاثـة آلاف رجل - أي عشرة أضعاف جيش بدر - في معـارك تاليـة سيرد ذكرها في الفصول القادمة.

علينـا إذن، أن نراجـع كتب التاريـخ وننكش فيها علّنـا نجـد مـايمكن أن يجيب عن هذه الأسئلـة، لكن لـلأسف لانقـرأ سـوى أن العقيـدة قد مـلأت أهل يثـرب فاستهـانـوا بكـل شيء، بحـاجـاتهم وتاريخهم وتراثهم ودنياهم كلها وناصروا الـوافدين عليهم الملتجئين إليهم بلا تردد وأعطوهم عقولهم يتصرفون فيهـا كما شـاءوا، ونصف نسائهم ينكحونهن، وأرضهم يشاركونهم فيها رزقها وخيرها.[١]

ونحن بالطبع لاننكر دور العقيدة الجديدة، ولكننا لانستطيع أن نهمل ماللعوامل الأخرى من تأثير كبير ولا سيمـا وأن العقيدة كـانت جديدة ولم تكتمل بعد شرائعها وقرآنها ووسائل وحدتها كبنية فكريـة متكاملة واحتاجت وقتاً طـويلاً لتكـون بالصـورة التي أصبحت عليها بعـد فتح مكـة، واحتـاجت وقتـاً أطـول بعـد ذلـك لتتمكن من قلـوب الناس.[٢]

وهنـا يثـور سؤال يحتـاج إجـابـة شـافيـة، وهـو كيف واجـه المهاجرون حياتهم الأولى من ناحية المأكل والمشرب والمعاش، فإن

---

(١) أنظر سيرة إبن هشام وإبن إسحاق وإبن كثير وغيرها لتتأكد من هذا الامر

(٢) (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) المائـدة٣. بعد فتح مكة في حجة الوداع

لم نهمل دور الأنصار في المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين[١]، علينا أيضاً ألا نهمل إمكانيات المهاجرين حينذاك، بل علينا أيضاً أن نسأل إلى أي مدى كانت تلك المؤاخاة فعالة في حل مشكلات اللاجئين الجدد بأسرهم وحاجاتهم؟ فغنى الأنصار لم يكن من النوع المكي الفاحش، ورغم خصوبة أرض المدينة ومائها إلا أنها بكل الحسابات النسبية كانت واحة فقيرة وزعت إمكانياتها طبقاً للتقسيمة الإجتماعية القبلية داخلها، فاستحوذ اليهود على نصيب كبير واستحوذت قبيلتا الأوس والخزرج على نصيب آخر أيضاً وكما قلنا فإن المسلمين كانوا قلة، وبالتالي كانت إمكانياتهم في هذه التقسيمة ـ رغم ماأخذوه معهم من أموال ـ ليست عالية جداً، ولم يكن محمد قد تمكن من الأمور أو آل اليه مصير يثرب، ونامت كل عشيرة على ماتملك بما يكفي حاجاتها ويؤمن حياتها وهو لم يكن رزقاً يسيراً أو سهلاً يمكن التفريط فيه بتلك البساطة، وإن دخل نظام المؤاخاة هنا فإن مشاركته لابد وكانت مشاركة رمزية أكثر منها حلاً لحاجات المهاجرين أو حلاً لمتطلبات الصراع الذي اندلع بعد قليل لأن إمكانيات الأنصار وحدهم كانت قليلة بفعل العوامل السابق ذكرها

كان بعض الذين هاجروا أغنياء لحد ما، كعثمان وابن عوف وأبي بكر، فجعلوا جزءاً من رصيدهم المالي لمساعدة المهاجرين، لكن نموهم قد توقف بفعل مغادرتهم مكة وحرمانهم من أهم مورد وهو التجارة. وكانوا قد حملوا كل أموالهم السائلة معهم كما فعل أبو بكر

---

(١) (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الحشر ٨،٩.

حينما لم يترك شيئاً كما تروي كتب السيرة، وأصولهم كالبيوت والعقارات والأراضي تركوها في حوزة أقاربهم وعائلاتهم لحمايتها رغم أن بعض الآراء تنوّه إلى خروج المسلمين إلى عير مكة لم يكن إلا إنتقاماً لأموالهم التي أخذتها قريش واستولت عليها ، وقصة خاطب ابن أبي بلتعة تشير إلى أهمية النسب في حماية الأسوال من أن تطولها يد قريش، فقد رُوِي أنه كان يكتب إلى المشركين بمكة عن أخبار النبي، فتم ضبط كتاب كان قد أرسله لمكة، وعندما سأله النبي عن سبب ذلك قال: أحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصنع إليهم يداً يحمون بها أهلي وأموالي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فأمرهم الرسول بألا يتخذوا عدوهم أولياء يلقون إليهم بالمودة، كما جاء في سورة الممتحنة الآية١.[1] بل إن بعضهم كان قد استاء من المشركين على أموالهم بمكة، فهذا عبد الرحمن بن عوف يقول (كاتبت أمية بن خلف أن يحفظني في صياغتي بمكة وأحفظه في صياغته بالمدينة..).[2]

ولم يتخل هؤلاء عن طبيعتهم القديمة فقاموا فتاجروا مع أهل يثرب. تاجر عثمان وابن عوف وغيرهم، بل وقيل إن ابن الخطاب نفسه كان يتاجر، فقد أخرج البيهقي[3] أن عمر بن الخطاب مرّ بغلام وهو يقرأ في المصحف **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾** فقال. ياغلام إمحها، فقال: هذا مصحف أبي، فذهب إليه فسأله، فقال: إنه النبي كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق في الأسواق (أي عندما كنت أحفظ القرآن عن محمد كان

---

(١) السيوطي الدر المنثور ج٦/٢٠٢

(٢) أنظر السيرة النبوية لإبن كثير ج٢/ ٤٦١ ومابعدها

(٣) البيهقي (هو ابوبكر أحمد بن الحسين بن موسى الخسروجردي صاحب التصانيف من خراسان ٣٨٤ ـ ٤٥٨هـ.) أنظر سننه الكبرى

يأمركم أنتم بالتجارة). واشترى النبي والمهاجرون الأغنياء مربداً ليبنوا فيه مسجدهم ونظفوا مقابر قديمة وخرائب قطعوا نخلها كانت تتبع بني النجار قرابة النبي، فبنوا فيها دورهم ومساكنهم.

يروي الطبري في تفسيره عن جابر بن عبدالله أنه قال (بينما النبي يخطب يوم الجمعه قائماً، إذا قدمت عير المدينة فابتدرها أصحابه حتى لم يبق منهم إلا إثناعشر رجلاً أنا فيهم وأبوبكر وعمر)، فقال القرآن **﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضُّوا إليها وتركوك قائماً، قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة..﴾** الجمعة١١، وقال النبي متألماً من موقف الصحابة: والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لايبقى معي أحد منكم لسال بكم الوادي ناراً.[١] وقد وقعت حادثة بعد فداء أسرى بدر تذكر بأن سبعة من المهاجرين كانوا ينفقون على أسارى مشركي بدر منهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبوعبيدة بن الجراح [٢] فهل كان رصيدهم يسمح بذلك ولاسيّما وأن عدد الأسرى كان سبعين رجلاً؟! مما أثار ثائرة الأنصار فقالوا: قتلناهم في الله ورسوله وتوفونهم بالنفقة؟! ورغم منطقية غضبهم في تلك الأيام الصعبة إلا أن الروح العصبية كانت تفعل فعلها أحياناً بشكل ظاهر أو خفي، وقد حسم القرآن الأمر في سبع عشرة آية من سورة الإنسان واعداً هؤلاء المنفقين بالجنة **﴿... يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً..﴾**. وقد كان محمد واضعاً في اعتباره انتقام قريش منهم قبل كل شيء محاولاً أن يكسب الأسرى في صفه فوقف في صف

---

(١) تفسير إبن جرير ٦/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) السيوطي. الدر المنثور ٦/٢٩٨.

المهاجرين رغم غضب الأنصار.

ويروى أن النبي قد آخى بين إبن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى، فقال سعد له: أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب لك أطلقها وتتزوجها، فردّ إبن عوف قائلاً: دلّوني على السوق. وخرج إليه فاشترى وباع وربح. وبسبب غناه الفاحش قال له النبي (إنك ستدخل الجنة حبواً فاقرض الله يطلق قدميك).[1]

ورغم إنشغال بعض الصحابة بالتجارة في يترب وحولها، إلا أن ذلك لم يكن مؤثراً ولا فعالاً، وقد كان المهاجرون بلا عمل حقيقي يؤمن تراكماً ينقل جماعة الإسلام الأولى من حالة الحاجة إلى حالة الإكتفاء. ربما يكون بعض فقراء المهاجرين قد عمل في أرض الأنصار أو في أراضي غيرهم، لكن ذلك لايكفي بحكم أن يترب كانت مشبعة بسكانها وحاجاتها، فكان اللاجئون عبئاً حقيقياً على يثرب لولا أن الأحداث قد أخذت وجهة أخرى.

وربما كانت تلك الحاجة، بل كانت كذلك، هي العامل الأساسي في دفع عجلة التاريخ بسرعة كبيرة لتتخطى هؤلاء الذين يأكلون أرصدتهم القديمة، لتضيف أرصدة جديدة أعطت القوة الناشئة وغذتها، وبها إكتشفت تلك القوة نفسها وقدرتها على الفعل، بل وقدرتها على المبادرة في وقت كانت قد تحررت نهائياً من قيود القبلية

---

(١) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول ص٥٨٨.

(انظر كتاب د. إبراهيم بيضون. تكوّن الإتجاهات السياسية في الإسلام ص١٠١، وهو يتهم عبد الرحمن بن عوف بأنه أحد مدبري إغتيال عمر بن الخطاب قائلاً: «فقد إنتقل هذا الصحابي الشديد الثراء فجأة إلى واجهة الأحداث بعد أن عاش في الظل طويلاً، منصرفاً إلى شئونه المالية والتجارية والتي أصاب فيها الموقع الأقوى منذ الهجرة الى المدينة.»)

وأحلافها القديمة، فأعطاها مساحة واسعة من الحركة، فاندفعت بلا تردد تجني الإنتصارات والغنائم تلو الغنائم تلك التي شكلت أهم مورد إقتصادي لنواة الدولة المحمدية الآخذة في التشكل

ونحن هنا نتكلم عن الحاجة الملحة للعيش، تلك التي قال فيها النبي (اللهم إنهم جياع فأشبعهم. اللهم إنهم عراة فاكسهم. اللهم إنهم ضعاف فقوهم)[1]، قبل أن تكون القضية قضية دين، هذه الحاجة نفسها هي التي دفعت محمداً وأصحابه لاعتراض طريق أكبر قافلة تجارية في مكة محاولين السيطرة عليها. فقد رُوِي عن أبي أيوب الأنصاري قال. قال لنا الرسول ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت، ماترون فيها؟ لعل الله يغنمناها ويسلمنا. فخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين، أمرنا الرسول أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن تلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبي بعدتنا. فقال: ماترون في القوم فإنهم أخبروا بمخرجكم فقلنا يارسول الله: لا. والله مالنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير. ثم قال ماترون في قتال اليوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لاتقولوا كما قال أصحاب موسى لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون. فقال القرآن **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ماتبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين..﴾** الأنفال٥،٦،٧،٨. فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما القوم وإما العير طابت أنفسنا، ثم إنا اجتمعنا

---

(١) (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) البقرة ١٥٥

مع القوم فصففنا فقال النبي: اللهم إني أنشدك وعدك.(١)

لكن اعتراض العير هذا لم يأت فجأة، فقد كان محمد يجهز له وهو يستكشف الطرق والممرات والجبال حول يترب، وليجس نبض قريش ويعرف نواياها وهي ترسل ببعض فصائلها وخيالاتها لحماية الطرق واستطلاعها قبل خروج القوافل التجارية. أرسل محمد حمزة ابن عبد المطلب على رأس جماعة من المهاجرين إلى سيف البحر ناحية العيص ليعترض العيرات لقريش وهناك التقت القوة الإسلامية وعددها ثلاثون رجلًا بقوة من أهل قريش وعددها تلثمائة رجل على رأسها العمرو بن هشام.(٢) ورغم المبالغة في عدد قوات قريش وجعلها دائماً عشرة أضعاف القوة الإسلامية (ثلاثون وثلثمائة)، إلا أنه لم تحدث معركة بين القوتين وقيل إن عدم حدوث معركة هو توسط مجدى بن عمرو الجهني بينهما. والأرجح أن المعركة لم تحدث بسبب عدم تناسب القوتين ولا سيما وأن السرية الإسلامية كانت لاستكشاف الطرق وجس النبض وقطع طريق بعض القوافل إن أمكن ذلك وربما كانت القوتان المتواجهتان محدودتي العدد، وربما لم تلتقيا على الإطلاق.

وتحدثت كتب السيرة عن أمر بالغ الأهمية، وهو أن بعض الذين أيدوا محمداً ولم يدخلوا الإسلام أو دخلوه وكتموه عن قريش، أبقاهم محمد في مكة لاستطلاع أمر قريش ونواياها وهو مايمكن تسميته بالجوسسة والتخابر بلغة العصر الحديث، ومنهم العباس عم النبي، وأبا البَخْتُري بن هشام بن الحارث بن أسد واتضح ذلك خلال وقعة بدر عندما قال الرسول لأصحابه (إن رجالاً من بني هاشم ومن

---

(١) السيوطي الدر المنثور ٣/١٦٣

(٢) سيرة إبن كثير ج٢ ص٣٥٠ ومابعدها

غير بني هاشم قد أخرجوا كرهاً ولا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدهم فلا يقتله. من لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله...).[1]

ونعتقد أن مكة كانت تفعل نفس الشيء بالنسبة لمحمد، ولا بد أن مهاجرين من مكة كانوا جواسيس على المسلمين، وقد انكشف أمر بعضهم، فبرروا ذلك بأنهم يصلون قريشاً حمايةً لأهلهم وأموالهم بمكة، وقد قال القرآن عن ذلك **﴿ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم واولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾** الأنفال٢٧،٢٨. وأخرج إبن جرير عن السدي قال: كانوا يسمعون من النبي الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وذكر أيضاً أن زينب بنت النبي كانت في مكة ولم تهاجر إلى المدينة حتى أسر زوجها أبو العاص بن أمية في وقعة بدر، فذهبت ليثرب لفدائه بلا مقابل.[2]

ورُوي (أن النبي بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في ستين أوثمانين رجلاً من المهاجرين لاستطلاع الموقف، خارج يترب، ولما وصلت هذه السرية الى ماء بالحجاز أسفل (ثنيةالمرة) إلتقت بجمع عظيم من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل ولم يقع بينهما قتال، ويبدو أن هاتين السريتين السابق ذكرهما كانتا في وقت واحد وتكشفت كل منهما عن بداية النشاط الفعلي لنظام «ولاية الحرب» في الإسلام)[3] وذكر أن عدد تلك السرايا المرسلة لقطع طرق القوافل التجارية واستكشافها وصل إلى ثمانية قبل وقعة بدر.

---

(١) حالد محمد خالد. رجال حول الرسول. ص٥١٩، ٥٢٠.

(٢) أنظر سيرة إبن كثير. ٢/٥١٦ ومابعدها.

(٣) ابراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ص٧٩.

كان محمد، إذن، يعد لمعركة ويمهد الطريق والنفوس لهـا، فلم يضيع وقته، وخرجت سرايا قليلة العدد في البداية تبعها بسرايا أكبر نسبيـاً، وبعد أن كـانت تقتصر على المهـاجـرين، تشجـع الأنصـار وخرجوا بعد ذلك وهم يرون تلك السـرايا تـذهب وتعود بـالغنائم، فلم إذن ظلـوا محافظين على عهـودهم القديمـة بعـدم التعـرض لطـرق التجارة وقد أخذوا موقفاً مناصـراً لمحمد وأصحـابه؟ وخـرج النبي نفسه على رأس بعض السرايـا كما حـدث في غزوة بـواط والعشيرة والأبـواء وغطفان وبني سليم. وبعضـهـا كان يصـل لمئتي رجل، ولم تحدث فيها معارك تذكر رغم عودتها ببعض الغنائم بسبب الإنقضاض الفجائي على القبائل. وكانت هـذه القوات وسيلـة من وسائـل تدريب ذلك الجيش الجديد وتهيئته للقتال. وكان ذلك الإعداد في الميدان ذا أهمية ملحوظة في نتائج معركة بدر.

وكانت أول وقعة حقيقيـة بين مكة ومحـمـد هي وقعة نخلـة في السنة الثانية للهجرة عند نخلة بين مكة والطائف (قيل إنها كانت قبل بدر الكبرى بشهرين)، وكان على رأس سرية المسلمين عبـد اللّٰه بن جحش، وعلى رأس سرية قريش عمرو بن الخضـرمي الذي قُتـل في تلك الوقعة وكانت في شهر رجب أحد الشهور الحرم. لكن القرآن كان قـد قال ﴿**يسـألونـك عن الشهر الحـرام قتال فيـه؟ قل قتـال فيـه كبير..**﴾ البقرة ٢١٧، وغنم المسلمون في هذه الـوقعة بعض العيـر والأموال وأسيرين وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابـه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال.

وهكـذاكانت النفـوس مستعدة لمعـارك قادمـة بعد أن أخـذت الأمور تنمو في اتجاه الحرب الشاملة مع مكة وأصبـح محمد خطـراً حقيقياً على طرق التجارة وهو يرقب القوافل ويقطع الطـرق والممرات وينقض ليلاً ونهاراً ويخوض المعارك الصغيرة. وما كانت تخاف منـه

قريش قد حدث فعلاً. وكانت كل الأحداث السابقة مؤشراً لذلك الذي سيحدث بعد قليل باعتراض أكبر قافلة تجارية في تاريخ مكة كله.

أما القافلة فقد نجت بفعل قائدها الداهية أبي سفيان، لكن قريشاً لم تنج من آثارها، فالطرق التجارية أصبحت مهددة بأصحاب محمد ومناصريه، وبإقحام يثرب في الصراع مع مكة. فليدعُ محمد لإلهه ماشاء أن يدعو أما أن تخسر قريش طرقها وتجارتها ومستقبلها، يعني أن تخسر سيادتها الكلية على الحجاز وبلاد العرب ويعني أن تخسر مورد حياتها الرئيسي وتعيش في جدب حياتها بلا مستقبل.

وعليه، جمعت غضبة قريش حوالي ألف رجل وستين فرساً وستمائة درع، على عجل، لتؤدب هؤلاء الخارجين على القانون الذي ظل يحكم طرق التجارة وأحلافها قروناً طويلة من الزمن.

وفي غضبتها كانت مستهينة بقوة المسلمين وبعددهم القليل وعدتهم الضعيفة، فتصرفت على أساس أنها معركة محسومة قبل أن تبدأ، فاختلط الغضب والخوف على العير بالتسرع والإستهانة، فخلق روحاً من الفوضى في ذلك «الجيش» المترهل الذي عبيء على عجل، بل خرجوا من مكة الى بدر مصحوبين بضجة القيان والدفوف لتعرف العرب بأنهم أقوياء. وقد عبر القرآن عن ذلك قائلاً **﴿كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياء..﴾** الأنفال٤٧.

بينما «كان الدين الإسلامي قد زود أتباعه في يثرب بصفات ضرورية للحرب والقتال لم يعرف عنها العرب إلى ذلك الحين غير مجرد أسمائها وهي النظام والاستهانة بالموت. أما النظام فقد لقنه الرسول لأتباعه عن طريق الآيات التي تدعو إلى طاعة الله والرسول، ثم إن الصلاة الجامعة التي أداها المسلمون وراء إمام كان هو الرسول غالباً بنفسه، قد شجعت روح النظام بفضل دورها في

تـربيتهم على الطـاعـة. فمن يـرى صفـوف المسلمين في الصــلاة، لايمكن أن يغفل ماكـان لهذه الصــلاة المنظمة من قيمـة تربـوية في نفوس المسلمين منذ أول الأمر، إذ يكفي أن يتذكر المرء فقط أن ذلك الشعب كان أبياً لايخضع لمشيئة خـارجية وأنـه افتقر إلى الشعـور التـام بالطـاعة، يكفي ذلـك لأن يقدر في الحـال مالهـذه الصلاة من أهمية في إيقاظ روح النظام والمحافظة عليها. ولذا غدا مكان الصلاة وهو المسجد أول ميـدان حقيقي للتدريب العسكـري عند المسلمين والإعداد للتعبئة من أجل القتال. وجاء نظام الصف الذي تدرب عليـه المسلمون في صلاتهم أول تجديد في «التكتيك»[١] الذي إستخـدمه الرسول في غزوة بدر، إذ أمسك النبي بعصا قصيرة في يده وسـوى بها صفوف أصـحابه في دقة وحزم إستعداداً للمعركـة ولايدع لأحـد منهم أن يتقدم أو يتأخر عن مركزه إلا بإذنه».[٢]

صف النبي جيشه في سرايا وجعل شعار المهاجـرين/ يابني عبد الرحمن، وشعار الخزرج/ يابني عبيد اللـه، وشعار الصحـابة/ أحد أحد. وكان ذلك لسهولة قيـادة المعركـة ولاسيما وأن المسلمين كانوا مقنعي الوجوه.

وعندما نظر النبي إلى أصحابه وهم ثلثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً ونظر إلى أعدائه وهم ألف وزيـادة مدّ يـده وجعل يهتف بـربه اللهم أنجز ماوعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسـلام لاتعبد في الأرض.[٣]

---

(١)، (٢) انظـر كتاب إبـراهيم العدوي، تـاريخ العـالم الإسلامي. ص ٨٣ حيث يـذكـر الكـاتب كلمة (إستـراتيجية) ووضعنـاهـا نحن (التكتيـك) فـالـرسـول لم يحـدد في استراتيجيته من أجل غزوة وإنما الاستراتيجية أبعد من ذلك بكثير

(٣) السيوطي. الدر المنثور ٣/ ١٦٩، ١٥٠

وجاء القرآن مطمئناً للفئة القليلة لمواجهة خوفها ضد أغلبية قرشية فقال ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾ الأنفال٩ ولهذا ذكرت بعض الروايات، أن ميكائيل نزل في ألف من الملائكة فوقف في الميمنة مع أبي بكر، وإسرافيل في الميسرة مع علي، وجبريل في ألف أخرى، بل وذكرت تلك الروايات تخصصات لقادة الملائكة، فهذا مثلاً إسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولايقاتل!!!.(١)

عرف محمد أنه لو هُزم في هذه المعركة فستكون بداية النهاية له ولدعوته، وبدون النصر ربما لن تقوم له قائمة بعدها، وهو يعبر عن تخوفه هذا بحرارة (اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتُعبد في الأرض). وبهزيمته ستقوى شوكة الوثنيين وربما ينهدم حلف يثرب فيتراجع الذين نصروه وتتضعضع نفوس المسلمين، وهي أول معركة حقيقية سيخوضونها مع قريش وما زال الدين في مهده والمسلمون قلة قليلة، وعرف المسلمون مع محمد أهمية تلك المعركة القصوى، فإما أن يكونوا أو لايكونوا على الإطلاق، فزادهم ذلك حماساً واستهانة بالموت.

خرجوا للعير، وعرفت قريش، فجهزت عدتها. قال النبي (ماترون في القوم وقد أُخبروا بمخرجكم؟ فرد المسلمون. لا والله مالنا طاقة بقتال القوم، فيمطمئنهم القرآن﴿..**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم..**﴾ الأنفال٧، فلم يبق أمامهم إلا أن يتقدموا

---

(١) رُوي عن إبن عباس انه قال (بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول. أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه قد خطم وجهه وشق كضربة سوط، فجاء الأنصاري وحدث النبي فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة). وهذه الرواية عن إبن عباس ليست صحيحة في راينا.

حيث لارجعة، ويخوضوا حرب مصير حيث الموت أو الحياة ولا ثالث لهما.

عسكرت قوات مكة عند بدر على بعد عشرين ميلاً غربي يثرب. وتقدم الرسول على العير وقد قطع أجراسها فلا تحدث صوتاً قد يصل إلى أسماع جيش قريش. وقيل إن جيش محمد لم يملك إلا فرسين وستين درعاً فقط.

توقف محمد في مكان جنوب يثرب، فسأله الأنصاري الحباب ابن المنذر بماله من خبرة في القتال: أرأيت هذا المنزل؟! أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! فأجاب الرسول بالطبع. بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال الحباب فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ماوراءه من القلب (أي نردم ماوراءه من الآبار ونفسدها على الأعداء) ثم نبني حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال النبي لقد أشرت بالرأي ثم سار بجيشه حتى وصل آخر بئر في الجنوب فنزل عليه وبنى حوضاً حوله ثم غوّر الآبار الأخرى

وقال أنصاري آخر للنبي: ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عنك ركائبك؟ ثم نلقى عدونا، فإن أنجزنا اللّه وأظهرنا على عدونا كان ذلك بما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك اللّه بهم يناصحوك ويجاهدون معك. فبنى عريشاً لقيادة المعركة.

ولما استطاع أبو سفيان أن يحرر عيره فأرسل إلى قريش (إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال عمرو بن هشام. والله لانرجع حتى نَرِد بدراً (وكان

بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عـام) فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيـان وتسمـع بنا العـرب وبمسيرنـا وجمعنا، فـلا يزالـوا يهابـوننا أبـداً، فامضوا ..).[1]

وإنطلقـوا حتى جاء الصبـاح، فلم يقيموا ثـلاثـاً، ولم ينحـروا جذوراً ولم يشربوا خمراً ولا حتى ماءً، ولم تعزف القيان، بل وجـدوا قوة جاهزة للحرب عبر عنها قـرشي رأى جمع محمـد فقال قـد رأيت يامعشر قريش البلايـا تحمل المنـايا، نـواضح يثـرب تحمل المـوت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجـأ إلا سيوفهم، واللـه ماأرى يُقتـل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعـد ذلك؟! فـروا رأيكم. فتراجـع عتبة بن ربيعـة وخطب في الجمع قائلاً: فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب[2].

ويؤكد هذه الروايات قول عن علي بن أبي طالب (فلما دنا القوم إذا رجل منهم على جمل له أحمر، يسيـر في القوم، وقـال حمزة إنـه عتبـة بن ربيعة وهـو ينهى عن القتال ويقـول لهم: ياقـوم إعصبوهـا برأسي وقولوا جبن عتبة بن ربيعة وقد علمتم أني لست بأجبنكم. فرد عليه أبو جهل قائلاً: ملأتْ رئتك جوفك رعبا.)[3].

وهكـذا بدا التفكـك واضحاً في معسكـر قـريش، بينمـا كـان التمـاسك أوضـح في المعسكر الآخـر، وقد حـرض محمد المسلمين على القتال وقال لهم: فلينفـل كل امـرىء ما أصــاب. وفوق ذلـك فإن جيش مكة كان مكوناً من هؤلاء الذين راحوا ليدافعوا عن قافلتهم، بل إن من تخلف من السادة أرسل رجلاً مكانه سواء بسبب دَيْن كما فعل

---

(١). أنظر، السيرة النبوية لإبن كثير عن وقعة بدر، ص٣٩٩.

(٢) المرجع السابق ص٤٠٦ ومابعدها (٣) نفسه ص ٤٢٣

أبو لهب مع العاص بن هشام بن المغيرة، واشترى البعض آخرين، وخرجت بقية الجيش مغلوبة على أمرها لأن مصالحها في القافلة ربما كانت ضئيلة للغاية، فهو في النهاية جيش مضطرب المصالح منعدم التجانس عكس المسلمين الذين كان هدفهم العير، تم لم يكن أمامه سوى القتال بعد أن نجت القافلة.

في صبيحة المعركة، تقدم جيش مكة أقل نظاماً وأكثر اندفاعاً واستهانة بقوة محمد، وإذا تلاقى الجمعان هكذا فإن الفئة الأكثر عدداً لابد وأن تُنهك القوة الأقل عدداً، لكن النقيض قد حدث، فالمناوشات قد بدأت بخروج ثلاثة من قريش للمبارزة، فخرج لهم ثلاثة شبان متحمسون هم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب وكلهم من بني هاشم مسلمون ولهم ثأر من قريش حينما حوصروا وطردوا من بيوتهم لاجئين إلى يثرب. وكان المسلمون ملبسين لايعرفون من السلاح. وكانت تركيبة جيش قريش تشمل كثيراً من كبار السن بالنسبة لجيش المسلمين، وقال في ذلك سلمة بن سلامة بعد العودة الى المدينة:

- والله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعقلة فنحرناها.(١)

ولذا كانت نتيجة المبارزة لصالح المسلمين الذين استطاعوا قتل عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وابنه الوليد وجرح الحارث وربما مات متأثراً بجراحه. وفعل ذلك فعله في نفسية جيش قريش. وكان على محمد أن يكسب الوقت، فالماء في حوزته، والعطش والجوع في حوزة الوثنيين، وكل من حاول الوصول إلى الماء قتل كالأسود بن عبد الأسد المخزومي عندما اندفع في اتجاه الحوض الذي بناه المسلمون

---

(١) نفس المرجع ص ٤٧٢

وزّع النبي جيشه في صفوف متراصة لم تتزحزح أمام الهجمات العشوائية لخيالة مكة، وكل من تقدم من محاربي قريش سقط صريعاً منهكاً أمام سيوف ورماة المسلمين الذين وُصُّوا بألا يفرُّوا وألا يولُّوا الأدبار إلا لضرورة كما يقول القرآن ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولُّوهم الأدبار، ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من اللَّه ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾[1] الأنفال ١٥، ١٦. ولم يبدأ الهجوم الإسلامي العام إلا بعدما أنهك العطش والخوف ذلك الجيش المترهل بعد فشله في سحق أصحاب محمد الموزعين توزيعاً جيداً، فاستطاع النبي بدقة النظام وحسن الإعداد أن يتفوق على أغلبية لم تنظم جيداً ولم تضع في ذهنها الحرب إلا دفاعاً عن القافلة وقد نجت القافلة فمات حماسها بانتفاء سبب خروجها نفسه. وهكذا كان الصراع بين الطرفين، طرف يرى أن وجوده متوقف على النصر في هذه الحرب فاستبسل لها، وطرف دخلها مضطراً وبلا حساب دقيق مستهيناً وكأنه لم يكن ذاهباً إلا لنزهة، وقد عبر القرآن عن ذلك قائلاً ﴿**وإذا يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم..**﴾الأنفال ٤٤.

كانت الشمس قد غربت بعد يوم من المبارزة والمناوشة والانقضاض مابين الفريقين، وهذا ماكان يحتاجه جيش المسلمين، حتى أتت اللحظة المناسبة التي حصد فيها الهجوم الشامل أرواح عجائز قريش الذين فرّ أغلبيتهم وعادوا إلى مكة وهم لايعرفون أكانوا يقاتلون أم لا، وحينما سألهم أهل مكة عما جرى قالوا:

---

(١) يقول إبن كثير في تفسيره ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩. إن الجهاد كان فرض عين والمراد بهذه الآية أهل بدر خاصة لأنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون بها سوى عصابتهم تلك.

ـ لاندري. والله ماهو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا[١].

وهي نفسية جيش لم يهيأ للحرب ولم يستعد لها في مواجهة جيش خرج لها.

وتنتمي طبيعة وقعة بدر إلى طابع الحروب القبلية التأديبية، بل ونستطيع القول بأن الحروب التي تمت بين النبي وبين القبائل في جزيرة العرب قد حملت في أغلبها نفس الطابع، ولم تتخط هذا الطابع إلا عندما بدأت تتكون للإسلام دولة وجيش، وتتميز هذه الحروب بمقولة (إضرب واغنم). فالمنتصر يفرض قانونه على المهزوم، ويجمع أسراه وسباياه وغنائمه، ويفر من يفر حتى يعود إلى موقعه ليبني من جديد ويجهز للانتقام، أما أسلوب الفتح وإخضاع مجموعات سكانية وقوى بشرية وإقتصادية بحيث تطلق أيدي المحاربين وأئمتهم على ما في المزارع والصوامع وما في المخازن والحصون وما في الحظائر والمراعي والمنازل من بهيمة الأنعام، لم تأخذ هذا الطابع إلا فيما بعد عندما قويت شوكة محمد وأصحابه، فهشم اليهود تهشيماً، وقضى على القبائل المعادية، تحكمه في ذلك شروط (اللعبة السياسية) قبل أن تحكمه اي اعتبارات أخرى. وهذا سنناقشه تفصيلاً فيما بعد.

ولم ييأس محمد في دعوته، فكان يدعو الآن بعد أن حمل السيف وأثبت هذا السيف فعاليته وقويت كلمته فغدا يُسمع أكثر من ذي قبل. وبانتصاره إنزرعت جذوره في أرض يثرب وما كان لأحد أن يجتثها وأياً كانت الظروف والعثرات بعد ذلك، لأن الانتصار لم يستتبعه إرتياح أو حالة ارتخاء، بل كان مجهوداً دائماً من أجل

---

(١) انظر التفسير المأثور عن عمر ص٤١١

استثمـار ذلـك النصـر أقصى إستثمـار. و اختبـاراً للقـوة، فـأقيمت معاهدات وكُتبت صحـائف، وصُفِّيت عداوات أو إحتمـالات خطر قـد تـأتي من جانب أو آخـر، وفـوق كـل شيء لم تتـوقف السـرايـا عن انقضاضـها الدائم على القبائل في واحاتها أو حول مراعيها.

وبـانتصاره بـدأت مشاكـل من نوع جـديـد كـان على محمـد مواجهتها، فلقد كانت أول غنيمة كبيرة، وقبل أن يتخذ قـراره النهائي كانت أيدي المسلمين المحتاجين تعمل في الغنائم وتأسـر الأسرى، فعن أبي هريرة أنـه قال: قـال الرسـول: لم تحل الغنـائم لأحد سـود الرؤوس من قبلكم، حتى كان يوم بدر وقعـوا في الغنائم قبـل أن تحل لهم.[1]

ورغم أن الفيء إذ ذاك (من أخـذ شيئاً فهـو له)، كمـا قال لهم النبي من قتل قتيلاً فله سلبه ومن أسر أسيراً فلـه كذا وكـذا، إلا أن الصـراع على غنـائم بـدر قـد قـام واستعـر بين المسلمين. فـأمـا المشيخة (كبارالسن) فثبتوا تحت الرايـات، وأما الشبـان فسارعـوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فـإنا لكم ردءاً، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا[2]. وكـان على النبي أن يحسم هذا الخلاف فقال القرآن **﴿يسألونـك عن الأنفال . قـل الأنفال للـه وللـرسول، فـاتقـوا اللـه واصلحـوا ذات بينكم وأطيعـوا اللـه ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾** الأنفال ١ . وهذا يعني أن يتركوا أمـرها

---

(١) تفسير وبيان أسباب النزول للسيوطي ص٢٢٥.

(٢) رُوي عن سعد بن أبي وقاص قوله يوم بدر (لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير مقتلت بـه سعيـد بن العاص وأخـذت سيفه فـأتيت به النبي فقـال. إذهب ماطـرحه في القبض فرجعت وبي مالايعلمه إلا الله من قتل اخي واخذ سلبي فمـا جاوزت إلا يسيـراً حتى نزلت سورة الأنفال. فقال النبي: إذهب مخـذ سيفك (انظـر تفسير وبيـان.. للسيوطي ص٢٠٧) وهذا معناه أن النفل هو مازاد عن الغنيمة يهبه الرسول أو الإمام من يشاء.

للنبي يقرر فيها مايشاء، ثم انتهى الأمر بأن قال القرآن **﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير﴾** الأنفال ٤١. أي للرسول وقرابته خمس الغنائم (سواء إشتركوا في قتال أو لم يشتركوا) ولبقية المقاتلين الأربعة أخماس الأخرى، وذلك عدا مايمكن أن يتنفله البعض زيادة عن سهمه في الغنيمة، فقد رُوِي مثلاً أن الرسول تنفل سيفه ذا الفقار وجملاً لأبي جهل في أنفه بز من فضة غير الخمس. وقد إختلف المسلمون في هذا الخمس بعد موت الرسول، فقال البعض هو للأصناف الخمسة المذكورة في القرآن كما فعل عمر، وقال البعض الآخر سبيل الخمس سبيل الفيء يكون حكمه للإمام إن رأى أن يجعله فيمن سمى الله جعله، وإن رأى أن الأفضل للمسلمين والأوفر لحظهم أن يضعه في بيت مالهم لنائبة تنوبهم ومصلحة تعني لهم، فله ذلك(١).

وفي تلك الأيام الأولى كانت تلك الغنيمة قليلة نسبياً، لأنها كانت أول وقعة كبيرة يخوضها المسلمون فأكلوها ولم يبق منها شيء للمصلحة (العامة) بعد توزيعها على المحاربين، بمعنى أنها لم تترك تراكماً مالياً ذا بال، وإن كانت قد أسهمت في حل المشاكل المعيشية للمسلمين أنذاك.

المشكلة الثانية والتي واجهها محمد وكان عليه أن يحلها على عجل هي مشكلة الأسرى وكان فيهم العباس عم النبي، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي فقال: لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه،

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي، ج١ ص٤٢

فأرسل عمر فأحضره من أيديهم، وكان فيهم أيضاً زوج زينب بنت الرسول «أبو العاص بن أمية» والذي فادته فردوا عليها مالها نزولاً على رغبة النبي، وكان فيهم أولاد عم النبي عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث . فاستشار أبابكر فقال: فادهم (أو هم قومك وعشيرتك فخل سبيلهم) بينما قال عمر: أقتلهم، لكن قول أبي بكر لقي بالطبع هوى في نفسه، فقبل بالفداء[1]. وكان أقل مافودي به أحد منهم من المال أربعمائة درهم كالعباس عم النبي وأولاد عمومته، وأكثره أربعة آلاف درهم[2]، وكانت قريش ترسل برسلها ومعهم الأموال بعد أن حاولوا ألا يتعجلوا في بداية الأمر قائلين: لاتعجلوا بفداء أسراكم لايشتد عليكم محمد وأصحابه. لكن قبول الفداء كان يعني أن يعود المأسورون إلى مكة فيُجهزوا للانتقام وقد ذاقوا مرارة الأسر لأول مرة في حياتهم، وأهم من ذلك أن شوكة مكة لاتزال قوية، وستحفزها المعركة للإنتقام وقد أدرك محمد ذلك جيداً عندما قال لهم:

- إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتكم[3] أي قتل لكم مثلما قتلتم منهم. فهو يعرف نفسية العربي القبلية وطبيعة القصاص ودوره في تلك الصحراء المترامية الأطراف. فجاء القرآن معبراً عن هذا الأمر بقوة وهو يقول ﴿**ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم**﴾ الأنفال٦٧، وهي تعني أن شروط الفداء يجب أن تكون بعد أن يثخن محمد في

---

(١) أنظر السيوطي، الدر المنثور ج ٣ ص ١٦٩ ـ ١٧٠
(٢) أنظر السيرة النبوية لإبن كثير ج٢ ص٤٦١.
(٣) أنظر تفسير إبن جرير. سورة الأنفال.

الأرض، أي بعد أن يبالغ في قتل أعدائه ويوهنهم ويعجزهم ويغلب على كثير من الأرض، فيأمن بذلك من شر الإنتقام. ولعل سياسة محمد التي اتبعها كانت هي عينها الإثخان في أرض جزيرة العرب وهو يتابع غزواته ووقعاته واحدة تلو الأخرى. وهو يعرف جيداً أن قوة قريش لم تهن ولم يمت من أعدائه غير سبعين، ومازال لم يعجزهم بعد، ولا زال المسلمون قلة وسط أغلبية وثنية داخل شبه الجزيرة، وهو يريد أن ينتصر بفكره ودعوته (فالله يريد الآخرة)، أما المسلمون الآخرون فلم يكونوا ببعد نظره (فأرادوا عرض الدنيا) واستعجلوا الغنيمة السهلة ولم يملك محمد إلا أن يتبعهم ويميل إليهم رغم مافي هذا الميل من مخالفة لحساباته لموازين القوى من حوله. وأيا كان الأمر سواء قد قتل الأسرى أو فاداهم فإن النتيجة لم تكن لتغير الأمر تغييراً جذرياً، فمكة ستنتقم، والقوة الإسلامية لن تؤثر كثيراً أو قليلاً في موازين الصراع بإضافة سبعين آخرين من القتلى في معركة قد حسمت وفي موازين القوى التي لم تكن قد تغيرت تغيراً جذرياً بوقعة بدر. ولعل هذا كان من تلك العوامل التي دفعت الرسول لاتخاذ موقفه الذى اتخذه.

وكان اليهود يتربصون به ويتمنون هزيمته، وأعداؤه من وثنيي يثرب وسادتها ينتظرون أن تتغير الأمور لصالحهم، وهؤلاء الذين ناصروا محمداً (نفاقاً) أو رغبة في غنيمة أو مصلحة كانوا يتحينون الفرصة بعد أن قويت شوكة محمد منذ الهجرة يوماً بعد يوم. فجاء انتصار بدر ليضرب أحلامهم في التخلص منه.

محمد يعرف أن معركته الكبرى هناك في مكة، وأن أعداءه الأقوياء يجهزون للانتقام والانقضاض على سلطانه الذي بدأ ينمو ويثبت بانتصار بدر، لكن تلك المعركة الكبرى يلزمها الانتهاء من معارك صغرى داخل المدينة نفسها وحولها، فكتب السيرة تروي بأنه

لم يقم بالمدينة أكثر من سبع ليل بعد عودته من بدر حتى غزا بنفسه بني سليم وتفرق أهلها ولم يلق كيداً. بعدهـا بقليل بلغـه أن جمعاً من غطفان من بني تعلبة تجمعوا «بذي أمر» يريـدون حربـه فخرج إليهم في منتصف ربيع الأول سنة ٣هـ ، فغاب أحد عشر يومـاً وكان معـه أربعمائة وخمسون رجلاً، فهربت الأعراب في الجبال ورؤوسها، حتى بلـغ ماء يقـال له «ذوأمـر» فعسكر فيـه. وفي نفس العام بلـغ نجران بالحجان، وفي كل تلك السرايا كـان يعلن عن قوتـه للقبائـل العربيـة خارج مكة، وأن الشرعية الجديدة هي شرعية السيف إن لم يتبعـوه، وعليهم أن ينسـوْا قريشـاً ويتذكـروه دوماً، وفي كـل هذا كـان يجهز نفسه وأصحابه لحرب طويلة.

وعاد إلى المدينة قوياً، ولتنظيم وضعها عليه أن يعترف ـ رغم النصر الجديد ـ بأن المسلمين ليسوا أغلبية، وبأن بالمدينة منافقون ومشركون ويهود وقبائـل وعشائـر مختلفة لم تتخلص من عصبيـاتها وحاجاتها ومصالحها المختلفة عن خطة محمد. ويثـرب بهذا الـوضع كـانت نقطة ضعف وثغـرة حقيقية في مـواجهة مكـة. لكننا نستطيـع القول أن انتصار بدر جعلَ الحلف أو الفئـة الإسلاميـة أو (العشيرة) الإسـلامية ـ إن جـاز التعبير ـ أقـوى (العشائـر) في يثرب، وبهـذا الموقع كان عليه ترتيب شؤون البيت الذي يعيش فيه، فمكـة لن تبقى ساكنة بعد هزيمتهـا وهي تعد العـدة للإنقضـاض عليه، وربمـا يجد أعداؤه حلفاء لهم يعيشون بقربه ليل نهار، وهو أيضاً لن يبقى ساكنـاً بعد إعلان حالة الحرب الدائرة على كل القبـائل في مكـة أو خارجهـا مستخـدماً في ذلـك أسلوب الـدعايـة المسلحة. وقبـل ذلك مـاكـان مستطيعـاً ترتيب يثـرب بإعـلان أن له الأولوية الآن في عقـد حلف جديد وهدم أحلاف قديمة كان غير مناصريه قد أقاموهـا مع مكـة أو داخل المدينة نفسها، فأعطاه سيف بدر إمكانية هائلة ـ كانت كقفـزة

فجائية ـ على نفسية أهل يثرب، ولا سيما وأن هذا السيف لازال مشهراً، فكتب المعاقل أو تلك المعاهدة الشهيرة والتي علقها بسيفه ـ كما تروي كتب السيرة ـ فلم يجد المنافقون أو الوثنيون أو اليهود بداً من الرضوخ لها.

وقّعت كل طوائف وعشائر المدينة المعاهدة، معتبرين أن المسلمين يمثلون إحدى هذه الطوائف حيث قررت الصحيفة: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي (ص) بين المسلمين من قريش ويثرب، ومن قبلهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس).[1] واعتبرت الصحيفة المهاجرين فخذاً من الأفخاذ الموجودة في يثرب، واقتصرت مهمة تلك الأفخاذ والبطون على تسهيل مهمة الفرد في دفع الديات وفداء الأسرى[2]، وهنا إنتقلت المصلحة الفردية نقلة جديدة فتبعت مصلحة الفخذ أو العشيرة أو القبيلة، ثم بعدها تبعت مصلحة أهل يثرب جميعاً، ثم رضخت في النهاية للحكم الإسلامي بعد ضرب تلك المعاهدة بتصفية اليهود حينما حان الوقت لتلك التصفية، وحينما آلت ناصية الحكم في يثرب نفسها لقرار محمد.

تقول الصحيفة (المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين... واليهود من بني عوف أنه مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين مواليهم وأنفسهم، وأنه ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف..الخ) وهنا اكتسب المسلمون وخاصة

---

(١) انظر. عمر شريف. نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية ص١٨.
(٢) نفسه ص ٢٠.

المهاجرون شرعية وجودهم الدائم داخل يثرب بعد أن كانوا مجرد لاجئين إليها. وكل فئة أو قبيلة بحالتها الأولى (ربعة) أي تلك الحالة التي جاء بها الإسلام وهم عليها، يدفعون الديات ويفدون أسراهم. ثم تنتقل المعاهدة نقلة مهمة في تحديد العلاقة مع مكة فتقول (وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يترب).[1]

ورغم مبالغة البعض[2] بأن(هذا «الحلف» كان دستوراً لايعترف بتمايز طبقي أو استغلال فردي وجعل القبائل تشكيلاً إجتماعياً لخدمة الأمة الجديدة ووفق المفهوم الجديد للدولة الإسلامية)، إلا أن هذا الحلف لم يتجاوز كثيراً طبيعة الأحلاف التي كانت تتكرر بين القبائل العربية. ثم إن الدولة الإسلامية لم تكن قد تشكلت بعد في الأيام الأولى للهجرة ولا الأمة الإسلامية قد أخذت طابعها الجديد إلا بعد سنوات طويلة من الصراع، وفوق كل شيء فإن المعاهدة أو الصحيفة لم تغير الحالة التي كانت عليها يثرب بقدر ما إنها كانت إنعكاساً لتوازن جديد للقوى فيها، بل بتغير حالة تلك القوى مزقت هذه الصحيفة نفسها بعد عدة شهور بتصفية اليهود (بنو قينقاع وقيل بنو النضير)، ولعل تعليقها بسيف محمد ليعبِّر عن ذلك أصدق تعبير. ورغم ذلك فقد كانت هذه المعاهدة ضرورية لفرض الإعتراف بقوة محمد والتي أثبتتها معركةبدر، وبالتالي خلق حالة من الأمن لمتابعة أيام الصراع القادمة، بل وفرض تلك الشرعية على وجود المسلمين والذي ظلّ غريباً على نفوس غالبية قبائل يثرب باعتبارهم دخلاء لاجئين. فالمهاجرون اعتمدوا أساساً على مناصرة أغلبية

---

(١) نفسه ص ٢٠
(٢) انظر. إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ٧٤

خزرجية وأقلية أوسية وبعض القبائل الصغرى الأخرى، بل ويمكن القول أيضاً أن المعاهدة كانت أيضاً لتثبيت شرعية المهاجرين في نفوس هؤلاء الأنصار أنفسهم من أي ميل أو تغيير قد يكون في غير صالح محمد بوضعهم في نفس الخانة مع المهاجرين، وهكذا أصبح الأنصار أنفسهم يركضون خلف محمد بعد أن كانوا أمامه يتميزون بحمايته من أي عداء قرشي، مضحين بأحلافهم القديمة دون تردد، أما الآن فلا مجال للتراجع لأن اكتساب شرعيتهم (أي شرعية مناصرتهم) أمام مخالفيهم من أهل يثرب قد قويت بانتصارات محمد . ويمكن القول أنهم قد تخطوا مرحلة المناصرة بعد أن تعدوا حدود يثرب كما تقول بيعة العقبة بالمناصرة في المدينة وما جاورها ، وبعد أن انطلقوا خلف محمد في قطع الطرق التجارية ومهاجمة القبائل ، فتجاوز محمد بسرعة حالة العقبة الثانية ، ولم يستفد منها حقيقة إلا باكتساب الحرية في إعلان حالة الحرب ضد سيادة مكة على قبائل الحجاز . وهكذا دخل الأنصار نوعاً من الصراع لم يكن في حسبانهم ولا فكروا فيه أبداً فغدوا في حقيقة أمرهم تابعين لا متبوعين رغم دورهم الهام في تذليل المدينة لاستقبال محمد وعدم التعرض له ثم بالخضوع النهائي لسلطانه عليها .

وأصبح للمسلمين الآن إمكانيات إقتصادية أكثر من ذى قبل بحكم الغزوات المتتالية، فقالت الصحيفة (وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة).(١) وانتظر الجميع. اليثربيون انتظروا ماذا يفعل محمد؟ (فيما بعد كانوا كالعرائس تتحرك بخيوط محمد) وانتظر النبي ليدرس الأوضاع بعد أن أرسى بمعاهدته حالة من الأمن المؤقت بين

---

(١) أنظر. عمر شريف، نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية. ص ٢٢.

الحاجات المختلفة والصراع الكامن تحت الرماد، تمهيداً لحسم الجزء الأكبر منها، ونقل الصراعات الداخلية خارج يثرب حيث الأعداء الأقوى في مكة وحولها. وكانت بداية ذلك في الصحيفة نفسها عندما جعلت للجماعة دوراً في إيقاف المنازعات وتجميدها بإشراكها في عملية العقاب إذا خالف أحد الأطراف مافيها من بنود، حيث تقول (وإن المؤمنين المتقين على بغي أو من إبتغى دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم).(١) بل إن المسئولية الجماعية في العقاب قد حولت الثأر إلى عقوبة تشترك فيها هذه الجماعة الجديدة (وأنه من اعتبط «قتل من غير جناية توجب القتل» مؤمناً قتلاً عن بينه فإنه قود به إلا أن يُرضي ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه وأنه لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً «جانياً» ولا يأويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل)(٢).. (وأن يهود الأوس ومواليهم «حلفاءهم» وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل الصحيفة وأن البر دون الإثم ولا يكسب كاسب إلا على نفسه).(٣)

وبالطبع لم تكن حسابات التصفية النهائية قد حانت بعد، فتركت الحرية الدينية لليهود وحلفائهم، على أن يلتزموا بما اتفقوا عليه في هذه الصحيفة، فالتنظيم الإسلامي الجديد لم يكن في مصلحته ـ ولا في إمكانياته ـ آنذاك، إثارة النزاعات في مكان هو أحوج أن يكون هادئاً مستقراً ليعطي له فرصة حقيقية للانقضاض خارج تلك الأرض، ولم تحدث التصفية النهائية للمعادين داخل يثرب

---

(١) نفسه ص٢٠ (٢) نفسه. (٣) نفسه. ص ٢١.

من يهود أو حلفائهم إلا بعد أن كان من الضروري في مسيرة الصراع أن تتم تلك التصفية شيئاً فشيئاً.

كانت المعاهدة، إذن، تسكيناً لحالة الصراع الكامنة تحت الرماد، إنتظاراً لنقلها خارج يثرب، فقالت الصحيفة (وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها)،[١] فلكي لاتحدث الفوضى، لايحق لفرد أن يجير أحداً إلا بإذن عشيرته الداخلة في الحلف وإلا بإذن المعتدى عليهم (وأنه لايأثم امرؤ بخليفة وأن النصر للمظلوم) (وأنه إذا دعوا لصلح يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين).[٢]

ولم تمكث تلك المعاهدة طويلاً (قيل ستة أشهر بعد موقعة بدر)، حتى اتجه محمد إلى يهود المدينة، وهنا تختلف الروايات، فسيرة إبن كثير وإبن إسحاق تقول أن الرسول بدأ بيهود بني قينقاع، وبعض كتب التفسير تقول ببني النضير[٣] الذين قيل إنهم كانوا يملكون المنازل والنخيل ناحية المدينة. وذكر أن سبب إجلاء محمد لهم هو أن النبي خرج إليهم يوماً ومعه بعض أصحابه ليطلب منهم دية رجل من المسلمين قتله رجل من حلفائهم طبقاً لمعاهدة المدينة مع أفخاذ يثرب، فأظهروا له الملاينة وكان جالساً بجوار

---

(١)، (٢) نفسه.

(٣) عن عائشة أن وقعة بني النضير كانت بعد ستة أشهر من وقعة بدر (أنظر تفسير وبيان أسباب النزول للسيوطي ص٤١١ بينما يذكر إبن إسحق أن بني النضير تم حصارهم بعد «أُحُد» أما بني قينقاع فقد كانت في شوال ٢هـ. عكس ما روى البخاري وتبعه كثيرون، واعتمد في ذلك على حادثة تحريم الخمر اثناء حصار بني النضير وقد ثبت أن بعض المسلمين قد أصبحوا وشربوا الخمر يوم أُحُد (أنظر السيرة النبوية لابن كثير ج٣).

حائط لهم فأمروا رجلاً منهم أن يعلو الحائط ويلقي عليه بصخرة. وذُكر أيضاً أن النبي قد جمعهم في سوقهم وقال لهم: يامعشر يهود احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة وأسلموا «غالباً قبل حصارهم»، فقالوا: يامحمد، إنك ترى أنا قومك، لايغرّنّك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس. فقال القرآن ﴿**قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فئتين التقتا..**﴾ آل عمران١٣، وذُكر أن ذلك حدث مع بني قينقاع وأن السبب هو نفس سبب تصفية بني النضير، وهو حدوث قتل بين بعض المسلمين وبعض اليهود، فحاصرهم النبي حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبدالله بن سلول حين نزلوا من حصونهم مستسلمين: يامحمد أحسن في مواليّ (حلفائي) فأعرض عنه فأمسكه إبن سلول وقال: لا والله لاأرسلك حتى تحسن في مواليّ. أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعوني الأحمر والأسود (أي حالفوني على حمايتي والحرب معي) تحصدهم في غداة واحدة. إني والله امرؤاً أخشى الدوائر. وكان النبي قد حاصرهم خمس عشرة ليلة)[1] وأيا كان القوم من اليهود وأيا كانت الأسباب التي هدمت بنود الصحيفة فإننا نظن ـ إن كان ما رُوي قد حدث بنفس الطريقة التي رُوي بها ـ أن هذا كان سبباً ظاهرياً، لكن الأسباب الحقيقية كما قلنا فإنها تكمن في (إستراتيجية) محمد نفسها والتي بدأت بذورها تتأصل مع الأيام ومع تطور الصراع، ومعها كان حلمه قد تنامى في أن تتخطى دعوته حدود أرض العرب، وأمده إنتصار بدر بطاقة معنوية جديدة وحسابات جديدة لحرب ستطول وعليه أن يحسم الأقرب والأضعف

---

(١) أنظر السيرة النبوية لإبن كثير ج٣ في خبر يهود بني قينقاع

فيها، ليتفرّغ للأبعد والأقـوى، وكان لابـد وأن يجد سببـاً صغيراً أو كبيراً ليجمع جيش المسلمين فيحاصر (بني قينقـاع أو بني النضير) في حصـونهم، فلما لم يستسلمـوا، أمر بحـرق نخلهم وتقطيع زرعهم كمـا قـال القـرآن مؤكـداً ذلـك الحـدث ﴿**مـاقطعتم من لينـة أو تركتموها**﴾ فنادوه من خلف الحصون:

ـ يـامحمد قـد كنت تنهى عن الفساد وتعيبـه، فمـا بـال قطـع النخيل وتحريقها؟!!(١). وذُكر أن عدداً من الذين أسلموا (نفاقـاً) من بني قـريظة شجعـوا بني النضير على مـواجهة محمـد بعد أن أعلن الأخيرون عن خوفهم فقـال القرآن فيهم ﴿**ألم تـر إلى الذين نـافقوا يقـولون لإخـوانهم الـذين كفـروا من أهـل الكتـاب لئن خـرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنّكم . لئن أُخـرجوا لايخـرجون معهم ولئن قـوتلوا لاينصـرونهم ولئن نصـروهم ليُـوَلُّنّ الأدبـار ثم لايُنصـرون، لأنتم أشـد رهبـة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قـوم لايفقهون**﴾ الحشـر١١،١٢،١٣، فلا بد وأن حسابات محمد هنا كانت أقرب للصحة عندما قرر طـردهم من يثرب، وقد عرف أن انتصار بدر خلق في نفوسهم الرهبة والـرعب من المسلمين (لأنتم أشد رهبة). وهو قد حدد أعداءه أيضاً بكل دقة، ولابد أنه خلق قاعدة من ملتقطي الأخبار أو ناتريها ليعـرف الصغيرة والكبيرة وليبث الخوف والرهبة حوله، وكان شكُّه في قـوم يضعهم في صف أعـدائه على الفـور، وينبذ إليهم بـالسلاح والكـراع، وقد عبـر القرآن عن ذلك أصدق تعبير وهو يقول ﴿**وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين**﴾ الأنفال ٥٨ أي إطـرح إليهم عهدهم وأعلمهم بـذلك (أي إقطـع مـا بينـك وبينهم من

---

(١) تفسير وأسباب النزول للسيوطي ص٤٣٥.

صحف) وذلك لا لشيء إلا لامتلاك زمام القوة قبل أن تستفحل آثار الخيانة فيحسم الأمر قبل أن يستعد الآخرون.

حرّق محمد، إذن، زروع اليهود ونخيلهم، فالأمر هنا ليس أمر أخلاق تُعاب أو أفكار تُنتقد (يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه!!)، وإنما الأمر أمر حسم في معركة لا تحلها الاخلاق لكن تحكمها حسابات الحرب فلِمَ لا يقتل؟! ولم لا يحرق؟ ولم لا يخرب؟! إن كان هذا هو ما سيرهب به أعداءه ويُخرجهم من وراء حصونهم مستسلمين. فخرجوا فعلاً ووافقوا على الجلاء إلى خيبر (طُرِد بنو النضير نهائيّاً من بلاد العرب إلى الشام أيام عمر بن الخطّاب) خرجوا من منازلهم على إبلهم ولهم فقط ما استطاعت أن تحمله هذه الإبل من أمتعة ما عدا الحلقة والسلاح. خرجوا ضعفاء مهانين مجردين من أي مصدر لقوتهم[1]. تركوا الأرض والخيل والأنعام وخرجوا ببعض متاعهم وأموالهم، فقال الأنصار: يا رسول الله، إقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين. فقال: لا، ولكن تكفونهم المؤونة وتقاسمونهم التمرة، فوافقوا. وهكذا انزرعت جذور المهاجرين في ارض يثرب بعد ان اصبحوا أصحاب أرض. وكان وضع المدينة رغم تبعية بعض أهلها محفوفاً بالشكوك والنفاق وعدم الثقة، وكان المهاجرون فقراء ضعفاء في أغلبيتهم، وفي إعطائهم الأرض تثبيت وتقوية لهم بهذا الوطن (الغريب) الذي لجأوا إليه. وقد اتضح هذا التمييز أكثر فيما بعد في غزوة حُنَيْن عندما قُسِّمت

---

(١) (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم.. وماأفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولاركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء.. ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول.. للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم) الحشر.

الغنائم على أهل مكة ومن صاحبهم ممن يدعوا بالمؤلفة قلوبهم، حديثي العهد بالإسلام تشجيعاً لهم على متابعة محمد في حروبه المستمرة وخاصة وأن الإسلام لم يكن قد تمكن من قلوبهم كما يقول القرآن ﴿ **قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم .** ﴾ الحجرات ١٤.

وكانت غنائم الحرب حينذاك قد أصبحت تشكل دخلاً هاماً تقوم عليه معايش المسلمين، فتضايق الأنصار لأنهم لم يأخذوا من الغنيمة رغم مشاركتهم في القتال، فقال سعد بن عبادة للنبي: (إن هذا الحي من الأنصار قد وجِدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت. قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء) فسأله النبي عن موقفه هو من هذا الأمر فرد قائلاً: ما أنا إلا من قومي. فقال النبي خطبة عاطفية مثيرة للحماسة الدينية (ولم تكن إلا مناورة ذكية وتهدئة آنية) أكثر منها حلاً حقيقياً للمشكلة، فقد رأى الأنصار التمييز بينهم وبين المهاجرين أو بينهم وبين قبائل العرب الأخرى، فأعلنوا ذلك، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أكثر من ذلك، فيرضون مرغمين أو غير مرغمين بأن يقول لهم محمد (ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم؟!). وقد اشتعلت هذه النيران الخامدة بعد موت النبي في اجتماع سقيفة بني ساعدة، ورفض معظم الأنصار مبايعة أبي بكر ومن بعده عمر بن الخطاب ولعل قول سعد بن عبادة لعمر (كان صاحبك أبوبكر أحب إلينا منك وقد والله أصبحت كارهاً لجوارك)(١)، ليعبر عن الأحقاد الدفينة بين قريش وأهل يثرب، وقد أدى موقفه هذا

---

(١) انظر خالد محمد خالد، رجال حول الرسول ص٦٤٥

إلى مقتله، فقال العرب: لقد قتلته الجن، وإنتحلوا في ذلك شعراً.

ولكي لانخرج عن موضوعنا نعود فنقول، بأن محمداً واصل معاركه على نفس النمط، فحسم بني قينقاع (أو النضير) وحسم وادي القرى وفدك، وكلهم نزلوا عن حصونهم تاركين أرضهم للقوة الصاعدة الجديدة، ولأن هذه الحصون قد فَتحت (صلحاً) ـ رغم حصارها ـ إلا أن غنيمتها يرجع تقسيمها إلى رغبة الرسول المطلقة عكس تلك التي تمت عن طريق قتال كخيبر أو بدر أو مابعدها من غزوات. وكان قرار النبي أن فيء بني النضير وفدك ووادي القرى كلها له هو وعائلته ينفق منها مدة عام والباقي كان يوضع في تجهيز الجيش الإسلامي من الكراع والسلاح والعدة. وقد أخرج مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب قوله (كانت أموال بني النضير وفدك ووادي القرى مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله)[1]، وقد قيل إن الآية ٤١ من سورة الأنفال ﴿**واعلموا أنّما غنمتم من شيء فإن للّه خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..**﴾ قد نُسخت الآية من نفس السورة ﴿**يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال للّه والرسول..**﴾ فأنكر أغلبية المفسرين ذلك قائلين أن حكمها لله وللرسول وليست عطاء خاصاً به، ولكن قيل إن سهم ذوي القربى كان طعمة خاصة بالرسول فلما توفي حمل عليه أبو بكر وعمر صدقة عليه[2].

نعود، إذن فنقول إن غنائم الحرب في يثرب أضافت تراكماً

---

(١) صحيح مسلم ص٦٩، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) تفسير إبن جرير ج١٠ ص٦

مهمًـا للمسلمين وخـاصـة المهـاجـرين وعلى رأسـهم النبي نفسـه، فأصبحوا يتملكـون الأرض والزرع والأنعـام وانضافت قـوة جديـدة إليهم بصنع السلاح وشراء الخيل.

ولم يقف محمد عند هذا الحد بل كان يرسل السرايا لتجول في أرض العـرب حول يثـرب قريبـاً أو بعيداً وحسب إمكـانياتهـا لتعود بالغنيمة سواء في قوافـل قد تجـوب الصحراء أو في رعي يـرعى أو ضالة تضل. فعن الرسول أنه بعث سـرية قِبَـل نجد وفيهم إبن عمـر وأن سهماتهم قد بلغت إثنا عشر بعيراً ونفلوا سـوى ذلك (زيـادة عن حقهم في الغنيمة) بعيراً فلم يغيره الرسـول وعن الزهـري عن سالم عن أبيـه قال (نفلنـا رسول اللـه نفلاً سـوى نصيبنـا من الأخمـاس فأصابني شـارف (مسن كبير)، أي أن الـرسول كـان ينفل بعض من يبعث من سـراياه لأنفسهم خـاصـة سـوى قسم من عـامـة الجيش والخمس في ذلك واجب كله[1]، سواء اشترك الـرسول في القتـال أم لا.

وخرج النبي بنفسه على رأس سرية إلى بني سليم بعد عودته من وقعة بدر بأسبوع واحـد، فبلغ مـاء من مياههم يقـال له (الكـدر) فأقام عليه ثلاث ليال[2] لقد أعلن محمد حالة الحرب على كـل الطرق والقبائل واضطر قريشـاً أن تغير طـرق تجارتهـا إلى الشـام فتسلـك طريق العراق، لكنها لم تسلم رغم ذلك فقد أرسل سريّة بقيادة زيد بن حارثة فهاجم إحدى القوافل فأصاب العير بما فيها وأعجزه الـرجال، وعندما خمّسها النبي بلغ نصيبه الخاص عشرين ألفاً[3]

وبالطبع لم يكن دور تلك السرايـا من أجل الغنـائم فقط، وإنما

---

(١) صحيح مسلم ص ٧٩

(٢) أنظر سيرة إبن كثير ج٢. ص٥١٩

(٣) نفسه ص٣٢٨ ـ ٣٢٩

كان لها دور في إعلان أن القوة المحمدية ستكون هي القوة الأولى في جزيرة العرب، وهي تلك الدعاية المسلحة التي اكتُسِبت اكتساباً وهي تحمل شعار الإله الواحد، وفوق ذلك كانت عنصراً مهماً في جعل حياة المسلمين الأوائل حياة عسكرية، لاينسون السيف وهم مرتاحون، ولايعرفون طريقاً غير طريقه في إخضاع القبائل، فما كان لتلك السرايا أن تقعد في يترب بلا عمل، وعليها أن تعيش جو الحرب بشكل دائم تجهيزاً لمراحل الانقضاض التالية. تم إن طبيعة الحياة في المدينة، وطبيعة حياة المهاجرين أنفسهم الذين لم يكونوا يتقنون سوى التجارة أو مايتبعها وكما قال النبي في أيام الهجرة الأولى (هم قوم لايعرفون العمل وقد خرجوا إليكم وتركوا الأموال والأولاد)،(١) وهكذا تلقفتهم حياة الحرب ووجدت فيهم بغيتها بل وتبعهم الأنصار أنفسهم عندما كانت تراكمات القتال أكثر جدوى وفعالية إضافية لما يملكون في يثرب. وهنا نستطيع أن نقول بأن نواة جيش إسلامي حقيقي كانت آخذة في التشكل منذ ذلك الحين، عكس الحروب القبلية السائدة والتي كانت تجمع جيوشها عند الحاجة من المتطوعين أو المرتزقة والأحابيش والقبائل، وكانت لهؤلاء حياتهم الخاصة وأعمالهم الأخرى سواء في التجارة أو الرعي أو الزراعة. فأعطى ذلك التفرغ للمسلمين ميزة كبرى، وبالطبع لم يكن هذا التفرغ كاملاً وإنما المعارك المستمرة والسرايا التي تجوب الطرق والوديان كانت من السمات التي أعطت لهذه القوة الإسلامية صفة أقرب لصفة الجيش منها لمجموعة المتطوعين، وهذا رغم أن اتساع رقعة المعارك وحجمها فيما بعد احتاج إضافة عناصر من المتطوعين ومن القبائل الأعراب، يأتون للغنيمة وربما لأسباب أخرى.

---

(١) نفسه ٥١٩.

ونستطيع القول أيضاً بأنه قبل أن تبدأ معركة «أحد» كان محمد قد حسم معظم المدينة فأجلى كثيراً من اليهود عنها، مما جعل يثرب شبه أرض محررة، أو قاعدة آمنة بالنسبة لقواته، ويستطيع أن ينطلق منها ويعود إليها دون أن تتهدده ردة فعل داخلية مؤثرة. لكن بعض القبائل اليهودية لاتزال بالمدينة ولايزال يهود الأوس والخزرج بها، والمنافقون كانوا لايزالون أيضاً في كل مكان، وقد آن الأوان ليعلن لهم محمد أنه لن يقبل بذلك إلى الأبد.

قال القرآن ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا (تعوّدوا) على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم**﴾ التوبة١٠١. وخطب محمد في المسجد قائلاً (أيها الناس إن منكم منافقين فمن سميته فليقم. قم يافلان.) حتى قام ستة وثلاثون رجلاً، أحدهم كان أخاً لعمر ابن الخطاب طبقاً لنظام المؤاخاة[1]. ثم يقول الآن للأنصار بثقة ﴿**الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا..**﴾ التوبة٤٠. ورغم أن محمداً قد أمّن وضع يثرب لحد كبير، إلا أنها لم تكن آمنة بشكل مطلق وأتاح توازن القوى له مدى واسعاً من حرية الحركة أكثر من ذي قبل وكان وضع يترب عاملاً من العوامل المهمة في هريمة أُحد. كيف؟. سنرى ذلك في الفصل القادم.

---

(١) تفسير وبيان السيوطي أسباب نزول سورة التوبة ١٠١.

(٤)
عثــرة أحـــد

في هذه المرة، كان الأمر مختلفاً عن «بدر»، فمنذ أول يوم بعـد الهزيمة، وقريش تجهز نفسها للإنتقام، فدهب عبدالله بن أبي ربيعـة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، إلى أبي سفيان وإلى كل من كانت له في القافلة تجارة، وقالوا: يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل حياركم، فأعينونا بهذا المال على حربـه لعلّنا نـدرك منه ثـأراً، ففعلـوا. وتوقف النـواح على القتلى حتى تحين ساعـة الثـأر، وعبـر القرآن عن ذلك التجهيز قائلاً في سورة الأنفال، ٣٦﴿**إن الذين كفـروا ينفقـون أموالهم ليصـدُّوا عن سبيل اللــه فسينفقونهـا ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**﴾.

ورغم أن قـريشاً لم تصبهـا حسرة ولم تغلب في «أحـد»، إلا أن محمداً كان مصمماً على خوض معاركه إلى النهاية. واستأجرت قريش مرتزقة من الأحابيش، وتبعتهـا قبائـل كنانـة وأهل تهـامة، فخـرجت بحدِّها وحديدها ورجالها ومن تبعها، وخرجت معهم نساؤهم إلتمـاس الحفيظة وألا يفروا، وعلى رأس هذه الحملة أبو سفيان وقد اصطحب معه زوجه هند بنت عتبة بن ربيعة(١).

---

(١) سيرة إبن كثير ج٢ ص١٨ ومابعدها

عندما عـرف محمد، لم يستطـع أن يقرر أيخـرج لهم أم يظل بالمدينة لمواجهتهم فيهـا؟ كان يـرغب أن يقاتلهم فيهـا، لكن ناسـاً لم يكونوا شهدوا بدراً قـالوا. نخـرج فنقاتلهم بـأحد، طمعـاً في الغنيمة السهلة، فأثاروا حمية محمد، فلبس لباس الحرب ليخرج. وهنا تدخل عبدالله بن أُبي قائلاً: (لاتخرج إليهم، فوالله ماخـرجنا منهـا إلى عدو قط إلا أصـاب منّا ولا دخلهـا علينا إلا أصبنـا منه) فحـروب المـدن غير حروب الصحراء وأهل يثرب يحتمون بمعرفة مدينتهم وبحصونهم وأطامهم وفي حروب المدن لا يكون الصراع فرداً لفرد ولا سيفاً لسيف، وإنما تشترك في ذلك البيوت والمداخل والمخارج والظاهر والخفي، الرجال والنساء والأطفال، وفوق ذلك فإن حرباً كهذه تعني حرباً لكل قبائل يثرب، فمدينتهم يُعتدى عليها من قوة خارجية، وربما يثير ذلك لدى البعض ـ وإن لم يكن مع محمد ـ حمية وطنية

وربمـا لم يكن محمد نفسـه يدرك هـذه الميزة كمـا أدركها ابن أُبي، وربما لم يحسب إلا أن المدينة لم تكن في يديه بشكل كامل ولـذا لم يأمن القتال فيها، وربما لأن غزوة بدر وماسبقها وماتلاها من سرايا تمت كلها في الصحراء وكانت غالبهـا في إطار الهجوم لا الدفـاع، ذلك الهجوم والانقضاض الـذي تدرب عليـه أصحابـه تدريبـاً جيداً أمـا الدفاع فلم يكـونوا قـد مارسـوه بشكل عمـلي بعد، وربمـا لكل هـذه العوامل قرر الخروج.

وكـانت تعبئة قـريش مقارنـة ببدر أكثـر عدداً وعـدة وأفضـل تنظيماً وإعداداً، فوصلت قواتها إلى ثلاثـة آلاف رجل مجهـزين جيداً على مدى أكثر من ستة شهور، عكس تجمع بدر المترهل الذي جمـع في يـوم أو يومـين عـلى عجـل ونقـول «تجمـع» لأن كلمـة جيش أو حتى محاربين سيكون مبالغاً فيها نظراً لظروف الخروج الفوضوي السريع

وفي هذه المرة جاءت قريش ولم تنح قتلاها بعد لم تـأت لقافلـة

كانت قد فرت فانتفى بفرارها سبب خروجهم وقسمت قواتها إلى ألوية وكل لواء من قبيلة أو عشيرة ليعرف من أين يأتي النصر أو الهزيمة فأصبحت المسؤوليات واضحة. وأثار أبو سفيان حمية البعض وهو يقول. (قد وليتم لواءنا يوم بدر يابني عبد الدار فأصابنا ماقد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه). فقالوا (نحن نسلم إليك لواءنا. ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع[1]). وخلف الألوية كانت الزوجات والنساء تضربن بالدفوف تحميساً وتشجيعاً على القتال.

وكان من ألوية قريش لواء للأوس على رأسهم أبوعامر بن صيفي، كان في مكة محالفاً لقريش، وخرج من يثرب مباعداً لمحمد. وقال لهم: لو قد لقيت قومي لم يختلف عليّ منهم رجلان. واستسلموا له في أحد بعد أن قاتلهم وأرضخهم بالحجارة.

وكانت خيالة قريش مائة فرس وعلى رأسهم القائد العسكري الذي أظهر نبوغاً حربياً مبكراً والذي بدا محنكاً في حروب الصحراء والذي لم يهزم في معركة واحدة في حياته، والذي ماإن يدخل أرض قتال حتى يدرس جغرافية المنطقة ويضع خططه طبقاً لحالة الأرض وطبيعة الجيوش المتصارعة كما ستثبت ذلك أيام الفتوحات الإسلامية بعد سنوات قليلة. ولذا عندما حطت قريش بأُحد فلابد وأنه قد جهز خطة نفذها بعد ذلك بإتقان.

وعبأ محمد ألف رجل لمواجهة قريش، فكانت أقصى تعبئته أقل بكثير من تعبئة مكة. وخرج البعض بحثاً عن غنيمة سهلة واضعين في أذهانهم وقعة بدر وهؤلاء القوم الذين لايحسنون القتال. وانطلق جيش المسلمين حتى وصل (الشوط) مابين أُحد والمدينة، حتى توقف عبد الله بن أبي بن سلول - وقد أعاد حساباته ثانية - في ثلثمائة من

أتباعه، وقرر العودة الى المدينة، وكانت هذه أول ضربة قاسية لنظام التعبئة الإسلامي، وانعكاساً لحالة القبائل داخل يثرب نفسها، فاهتزت نفسية الجيش، وقال محمد بأسى. أطاعهم وعصاني، ماندري علام نقتل أنفسنا هاهنا؟!. وقيل أيضاً أن (السلمي) والد جابر بن عبدالله قال: لو نعلم أنكم أيها الناس تقاتلون ماأسلمناكم، ولكنا لانرى أن يكون قتال. ثم انسحب، وبقي من جيش محمد حوالي سبعمائة وقيل أربعمائة رجل[1]، تلقوا هزة قوية منذ حين، تلتها ضربة أخرى وهي أن «بني سلمة» و «بني حارثة» همّتا أن تعودا إلى المدينة نافضتي يديهما من محمد وقد أكد القرآن ذلك قائلاً ﴿**إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا**﴾ وهكذا رحل محمد بجيش قليل العدد نسبياً مهتز النفسية لمواجهة عدو أكثر عدداً وعدة ولم يكن خرج هذه المرة دفاعاً وإنما خرج هجوماً لثأر لابد منه، فتحددت نتيجة المعركة قبل أن تبدأ وسواء ترك الرماة أماكنهم أو لم يتركوها، كما يحلو للبعض أن يعلل هزيمة أُحُد بهذا السبب فقط مهملين دائماً العوامل الأكثر تأثيراً في مجريات الصراع.

وبالطبع كانت عدة القوات المحمدية ضئيلة بالنسبة لقوات قريش، فإن كان خيالة مكة مائة فإن كتب السيرة تذكر أن جيش المسلمين رحل بلا فرس واحد، وهذا أمر غير مقبول عقلياً فإن كان للمسلمين فرسان في بدر فمن الأخلق أن يكون لهم أكثر من ذلك بعد تزايد عدتهم وقوتهم، ثم إن هناك رواية تناقض هذه الروايات فتقول بأن ذؤابة سيف أحد المسلمين قد أصابت ذنب فرس لهم أثناء الرحيل،[2] لكن ذلك لايعني أن خيل المسلمين كانت تقارن بما

---

(١) أنظر نفس المرجع ج٣ ص١٨ ومابعدها.

(٢) نفسه، ص٢٢.

لقريش من خيل وفرسان مهرة

وسارع محمد بجيشه شمالاً، إلى أن وصل جبل أُحُد، ونزل الشعب في عدوة الوادي وفي الجبل، وقال: لايقاتلنّ أحد حتى آمره بالقتال.

وانطلقت قريش تتبعه، فوجدته قد احتل الجبل ليحمي ظهره، وقد وضع عليه خمسين رامياً وأمّر عليهم عبدالله بن جبير وقال له: إنضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتينّ من قِبَلِك. ولبس النبي درعاً فوق درع، واختفى المسلمون وراء مغافرهم.

أطلقت قريش الإبل والخيل في زروع كانت بالصحفة من قناة كانت للمسلمين فقال أنصاري حين نهى النبي عن القتال انتظاراً: أترعى زروع بني قيلة في أرضنا ولما نضارب؟.

وبدأ القتال مناوشات فيقتل ويجرح المسلمون من قريش وتقتل وتجرح قريش من المسلمين حتى كانت (خدعة خالد بن الوليد)، والتي أطلق عليها كل المؤرخين بلا استثناء (إنتصار المسلمين) في بداية المعركة، وهو أمر لايمكن الاقتناع به على الإطلاق في ظروف جيشين كان هذا حالهما، ولكننا نعتقد، بل نكاد نتيقن، من أن قريشاً افتعلت هروباً ظاهرياً ليتبعهم المسلمون، فيتيحوا بذلك إمكانية لخيالة مكة أن ينقضوا عليهم من الخلف، ويحسموا أمر المعركة. وما يؤكد ذلك تلك الأحاديث التي رُوِيت كلها عن إثارة شهية المسلمين لأقصى حد، باستخدام نساء قريش اللائي عرَّيْنَ سوقهنّ وخلاخلهنّ وافتعلن الهرب مع رجال مكة، فها تلك الرواية [1]عن الزبير أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم

(١) أنظر سيرة إبن كثير ص٤٣ ومابعدها

(سوق) هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفت القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيل فأُتينا من خلفنا، حتى خلص العدو إلى الرسول فدُثّ بالحجارة حتى وقع لشقة (كان قد صنعها أبوعامر بن صيفي الأوسي ليقع فيها المسلمون فأغمي عليه)[1] فأصيبت رباعيته وشجّ وجهه وكلمت شفته، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة هرباً، وانطلقت طائفة فوق الجبل إلى الصخرة (فصرخ) الرسول. إليّ عباد الله. إليّ عباد الله، فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً بعد أن ظنوا أنه قتل. وعن قتادة أنه لم يبق سوى إثنا عشر رجلاً مع النبي.[2]

وأصابت حالة الهلع التي أحدثها فرسان مكة في جيش المسلمين إصابة قاتلة، فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان ياقوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، وصعد محمد إلى أصحاب الصخرة وقال لهم (ليس لهم أن يعلونا) ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة من أعلى حتى أنزلوهم عنهم.

وما يؤكد اعتقادنا هذا هو اتفاق الروايات على أن نهار أحد كان للمسلمين وكان كل ماستطاع المسلمون قتله من لواء قريش وأتباعها لم يزد عن عشرة أشخاص وقيل سبعة أو تسعة وأعلى رقم ذُكر كان أربعة عشر رجلاً. فهل يجوز أن يصاب جيش تعداده ثلاثة آلاف محارب في هذا العدد الضئيل ويولي الهرب بسبب هزيمة؟!. بل إن ذلك لايؤكد انتصاراً كما يحكي المؤرخون وإنّما يؤكد شيئاً واحداً

---

(١) مابين القوسين في رواية أخرى

(٢) أنظر سيرة إبن كثير ج٣ عن وقعة أُحُد وانظر ايضاً صحيح البخاري.

هو ما أشرنا إليه من خدعة خالد بن الوليد.

وكان أغلب جيش المسلمين قد وصل المدينة فزعاً متفرقاً، وفيهم بعض كبار الصحابة كعثمان بن عفان، فعن البخاري أن ابن عمر سُئِل أتعلم أن عثمان بن عفان فرّ يوم أُحُد؟! قال نعم. قال فتعلمه تغيّب عن بدر فلم يشهدها؟! قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال. نعم.(١)

يؤنبهم القرآن بعد ذلك على تركهم محمداً في عسرته قائلاً **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم، فأثابكم غمّا بغم، لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم والله خبير بما تعملون﴾** آل عمران١٥٢،١٥٣. عن ابن عباس أنه قال: انكفأت الرماة جميعاً فدخلوا في المعسكر ينهبون والتفت صفوف المسلمين والتبسوا، فلما أخلّ الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها، دخل الخيل من ذلك الموضع على الصحابة، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناس كثير (قيل سبعين مسلماً) وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا (الغاب) إنما كانوا تحت المهراس (ماء بأعلى جبل أُحد)، وصاح أحدهم أن محمداً قد قتل، فما زلنا كذلك مانشك أنه قتل حتى طلع بين السعدين نعرفه بتكفؤه إذا مشى (وقال كعب بن مالك عرفت عينيه تحت المغفر تزهران)(٢)، فرقى نحونا وهو

---

(١) انظر سيرة ابن كثير ج ٣ عن وقعة أُحُد. وانظر ايضاً صحيح البخاري.

(٢) تفسير إبن جرير مج٣، ٤. ج٤ ص ٩٠،٩١.

يقول: إشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبيهم. ويقول مرة أخرى (اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا حتى انتهى إلينا، ونهض إلى صخرة من الجبل ليعلوها وكان قد بدن (ثقل من السن) وظاهر بين درعين فلم يستطع النهوض فساعده طلحة بن عبيدالله. فمكث ساعة فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل أُعل هُبَل. أعل هُبَل، أين إبن أبي كبشة؟ (يقصد محمداً وهو كنية لأبيه عبدالله). أين إبن أبي قحافة؟ أين إبن الخطاب؟! ثم أقبل على أصحابه فقال. أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم. فرد عمر كذبت ياعدو الله. إن الذين عددت أحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوؤك؟. فقال: يوم بيوم بدر، وحنظلة بحنظلة، والحرب سجال، وأنتم واجدون في القوم متلاً لم يكن عن رأي سراتنا وخيارنا ولم نكرهه[١]

وهكذا أنهت فعلة خالد وعجلت بمصير المعركة كلها، وحققت قريش انتقامها الذي كانت تريد، وأن لها أن تعود فتغني، أو تنوح على قتلى بدر الذين لم تزل أجسادهم طرية تحت التراب

ورغم ذلك أرسل محمد علياً بن أبي طالب ليخرج في آثار القوم وقال له: أنظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنّ إليهم تم لأناجزنّهم[٢]. فقد كان معظم الجيش قد فرّ إلى المدينة، وقد تفرق في الشعاب، ولم يبق منه غير عدد قليل جداً إختفى بين الصخور وفي الكهوف، وظن محمد احتمال أن يشجع الانتصار قريشاً لتسير

---

(١) السيوطي. الدر المنثور ج٢. ص٨٤ (حنظلة بحنظلة. يقصد حنظلة بن الراهب المسلم الذي قتل في أُحُد وحنظلة بن أبي سفيان الذي قُتل يوم بدر).

(٢) انظر السيرة النبوية لإبن كثير ج٣ ص٧٦.

إلى يثرب فتستأصل شأفة هذا الجيش، لكن هـذا كان يعني أن مكـة ومن معهـا عليهم أن يخوضـوا حربـاً جـديـدة لم تكن في ذهنهم ولم يجهزوا أنفسهم لها. وقد كانت أُحُد حرباً ذات طابع تأديبي إنتقـامي كما قلنا، فآثرت قريش أن تعود إلى مكة بنصرهـا الثمين بدلاً من أن يتحول إلى هزيمة أو إلى مواجهـة شاملـة مع يثـرب وبما لم يكن في قدرة جيش مكة آنذاك

ولك أن تتخيل موت محمد في أُحُـد ماذا كـان يمكن أن يكون حال الإسلام بعد ذلك؟ وقد هرب كل جيشه بما فيهم بعض صحابتـه الأولين؟! وشوكة أعداء الإسلام في يثرب وخارجها لم تكسر بعد، ولم يكن دخل الإسلام حينئذ سوى بعض أهل يثرب وجزيرة العـرب؟ ولم يكن قد تمكن من القلوب ولم تتحدد ملامحه النهائية بعد؟!. لكن هـذا لم يحدث، وعاد محمد إلى يثرب وهو يواجه عثرة عليـه أن يقوم منهـا وهزيمة عليه أن يواجه آثارها، وجروحاً عليه أن يداويها قبل أن تسمم البدن الإسلامي الضعيف.

فما هي الإجراءات التي اتخذها محمد ليعود إلى حالته الأولى ثم ليتخطاها فيصبح أقوى من ذي قبل؟.

كأن هزيمـة أُحُد لم تكن إلا دافعـاً جديـداً لعدم التـراجع عن حالة الحرب التي صبغت حياة قبائل الحجاز قبل أن تجهز تماماً على الوثنية في أرجاء جزيرة العرب. إستكانت مكة بنصـرها وعـادت إلى تجارتها ولهـوها، بينمـا انطلق محمد وفي ذهنـه أن يثخن في الأرض قبل أن تطوله

نبحث في كتب التـاريخ وكتب السيـرة عن آثار هـزيمة أُحُـد، ويضنينـا البحث فلا نظفـر بشيء، وكأن المـدينة كـانت قد حسمت تماماً لصالح محمد، وكأن الأمـر لايعدو أن يكـون أمراً عـابراً انتهى

بمجرد عودة الجيش المهزوم، وكأن كل مايعني المؤرخين جروح محمد ومن غسلها ومن داواها، إلى آخر تلك التفاصيل التي لاتفيد الباحث في شيء. ولكننا نستطيع القول أن القيام من عثرة أُحُد بالسرعة التي تمت بها، إنما كانت لأن محمداً كان قد جعل المدينة أرضاً له وإن لم تكن كذلك بنسبة مائة بالمائة، ثم إن مسألة حَسْم أمنها كان قد تم بعد معركة بدر وأصبحت قوة المسلمين ذات بأس يُخشى، فعارض من عارض عن خوف ونافق من نافق عن رهبة ولاسيما وأن حالة الحرب كانت معلنة ولم تُغمد السيوف في أجربتها. فقد كان سيف المسلمين مُتعباً بعد أُحُد لكنه كان لايزال مشهراً وقتلى الجيش لم يتجاوزوا السبعين، فمكة خرجت له انتقاماً منه ولم تخرج لتصفيته النهائية، وكانت حساباتها لابد مخطئة، في أن وقعة أُحُد لابد وأنها ستجعل قوافلها تمر بسلام إلى الشام، وأن محمداً لن تقوم له قائمة بعد الآن، ولم تدرك ذلك إلا بعد أن قُطعت الطرق وهوجمت القوافل والقبائل، فجمعت الأعراب في وقعة الأحزاب لعلها تستطيع أن تحقق هذا الهدف، لكن المسلمين تعلموا من خروج أُحُد وكانت شوكتهم قد قويت بما تجاوز قوة بدر بكثير. وربما أدركت قريش هذا الأمر مبكراً، ففي رواية أن رجلًا قدم على النبي من مكة بعد هزيمة أُحُد، فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال: نازلتهم فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئاً، أصبتم منهم شوكة، وأصبتم حدّ القوم ثم تركتموهم ولم تبتروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم[١] وهذه الرواية توضح إلى أي مدى أحست قريش بخطأ حساباتها، وهي لم تكن تجهز إلا للانتقام ولم تكن حالة الحرب قد وصلت للدرجة التي لابد فيها وأن يُرضخ أحد

---

(١) أنظر السيرة النبوية لابن كثير ج٣. ص٩٧

الطرفين الطرف الآخر إرضاخاً نهائياً فهذا الأمر كان يحتاج وقتاً طويلاً لتحسم التفاعلات دور السيادة لصالح هذا القطب أو ذاك.

وكان لبقاء محمد حياً في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الإسلام، دور في تماسك الجبهة المفككة وقيادتها من جديد، فبدا الأمر وكأن المسلمين لم يفقدوا إلا سبعين رجلاً في وباء مرّ بالمدينة فقال القرآن في سورة آل عمران **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم؟﴾**.

عاد محمد وهو يعرف موازين القوى داخل يثرب، فلم يثر معركة مع الذين رجعوا مع عبدالله بن أُبي، وجراحه لم تندمل بعد، رغم أن البعض قد رأوا أن يقاتلوهم، لكن هذا لم يكن في مصلحتهم وجبهة إبن أُبي قوية وهم لم يعلنوا عداءهم للإسلام وإنما أعلنوا تأييده وكأن الأمر لم يكن سوى اختلاف في وجهات النظر.

أُخرج عن سعد بن معاذ أنه قال: خطب رسول الله بالناس فقال: من لي بمن يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني؟ فقال ابن معاذ: إن كان من الأوس قتلناه، وإن كان من الخزرج أمرتنا فأطعناك، فقام سعد بن عبادة فقال: مابك ياابن معاذ طاعة رسول الله ولقد عرفت ماهو منك، فقام أُسيد بن حضير فقال: إنك ياابن عبادة منافق وتحب المنافقين، فقام محمد بن مسلمة فقال: أسكتوا أيها الناس فإن فينا رسول الله وهو يأمرنا فننفذ أمره[1]. فحسم محمد الأمر وهو لايريد أن يعود الصراع بين الأوس والخزرج أو بين الخزرج والخزرج أو بين الأوس والأوس، فتفلت يثرب من بين يديه، فقال القرآن **﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم** (نكسهم

---

(١) انظر تفسير وبيان أسباب النزول للسيوطي. ص١٤٧. ومابعدها.

وردهم إلى حكم الكفر)، **بما كسبوا، أتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليّاً ولانصيراً، إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، فإن إعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَلَم، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً. ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما رُدُّوا إلى الفتنة أُركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السَلَم ويكفُّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾**(١).

وتلك الآيات لتعبر عن الحالة التي كانت عليها يثرب بعد أُحُد والتي كادت تؤدي إلى الحرب لولا أن محمداً كان قد حسم الأمر فأعلن لهم أنه لايريد قتالاً، ولكن ليس معنى ذلك أنه ضعيف، فعلى الذين رجعوا عن القتال أن يعلنوا ولاءهم لمحمد (حتى يهاجروا في سبيل الله) وأن يُثبتوا حُسن نواياهم وإلا فالحرب(٢). وأعلن الذين عادوا

---

(١) النساء ٨٨ ـ ٩١ (حصرت صدورهم. ضاقت وصارت محرجة بين هذا وذاك. السلم. الإستسلام والإنقياد للصلح اركسوا فيها. قلبوا في الفتنة أشنع قلب لم يعتزلوكم لم يبتعدوا عن إيذائكم والدس لكم سلطاناً مبيناً حجة واضحة تبيح لكم قتالهم) (من الآية ٩٠ ـ ٩١. أمر الرسول أحد صحابته فصالح بني حولج على أن لايعينوا على الرسول وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فلايتعرض لهم المسلمون بقتال ولاأسر ولاقطع طريق.) أنظر المرجع السابق في أسباب نزول وشرح تلك الآيات من سورة النساء.

(٢) وقيل أن تلك الآيات نزلت في قوم من العرب أسلموا وأتوا المدينة فلما أصابهم وباء =

قبل أُحُد أنهم اختلفوا فقط في مسألة الخروج من المدينة. وهكذا حُسِم الأمر لصالح محمد مرة ثانية.

أُثيرت مسألة أخرى بعد مقتل هذا العدد الكبير من المسلمين، لأن نظام المؤاخاة الذي ابتدعه النبي في الأيام الأولى نظراً لفائدته القصوى للمسلمين الأوائل، كان يبيح للأخ في الدين أن يرث أخاه، فكان الرجل يعاقد الآخر قائلاً ترثني وأرثك.. وهنا حكاية طريفة عن الزبير بن العوام وكعب بن مالك وكانا أخوين طبقاً لهذا النظام، فقال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأُحُد فقلت: لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها لورثته. لكن القرآن قال **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾** الأنفال ٧٥، فصارت المواريث للأرحام.

وجعل محمد بعض أموال الذين قُتلوا وقفاً عاماً للمسلمين، وكان أول وقف للمسلمين بعد أُحُد هو أموال «مخيريق» اليهودي الذي أسلم وقتل في أُحُد وكان له سبعة حوائط بالمدينة.

وهكذا لم تتن كبوة أُحُد رجلاً كمحمد كان ولابد واضعاً في حسابه مثل هذه الكبوات في مسيرة صراعه، فكل دعوة «ثوريّة» الطابع، لها وعليها. لها أيام حتى تنتصر، وعليها لحظات انكسار تُقوِّي شوكتها وتُعضِّد مسيرتها. فقام محمد ببعد نظره وقوة شخصيته من لحظة الانكسار تلك وأعاد تماسك البنيان وبُعد النظر هذا تمخض عن الاستمرار في القتال وكأن شيئاً لم يحدث، فبيديه قوة لايمكن أن يهدرها تلك القوة التي تكونت عبر سنوات مريرة من الكفاح رجلاً برجل ودرهماً بدرهم وطوبة بطوبة وذلك الرجل الذي ينحت الصخر منذ بدأ لايمكن أن ييأس بعد أن أحرز الانتصار تلو

الملاريا (وباء المدينة) فأركسوا وخرجوا من المدينة ويقول السيوطي في تفسيره إن في إسناد هذا الخبر تدليس وانقطاع.

الإنتصـار ورأى بعينيه أن الحسم النهـائي قريب، بـل وقريب جـداً. وهذا مايمكن أن نطلق عليه باختصار أن دعوة محمـد حملت طابعهـا (الإستراتيجي)، وقَوِي هذا الطابع من خلال مسيرة الصراع في بلاد الحجاز، فلا تهتز الإستراتيجية بفشل «تكتيك» أو آخر مـادام النجاح قد تملك سيفاً ويدين.

كانت نكسة «أُحُد» دافعاً مثيـراً لأن يتقوّى الطـابع الهجـومي «للجيش» المحمدي والذي يمكن تعبئتـه في وقت قصير نسبيـاً، ذلك الطابع الذي اتضح في كل السرايا التي أغارت على القبائل العـربية في مواقعها، فإن كانت قريش قد ظنت أنهـا ستأمن غـاراته، فهـا هو يغيـر على الطرق التجـارية وعلى أمن القبـائل فيـزعـزعـه، وكـانت (الدعوةالدينية) في هذه الغارات لاتُطرح إلا كأمـر ثانـوي، فمن قَبِل بأمر محمد عليه أن يتبعه فيلبس لباس الحرب ولباس الحرب هذا هـو الإسلام وغدا من الصعب الفصل بينهما كأمرين مختلفين، فقد تحول الإسلام إلى الجهاد وشمل الجهاد الإسلام فغطى التفاصيل الأخرى وجعلها تبدو أقل أهمية. فما إن ترفع القبائل رأسها حتى تجد سيوف محمد محيطة بها وبأرضها فتولي الهـرب تاركـة أموالهـا وأنعامهـا، وكانت المفاجأة غالبـاً هي أهم عنصر في تلـك الغارات.. فهـذه مثلاً سريّة (أبي سلمة بن عبد الأسـد إلى طليحة الأسـدي في قَطن) وهو ماء لبني أسد، فيـأمره النبي قـائلاً: سـر حتى تأتي أرض بني أسـد فأغر عليهم. ويسير بمائة وخمسين رجلاً، يقودهم دليل من بني أسد، وكـانت النتيجة أن يفـر بنو أسـد ويتـركـوا كثيـراً من الإبـل والغنم ويـأسرون ثـلاثة ممـاليك ويُعطى الـدليل نصيبـاً من المغنم وتُخمس الغنيمة(١).

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير غزوات مابعد أُحُد ج٣ ص١٢١ ومابعدها.

وفي أرض الحجاز، أن نكسة أُحُد لاتعني أن (جيش) محمد قد شُلَّ، بل هو قادر على أن يضرب ويغنم ثم يعود سالماً إلى قاعدته الآمنة في المدينة.

وبجانب تلك السرايا، لم ينس محمد عدوه الرئيسي في مكة، فبقدرته على إرهاب القبائل، هو ينتزع السيادة من قريش على تلك القبائل، وبضرب القوافل التجارية هو يهز أمن اقتصاد مكة. فهو يعرف أن الصراع بدأ هناك وسينتهي هناك أيضاً بحكم مكانة مكة في جزيرة العرب، فإن من سيطر عليها فقد سيطر على كل بلاد العرب، ولذا ظلت حلمه الدائم وخطوته الكبرى لتحقيق (استراتيجيته) أو بداية نصره النهائي.

ولا شك أن ضربة مكة لاتزال موجعة بحكم إمكانياتها الإقتصادية والسياسية وتاريخها القديم وبحكم تلك المعركة التي كانت قائمة منذ حين وجيش محمد يتفرق في الشعاب وعند قمة الجبل بحثاً عن النجاة.

يُرسل محمد عيونه لاستكشاف الطرق إلى مكة وتحركات سراياها وقوافلها التجارية، ولعل سرية «الرجيع» كانت واحدة من سرايا الاستكشاف تلك رغم مصيرها المأساوي بقتل سبعة من أعضائها وأسر ثلاثة آخرين وتسليمهم إلى مكة لتشنقهم عند الكعبة، فلا يعود منهم رجل واحد إلى المدينة.

وعندما نخوض في تلك السرايا التي يحب رواة السيرة أن يسموها (غزوات) فإننا نضطر كثيراً للتوقف، نظراً لاختلاف تاريخ تلك الغزوات، فهناك من يقول أن غزوة بني النضير جاءت بعد أُحُد، أما حصار بني قينقاع هو الذي حدث بعد بدر[1] كما ذكرنا. ويختلف

---

(١) سيرة ابن كثير ج٣ ص١٤٥ ومابعدها

الرواة أيضاً عن سرية (بئرمعونة) هل تمت بعد الخندق أو بعد أُحُد مباشرة، فلا نستطيع أن نجد لها مكاناً محدداً في مسيرة القوة الإسلامية، إلا أننا نستطيع أن نأخذ منها عبرتها العامة في إطار ذلك الطابع الهجومي للتنظيم الإسلامي في يثرب، بحثاً عن انتصارات أوتجهيزاً لمعارك قادمة أو إحداثاً لتراكم إقتصادي يكفي الحاجات الجديدة والتي اتسعت مع اتساع رقعة الحرب. بل إن التسرع ومحاولة النصر العاجل، لم ينقذ ذلك الجيش الجديد من الوقوع في الفخ أحياناً، كتلك السرية من سبعين رجلاً والتي نزلت بئر معونة (وهي بين أرض بني عامر، وحرة بني سليم). وأُرسلت هذه السرية إلى نجد بعد ذهاب أبو براء عامر بن مالك إلى المدينة فقابل النبي وطلب منه النبي أن يدخل الإسلام فأبى، لكنه قال له: يامحمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فتدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال له محمد: إني أخشى عليهم أهل نجد، فطمأنه قائلاً: سأجيرهم. وعندما قدّموا كتاباً إلى عامر بن الطفيل قال: يكون لمحمد أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أكون خليفته، أو أغزوه بأهل غطفان بألف وألف.. واستعان بقبائل بني سليم، فخرجوا وغشوا المسلمين وقتلوهم عن آخرهم، وهنا أحس محمد بتسرعه فقال. هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً[(١)]

نفس التناقض يأتينا عبر الروايات عن غزوة بني لحيان، فمنهم من يقول إن النبي خرج في مئتي محارب، وسلك طريق الشام تمويهاً لهم، أي دار عليهم وقال: لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة. وصلى فيها صلاة الخوف، وقيل إنها بعد أُحُد وقيل إنها بعد بني قريظة أو بعد غزوة الأحزاب. ويقع نفس الإختلال في تحديد

---

(١) نفسه ج٣ ص١٣٥ ومابعدها.

تاريخ غزوة ذات الرقاع التي غزا فيها محمد نجداً يريد محاربة بني ثعلبة من غطفان، وقيل إنه خرج في أربعمائة وقيل سبعمائة، وذكر أنها كانت بعدالنضير بشهرين، بينما روى البخاري أنها كانت بعد الخندق(١).

لكن معظم الروايات تتفق على أن (غزوة بدر الآخرة) كانت بعد أُحُد، طبقاً لما رُوِي بأن أباسفيان قال وهو ينسحب إلى مكة بعد المعركة: موعدنا بدر في العام القادم. وقيل إنها كانت في شعبان سنة ٤هـ . فعبأ محمد جيشاً قوامه ألفاً وخمسمائة رجل رغم اعتراض بعض أهل يثرب الذين انبعثوا في الناس يثبطونهم عن الخروج، وتذكر الروايات أن هذا الجيش أخذ معه البضائع وقالوا: إن وجدنا أباسفيان، وإلا اشترينا من بضائع موسم بدر، وخرج أبوسفيان ثم قرر الرجوع في منتصف الطريق وهو يقول: يامعشر قريش. إنه لايصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، فإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا، وعندما رجعوا سماهم أهل مكة (جيش السويق) وقالوا إنما خرجتم تشربون السويق. فأقام جيش المسلمين ببدر ثمانية أيام ثم عاد وقد ربحوا من الدرهم درهمين، فقال القرآن ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم**﴾ آل عمران ١٧٤(٢). ويبدو الأمر هنا اتفاقاً مسبقاً على معركة بين محمد وقريش، هكذا تروي الروايات، وعلينا أن نقرأها كما رويت دون تمحيص أو نظر، وتسميها أيضاً كتب السيرة غزوة من الغزوات وعلينا أيضاً أن نتبع هذا دون إعمال نقد أو دون روية.

---

(١) نفسه (أنظر صحيح البخاري ايضا)
(٢) نفسه. ج٣ ص ١٦٩ ومابعدها

فـالجيشان خـرجا محملين بـالبضائـع، جيش محمـد وجيش قريش، جيش محمد باع واشترى وربح، بينما عاد جيش أبي سفيان لأن العام عام جدب. مما يجعلنـا نسـأل. مـاعلاقـة الجدب بـالحرب؟ ومـاعلاقـة العام الخصيب ورعي الشجـر وشرب اللبن بجيش ذاهب لخـوض معركـة متفق عليها مسبقـاً، أو قل لخـوض مبارزة؟!. وهـذا يجعلنا نشك في صحـة الروايـة كما ذكـرها الـرواة، ونعتقد حـدوثها بشكـل مختلف تمامـاً عمـا ظنـه البعض غـزوة من الغـزوات. وهـذا الاعتقاد ربما يجعلنـا نخوض في بحـر من التساؤلات والتـرجيحات، لكننا نظن أننا بالإمكان الخروج من مياهه سالمين.

فمن المعروف كل عام أن بدراً كان له موسم تجاري يُعقـد فيه، يبيع التجار ويشترون ويقايضون ثم ينفض الموسم، ليتكرر بعد ذلك أي أنه كان سوقاً من تلك الأسواق المنتشرة عبر شبه الجزيرة كسوق دومـة الجندل وعكـاظ والمجنة وذي المجـاز، إلى آخر تلـك الأسواق التي كانت محطات للتجارة في قلب بلاد العرب.

وكانت التراكمات التي أحدثتهـا السرايـا والغزوات والتجـارة داخل يثرب وخارجها تبحث عن نمو لها في تلـك الأسواق، لكن معظم هذه الأسواق لاتزال مغلقة على قريش. وكانت الحـاجة الإقتصـادية المتزايدة ليثرب بعد دخـول عدد كبيـر من أهلها الهيئـة الإسلاميـة، وبعد تضخم تلك الحاجة مع اتساع الصراع على الطرق وآبار المياه والقوافل التجارية والسيطرة عليها، تبحث عن حـل لها في السيطـرة على أسـواق التجارة والـدخول في منـافسـة معهـا وتحطيم إحتكـار قريش لها ونظامها الإقتصادي الذي أعطاها تلك المكانـة التاريخيـة منذ القدم. بمعنى أنهاكانت حرباً إقتصادية اكتشفهـا المسلمون وهم يطورون الصراع داخل بلاد العرب.

ونحن نعتقد أن تجارة مكة، لم تتوقف نحـو الشام رغم سـرايا

محمد، فلابد وأن قوافل تجارية قد مرت، ولكنـها لم تكن بحجم قـافلة العير الشهيرة، لأن القـوافل الكبيـرة تعني أنها ستلفت انتبـاه القوة الإسلامية الجديدة والتي لاهمّ لها سوى مهاجمة طرق تلك القـوافل، وهذا مالاتحتاجه التجارة ولايفيد الاستقرار كأهم عامل لاستمرارها. وربما حوّلت القوافل طرقها فاستخدمت طـرقاً جـديدة، وربمـا ازداد ضغطهـا على طرق الجنـوب والتي كانت مـا تزال في قبضـة مكة ولا يمكن السيطرة عليها إلا بالسيطرة على مكة نفسها. ونعتقد أيضاً بأن تجارة يثرب مع الشام كـانت قائمـة وربما ازدادت بـدخول عـدد من التجار المسلمين المهاجرين إلى المدينة، وربما خرج تجار مسلمـون إلى الشام أو العراق أو بـلاد فارس، وإن لم تكن بنفس حجم تجـارة مكـة. ورغم هـذا لا نجـد في الكتب إلا بعض إشـارات ضنينـة عن رحلات تجارية عبر دومة الجندل والتي سكنهـا جمع كبيـر من البشر وأن لهم سوقاً عظيماً بها وأنهم يظلمون من مرّ بهم، كما يُقال في كتب السيرة.

كان التراكم الإقتصادي، إذن، يحدث عبـر الحروب والغـزوات أولاً، والتجارة ثانياً، وربما بعض الاستثمارات الزراعية والرعوية في الأراضي التي احتلهـا المسلمون كـأرض بني النضير وبني قينقـاع وفدك ووادي القرى وما إلى ذلك من موارد. وكان أقرب سوق تجـاري إلى يثرب هو موسم بدر، فلِم لاتخرج قافلة إسلامية كبيرة تتاجر مـع القبائل العربية وتبيع وتشتري وتـزيد ثـروتها وتنميهـا فتكون دعمـاً للهيئة الإسلامية الجديـدة وزاداً لها؟. ومن هنـا بالتحـديد نعتقـد أو نرجِّح بأن ماسُمِّي (غزوة بدر الآخـرة) لم يكن إلا أول قافلـة تجاريـة إسـلامية كبيـرة الحجم، صحبتها أكبـر حمايـة مسلحة في تـاريـخ القوافل التجارية العربية حينذاك (قيل ألف وخمسمائة مقـاتل). ومن هنا نستطيع أن نفهم ضخامة حجم الجيش الإسلامي الذي صحبها.

فهـذا الجيش ارتبط بشكل وبـآخر بمـا في تلك القـافلة من مصلحـة مؤكدة. والعامل الأكثر أهمية في حشد كل ذلك العدد من الحماة كان ينبع من الخوف إذا واجهت قريش قافلتهم الأولى فعرضتها للخطـر، ذلـك الخوف الـذي جعـل بعض أهـل يثـرب متـرددين في الخـروج بأموالهم أمام جيش مكي لايعرفـون ماذا يمكن أن يفعـل ودماء أُحُـد لاتزال طرية في الجبال والشعاب.

ويبدو أن مكة لم تجهز نفسها لحرب، فخرجت كعادتها ببعيرها وقوافلها لتتاجر، ولا بد وأن جيشاً كان يحميها، ولم يكن هـذا الجيش معبأً كجيش (أُحُد)، وإنما كان عبارة عن حراس لتلك القافلة الخارجة إلى سوق بدر. ويبـدو أيضاً أن أبـاسفيان لم يكن يتـوقع أن يخـرج محمد على رأس جيش قوامه أكبر بكثيـر من تعبئة أُحُـد يحفزهم في ذلك أموالهم وبضـائعهم ومحاربون ربما خرجوا مع جيشه ولم يكونوا ينتمون إلى الإسلام إلا بالإسم، وإنما خرجوا بحثاً عن فائـدة أو ربح تحت حماية جـاهزة موكـدة لا يمكن ضمانتهـا دون هذا الجيش وفي ظل ظروف تورط أو إقحام يثرب في الصراع مع مكة.

وهـذا يفسر عـودة أبي سفيان في منتصف الطـريق بقـافلتـه وحراسها، فأتاح هذا الرجوع لمحمد انتصـاراً كبيراً من يـد قريش، فمحمد كان يهاجم دائماً، وقريش كانت مترددة في صـراعهـا. ومحمد كان يبحث عن انتصار شامل، وقـريش لم تفكر في ذلـك لأن سادتهـا مشغولون في مصـالحهم وتجارتهم.. ملهيـون في أموالهم وحيـاتهم، ومحمد كان يحارب هو ورجاله في سبيل قضيتهم بأنفسهم، متفرغين لها ولاشيء سواها، بينما فُرضت الحرب فرضاًعلى مـلأ مكة والـذين ظلوا محافظين على أمنهـا ولم يخوضـوا الحروب إلا نـادراً بحثاً عن إرجاع حالة الإستقرار وهي أهم شرط ليتاجـر الناس ولتتعبـد قبائـل العرب حول الكعبة، وكان هذا الملأ في وضع الدفاع وإن بدا مهاجماً

أحياناً مندفعاً أحياناً أخرى.

وربما ينسف هذا كله القول القائل بأن محمداً شرع سلاحه دفاعاً عن نفسه وبشكل مطلق، ربما يكون هذا صحيحاً في الأيام الأولى من دعوته، لكن ذلك الدفاع انتقل إلى مرحلة الهجوم بسرعة غير متوقعة أفرزتها الهجرة إلى يثرب كقاعدة شبه آمنة للإنطلاق والإنقضاض، بل والتيقُّن أن العدو لن يتجرأ على مهاجمتها أو على الأقل لن ينجح في احتلالها وتصفيته، مما أعطى للهيئة الإسلامية ثباتها واستمراريتها وتنامي قوتها على جميع المستويات وخاصة في مراحل الخطر الأولى.

وإن كان أبو سفيان قد قال: موعدنا بدر، فربما كان لايعنيها أو قالها ساعة نشوة الإنتصار، فلم يجهز نفسه لها - إن كان قالها حقاً - وإلا فلماذا انْسحب من منتصف الطريق وقال إن العام مجدب؟ أي أن التجارة ستكون راكدة هذا العام، فارجعوا بقافلتكم؟ مما أعطى لمحمد فرصة ذهبية لأن يحتل السوق بالكامل ويربح من الدرهم درهمين، بل أمده ذلك الانتصار بارْتفاع معنوي داخل يثرب وخارجها فنسف مابقي من هزيمة أُحُد نسفاً.

واطلق دافع السيطرة على الأسواق وطرق التجارة، أيدي محمد في الشمال بعيداً عن مكة، رغم تحذير البعض له، بأن مهاجمة أطراف الجزيرة ستفزع قيصر، إلا انه كان قد قرر أن يخوض تلك الحروب والتي كانت تجمع قوى الإيمان مع المتردد مع غير المؤمن، وكل خارج لغايته في نصرة دين أو لمغنم أو لكليهما سوياً وتحت إسم واحد هو الإسلام، والتي اثبتت الأيام أن ذلك الجيش الخارج يعود بالغنيمة دائماً. فلِمَ لايخرجون إلى أعظم سوق في شمال جزيرة العرب في دومة الجندل؟.

جمع محمد الفاً من المقاتلين وخرج على رأسهم سِرِّياً، فكان

يسير بالليل ويكمن النهار ومعه دليل من بني عذرة يقال له «مذكور» ماهر في استكشاف الطرق، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بني تميم، ففاجأهم وهاجم ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، فنزل الجيش ساحتها، فلم يجد فيها أحداً، فأقام بها أياماً وبث السرايا في الطرقات لاستكشاف عدو متوقع أو نجدة آتية، وعندما أسروا رجلاً منهم سألوه عن أهلها فقال. هربوا أمس [1]

أثار محمد، إذن، حالة فزع قصوى وسط القبائل العربية بجيشه المحارب دائماً، المنقض دائماً وفي كل مكان، ولم يعد الإسلام مجرد دعوة جدل أو أخذ أو رد عقلي، بقدر مافوجئت القبائل بسرايا تهاجمها في الليل أو النهار، فتقتل وتأسر وتغنم، ولم يكن لها حاجة في قتاله إلا دفاعاً عن نفسها أو عن أرضها وسوائمها وأنعامها، أو عندما يأكلها الجدب فتهاجم بعضها البعض في حروب تهدأ حيناً وتشتعل حيناً آخر.

لكن حروب محمد لم تهدأ أبداً منذ اشتعلت نيرانها، وهذا هو الفرق الأكبر بين حروب ماقبل الهجرة، وحروب النبي مع القبائل العربية.

حقاً، لم يفعل محمد شيئاً غريباً عن طبيعة الصحراء وتشكيلاتها الإجتماعية، فالحرب كانت صفة لازمة والصراع كان دائراً على موارد الرزق المحدودة، لكنها كانت تنتهي بصلح أو معاهدة أو بثأر أو دية أو بفداء لكن الحروب الإسلامية كان في هدفها غرض أسمى وأكبر، كان في هدفها السيادة السياسية قبل السيطرة على الطرق وموارد الرزق والأسواق والبلدان، والتي كان

---

(١) أنظر السيرة النبوية لابن كثير ص١٧٧، ١٧٨

لايمكن حدوثها إلا بالتجهيز لصراع طويـل عبر تمـرين مستمر ودائم من السرايا والغزوات وقطع طـرق القوافـل، ثم الانقضاض النهـائي بفتح مكة ثم السيطرة الكاملة على شبه جزيرة العرب.

وكـان لذلـك الفزع الـذي أثاره محمـد شمالاً وجنـوباً، شـرقاً وغـرباً، دور كبيـر في شحن همة القبـائل، وقبلهـا مكة للتخلص منـه نهائياً، فلم يكن هناك أمامها سوى بديل واحـد. هو التصفيـة، والتي لابد وأن تكون تصفية حقيقية لأحد الطرفين، حتى قبل أن يأتي فتـح مكة بكثير.

(٥)
يكـــون أو لا يكـــون

حددت هجمات محمد أعداءه تحديداً واضحاً، وكانت سياسته الإنهاك المستمر للقوى القبلية في جزيرة العـرب تمهيداً لإخضـاعها وقيادتها.

أنهكت مكـة بحكم قطع طـرق تجارتهـا الى الشمـال، وإثـارة الاضطـراب والفزع فيهـا، وكانت المضـار الأول من حـالـة الحـرب المتواصلة التي أعلنها المسلمون قبل بدر وتزايدت طردياً مـع زيادة القوة الإسلامية. وأُنهكت القبائل في واحاتها وحول آبارها وهي تلقى هجومات فجائية، فلم تعرف للإستقرار مكاناً عندها أو حولهـا، واحتل هذا المكان حالة فزع دائمة بأن يأتي محمـد في الليل أو في النهـار فيحيط بهم وبأرزاقهم ليغنم ويأسر.

وسقطت راية اليهود بضربهم طائفـة بعد أخـرى بني قينقاع وبني النضير، وعرفت الطـوائف الأخرى منهم ـ ولـو بالغـريزة ـ أن الدور لابد وأن يطولهم يومـاً، فهم عاشـوا وسط الوضـع القبلي مئات الأعوام آمنين في بيوتهم منعزلين خلف حصونهم، وإن هوجموا يوماً هاجموا يوماً آخر، وظلوا بين التقدم والتراجـع أحياءً يحـافظون على أجيالهم جيلاً وراء جيل. أما أن يطرح أمر استئصـال شأفتهم تمـاماً وبشكل عملي، فهذا الذي لم يكونوا يتوقعـونه، حتى فـاجأهم محمـد وهو يحاصـرهم ويجوعهم ويقطـع نخيلهم ويحرق زروعهم ويستـولي على بيوتهم وأرضهم وأرزاقهم.

وخفت صوت الجدل، ليرتفع صهيل الخيل وصليل السيوف في الأرض العربية، لأن هذا مايعرفه الناس في كل مكان وزمان، ويعرفه العرب أكثر بحكم حالة الجدب والطبيعة القاسية حولهم. فالجدل قد يغير أفكار شخص أو مجموعة قليلة من الأفراد، لكن تغيير مجاميع بشرية كبيرة من السكان وخاصة في أمر عقائدها التي عاشت بها آلاف السنين وهي تقاوم الخوف والمجهول حولها، فإنه يحتاج نوعاً آخر من الأسلحة الأكثر فعالية، ولاسيما وأن ذلك العصر لم يكن عصر إعلام واسع ووسائل الإتصال كانت بدائية ضعيفة. وبالجدل والحوار والحجة يمكن أن يلتف حولك من لهم مصلحة في حجتك أو هوى في عقيدتك، ولكنهم ـ على أي حال ـ لن يزيدوا عن نواة يمكن أن ينخرها السوس، ويمكن أن تنبت شجرة أصلها في الأرض وفرعها في السماء لو عرفت أن تستخدم التاريخ ولانت لها مسيرته. وربما تعلم محمد ذلك في أكثر من عشر سنوات طويلة وهو يدعو في مكة وحولها، ونواته كما هي لم تنبت بعد، ولو لم يتح له التاريخ والظروف الموضوعية من حوله، وتصميمه على اعتلاء هذا التاريخ بامتلاك تلك النواة لوسائل قوتها، لما سمعنا عن الإسلام إلا كإحدى حوادث التاريخ ذات الأهمية الثانوية

وهذا مافهمه المسلمون فيما بعد وهم يتخطون حدود جزيرة العرب شمالاً وشرقاً وغرباً وهم يسيطرون على مجاميع سكانية وبشرية ضخمة، ويحكمون شعوباً، فم تكن طريقتهم هذه جديدة عن ماضيهم الذي بدأ بإخضاع العرب انفسهم على يد محمد، ذلك الإخضاع الذي كان أصعب بمراحل من مواجهة أكبر امبراطوريتين في ذلك التاريخ، بحكم أنه بدأ وحيداً، وانتهى بجيش ودولة في مواجهة طبيعة قاسية وظروف صعبة، وكان إخضاع كل قبيلة وكأنه يخضع دولة، لأن لكل قبيلة قانونها وعرفها (ودولتها) ـ إن جاز

التعبير ـ ولم تتعلم الخضوع لأي غريب عليها، بينما كانت البلدان تحت سيطرة الروم أو الفرس قد تعودت الخضوع واستساغته لعدة قرون من الزمن، فلم يأتها الفتح العربي غريباً على تاريخها، بل كانت يوماً تحت يد هذا أو يد ذاك من الفاتحين والغازين، فتدربت على الخضوع والطاعة

ولكي لانخرج عن موضوعنا، نعود فنقول، إن الصراع في جزيرة العرب قد تجذر بين قوتين أصبحتا تتنافسان ـ أو بمعنى أصح ـ تتصارعان على السيادة السياسية والإقتصادية والعقائدية. القوة القديمة والتي مازالت في يدها الأسلحة وهي القوى القبلية بزعامة مكة السياسية والإقتصادية والعقائدية والقوة الجديدة والتي كانت تنتزع وسائلها وإمكانياتها من القوة القديمة، وتحفر خندقها في أرضها وتستولي على جزء كبير من رصيدها ووصل الصراع إلى درجة الحسم بحصار الأحزاب والذي كان يختلف عن كل الحروب السابقة بطبيعة الحشد وطبيعة الإمكانيات المستخدمة فيها. فالقوة القديمة عليها أن تعيد التاريخ إلى الوراء فتستقر طرقها وتجارتها ودينها، والقوة الجديدة عليها أن تجري بالتاريخ للأمام فتمتلك الطرق والثروة والدين.

وهكذا تجاوز حصار الأحزاب، الحالة الإنتقامية بكثير، فخرجت قريش وبنو كنانة وتهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، وخرج اليهود بأعدادهم القليلة من بني النضير وبني وائل.

ضرب النبي الخندق على المدينة وأشار عليه سلمان الفارسي حفره في الجبهة الشمالية من المدينة لأنها مكشوفة وذلك في المنطقة الممتدة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، أما جبل (سَلْع) فاعتمد عليه الرسول لحماية المسلمين من الخلف، وخصص لكل عشرة من أتباعه حفر أربعين ذراعاً وخطه لهم حتى لايعدلوا

عنه، ثم جعل الرماة والصخور الناتجة عن الحفر في ناحية المدينة ليحتمي بها المقاتلون، ويحول بين العدو وبين العمل على ردم الخندق بها من جانبه. وتم حفر الخندق في سرعة كبيرة وفي فترة بلغت عشرين يوماً تقريباً واشترك فيه بنفسه مشجعاً، ثم وزع قواته بما يضمن حراسة المناطق المخوفة من هذا الخندق[١].

أما لماذا لم يخرج محمد من المدينة للقاء ذلك الحشد الكبير والذي قيل إنه تجاوز العشرة آلاف رجل وقيل أربعة وعشرين ألفاً؟! فذلك لأن أقصى تعبئة إسلامية لم تكن تتجاوز الثلاثة آلاف رجل، فماذا يفعل عدد كهذا أمام عشرة أو أربعة عشر ألفاً أكثر وأفضل تجهيزاً؟! والحرب هذه المرة لم تكن حرباً إنتقامية بقدر ماكانت حربا تصفوية إجتمعت لها القبائل بآخر ماتملك ـ فإما أن تكون أو لاتكون بعدها ـ كما فهمها محمد بنفسه بعد انتهاء الحصار قائلاً: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم[٢].

وفوق هذا فإن حرباً بهذا الحجم لم تشهد لها جزيرة العرب سابقة كهذه، لابد وأنها ستستغرق أسابيع طويلة وربما شهوراً، وليس يوماً أو يومين أو أكثر بقليل كما في المعارك السابقة، والحروب التي من هذا النوع لاتصمد في خلاء الصحراء، وإنما تستمر خلف الآطام والحصون.

تعلم محمد من سقطة «أُحُد»، وعرف أن المدينة وقاء له وحماية، وإمداد دائم بالمواد، وعرف باحتمائه خلف الجبال والحصون أن حربه لن تكون رجلاً لرجل ولا سيفاً لسيف، وإنما

---

(١) انظر. إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي. ص٨٦
(٢) الطبقات الكبرى لإبن سعد، ص٢٠٤. بيروت وسيرة إبن كثير ج٣ ص ٢٢١.

ستشاركه حربه البيوت والأشجار والمياه والأحجار والأنعام والموارد، وحتى الأطفال والنساء عند الضرورة، وسيشاركه المنافق والمتردد والوثني، لأن حرمة بلده وبيته وداره وأهله تُنتهك بواسطة جيش غريب عنه، وهو مايمكن تسميته بلغة العصر الحديث (إثارة النخوة الوطنية) بالإضافة إلى ذلك فإن أهل يثرب يعرفونها شبراً شبراً وشجرة شجرة، وكل هذه العوامل تفوق أكثر من عشرة آلاف رجل ينامون في العراء ويهاجمهم برد قارص، بعيدين عن دورهم ومياههم، وأهلهم ومواردهم ومصالحهم المباشرة، وفي العراء لابد وأن ينفذ مخزونهم التمويني يوماً ما وهو جيش ضخم جداً بمقاييس هذا العصر الذي تم فيه، فما بال ماصحبه من أنعام وخيل ومتطلبات يجب إرضاءها وتتناقص بحكم مرور ساعات الحصار. وكان هذا التجمع خليطاً من القبائل تتفاوت مصالحها وتناقضاتها مع الهيئة المحمدية، فأهداف قريش لم تكن هي هي أهداف غطفان أو كنانة أو تهامة أو اليهود، ولكل غايته من هذا الحصار، ولكن المصلحة الأساسية للجميع هي التخلص من محمد واتباعه لتهدأ الحالة في جزيرة العرب وتستقر الأمور على ماكانت عليه.

لكن المحاصَرين لم تكن تخلو جبهتهم من ثغرات، أو قل ثغرة واحدة رئيسية تمثلت في حصن يهود بني قريظة، وأدرك محمد نقطة الضعف تلك، وأدركتها قريش أيضاً ولذا كان اللاعب عليها أفضل هو الكاسب أو ربما هو المحدد لمصير المعركة. تحولت يثرب كلها إلى مايشبه حصناً كبيراً، مؤخرته جبل سَلْع ومحيطه الخندق، وفي هذا الخندق حصن بني قريظة. أرسل محمد وفداً بقيادة سعد بن معاذ حليفهم القديم وقال لهم: إنطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحق مابلغنا عنهم، فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه (أي اتفقوا على كلمة سر) ولا تفتوا في أعضاد المسلمين، وإن كانوا على الوفاء

فاجهروا به للناس[1]، وهو يعلم إلى أي مدى تلعب العوامل النفسية والمعنوية دورها في المعركة. ويقول لهم: إنّ الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مازوى لي منها. فقال أحدهم كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لايأمن على نفسه أن يذهب للغائط!!.. وعبر القرآن عن حالة الخوف تلك قائلاً: ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا.**﴾ الأحزاب.

ولتفادي خيانة بني قريظة تحرك محمد بسرعة فأرسل رجلاً من غطفان[2] قائلاً له: خذل عنا فإن الحرب خدعة. فذهب إلى بني قريظة وقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم. البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، ولاتقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولاطاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأي، ثم ذهب إلى قريش فقال لهم: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني، وقال. تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه. إنا قد ندمنا على مافعلنا وصالحوه على

---

(١) سيرة إبن كثير. ج٣ ص ١٨٥ ومابعدها.

(٢) قيل إن الرجل هذا أسلم دون علم قومه وقيل إنه لم يسلم وربما إشتراه محمد ويدعى نعيم بن مسعود بن عامر بن ثعلبة. (انظرالمرجع السابق أيضاً).

أن يأخذوا لــه من القبيلتين من قريش وغطفــان رجالاً من أشــرافهم، فيعطونهم له فيضرب أعناقهم ثم يكونون معه على من بقي منهم حتى يستأصلوهم. وذهب إلى غطفان وقال لهم ماقال لقريش. فأرسـل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة وقال لهم: إنا لسنا بدار مقــام. هلك الخف والحـافر، فــأعدوا للقتــال عدتكم حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فطلبوا رهناً وقالوا. إنا نخشى إنْ ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

وهكذا أفشل محمد ميل بني قريظة للأحزاب وعليــه أن يضرب الآن في معسكر الأعداء نفسه. وهو يعرف أن غطفان ليست كقريش، فهي ليست صاحبة سيـادة ولاثروة ولامصلحـة حقيقية في القضــاء عليه، بقدر ماكان لمكة كل ذلك، فأرسل إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري، قائدي غطفان، وأعطاهما ثلث ثمار المـدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب، وعندما اعتــرض سعد بن معــاذ وسعد بن عبـادة على الإتفاق قال لهما: (والله ماأصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قــوس واحدة وكـالبوكم من كـل جـانب، فـأردت أن أكســر عنكم من شــوكتهم إلى أمر مــا)[1]. فكانت مجـرد مناورة للّعب على تنــاقضات الحلف المضاد.

مرت الأيام صعبة على المحاصِرين، والمحاصَرين، فالطبيعـة قاسية والشتــاء عار، والــدور بعيدة وقـوافل الإمــداد تحتاج مسيـرة طويلة، وهذا ماعبرَ عنه أبو سفيان قائلاً (إنــا لسنا بـدار مقام، هلـك الخف والحافر). وكان عبور الخندق صعباً لدرجة أن الفرسان الــذين

---

(١) انظر سيرة ابن كثير ج٣. وقعة الأحزاب.

حاولوا اقتحامه عند نقطة ضعيفة فيه قالوا والله إن هذه مكيدة ماكانت العرب تكيدها(!!)، بل إن أحد فرسانهم سقط بحصانه في الخندق ومات وأرسلت قريش لتشتري جيفته، فقال محمد: هو لكم فنحن لانأكل تمن الموتى.

وكان على قريش أن ترسل بقواتها لتنهي الحرب على وجه السرعة، فالوقت في غير صالحها، والعراء وقلة الموارد لاتخدمها، والزمن يفتت المعنويات وتفعل الأيام فعلها العكسي في تلك المجموعات التي جُمعت وفي ذهنها أنها ستخوض حرباً نهائية ليومٍ أو يومين في الشعاب أو الجبال

وكان الوضع صعباً بالنسبة للمحاصرين في يترب أيضاً، فالمدينة قد أُغلقت ومصيرها محدد باللحظات القادمة، وجيش العدو يزيد عدداً وعدة، لكن لم يكن أمامها إلا أن تنتظر الحرب وأن تخوضها، بينما لم يكن الأمر هو نفسه بالنسبة للأحزاب والتي يمكن أن ترجع من حيث أتت دون حرب. كما حدث فعلاً.

وجهت قريش كتيبة غليظة نحو منزل الرسول، فقاتلوهم يوماً إلى الليل وكان ذلك وقت صلاة العصر، فلم يصلِّها المسلمون حتى غربت الشمس، وقال النبي عن تلك الصلاة: إن خفتم فرجالاً أو ركباناً. وقيل إن الذين عبروا الخندق أقلية بقيادة عكرمة بن أبي جهل، فقُتل إثنان منهم وولى الآخرون الهرب [١] وحاولت مكة عدة مرات، لكنها لم تنجح في عبور الخندق، وكانت النساء والأطفال والشيوخ خلف الحصون في المدينة بينما إحتمى الجيش بالجبل، ووضع نقاطاً للحراسة والمراقبة على الخندق وبني قريظة.

وظل القتال مناوشة بالنبل، فمات فيها من المسلمين ثلاثة من

---

(١)|نفس المرجع نفس الباب.

بني عبد الأشهل، وأصاب سعد بن معاذ سهم غارب في أكحله فقطعوه له، لكنه لم يتحمل جراحه فهلك بعد شهر، ومات أيضاً الطفيل ابن النعمان وثعلبة السلميان وكعب بن زيد البخاري أصابه سهم فقتله، وقُتل ثلاثة من قريش وهم منبه بن عبد الدار ونوفل بن المغيرة الذي سقط بحصانه في الخندق، وقَتَل علي بن أبي طالب عمرو بن ود العامري.(١)

ويئست قريش وحلفاؤها من اقتحام الخندق بعدما رفض بنو قريظة أن يفتحوا لهم حصونهم، أو أن يتحالفوا معهم. فماتت إبلهم وخيلهم من الجوع والبرد كما قال أبو سفيان، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ماترون، ماتطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولايستمسك لنا بإناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

شاركت الطبيعة، إذن، بدورهافي إحباط نفسية الأحزاب، فقرروا العودة يائسين من تصفية محمد أو اقتحام المدينة، فهو - رغم صعوبته القصوى - بسبب الخندق، مخاطرة غير محسوبة العواقب ولا سيما وأن تلك الجيوش القبلية لم تتعود على هذا النمط من الحروب، والتي تحتاج جيوشاً منظمة وطرق إمدادات سريعة، فإن حاصرت حصناً فإنما تحاصره أياماً لاتطول كثيراً، ويكون حصناً وليس مدينة. فقد جاءت قريش وغطفان وظنتا أنهما ستخوضان حرباً كمعركة أُحُد، فينتهوا هذه المرة من محمد وأصحابه، ثم تعود أمور العرب إلى سابق عهدها، لكن العوامل كلها لم تكن في صالحهم.

وعندما تأكد محمد من رحيلهم نزل بجيشه من الجبل ولم يضع السلاح، ومضى من فوره إلى بني قريظة حتى أن صلاة العصر

---

(١) نفس المرجع، نفس الباب.

حانت فقال لهم. الصلاة في بني قريظة. مما يجعلنا نسأل. ماسبب ذلك التعجيل وكان في إمكان محمد أن يصبر عليهم يوماً أو أياماً؟. تحكي كتب السيرة رواية تقول بأن سبب ذلك يرجع إلى أن جبريل نزل على محمد على هيئة (دحية الكلبي) وقال له: لاترتح. عجِّل ببني قريظة.[1] لكننا نعتقد أن محمداً أحس بقوة - وربما لأول مرة - بخطورة وجودهم المطلقة على أرض يثرب، مما كان يحمل ثغرة واسعة لخططه ربما كانت تستطيع أن تدمره تماماً لو استجاب بنو قريظة للوثنيين من قريش والعرب. ورغم أن بني قريظة لم ينقضوا حلفهم ولم يساعدوا الأحزاب توقعاً ليوم كهذا - وليس حباً في محمد أو دعوته - إلا أنهم دخلوا في مفاوضات مع قريش وأتباعها، فإن فازت قريش كان لها، وإن فاز محمد، فهي لم تخنه ولم تفتح حصونها لعدوه، مما يعطيها مبرراً في البقاء آمنة في يثرب. لكن محمداً لم يكن ينتظر ليتكرر الأمر، ولم يكن ينتظر أيضاً أن تتغير موازين القوى والحسابات التي قد يخطئها فتأتي الريح بما لاتشتهي السفن، ولا زال جيش مكة لم يصلها بعد، وقد علمته أُحُد أهمية الخدعة بعد أن سقط فيها، فربما يعودون لينقضوا عليه في هذه اللحظة أو تلك، فليفرغ إذن منهم على وجه السرعة، ولتكن المدينة كاملة تحت يده وقبضته من الآن وعلى الفور ودون خطورة أو خوف من خيانة قد تحدث

حاصرهم النبي، وأمر أصحابه أن يستروه بالتروس الجلدية (ليُسمع كلامه واضحاً كبوق) وقال لبني قريظة (ياإخوة القردة والخنازير.)

---

(١) انظر. سيرة إبن كثير ج٣ ص٢٢٣. (دحية الكلبي قيل إن جبريل كان ينزل على هيئته وكان تاجراً له أصدقاء في بلاد الشام ويعرف اللغة البيزنطية وخطب محمد أخته شراف لكنها هلكت في الجاهلية.) انظر جواد علي

فقالوا: ياأبا القاسم لم تكن فحاشاً؟!
لكنه الآن لايعتبر بتلك الشكليات الأخلاقية، بقدر ماتحكمه قوانين الحرب والسياسة، فليكونوا قردة وخنازير، أو لايكونوا على الإطلاق، فقد قضى عليهم بعد بضع عشرة ليلة من الحصار، فلم يبق منهم رجل وبقيت نساؤهم سبايا وأطفالهم عبيداً، وخمّس النساء والأطفال والأرزاق، ثم وزع الباقي على المقاتلين، وكان للفارس ثلاثة أسهم، سهمان للحصان وسهم لراكبه، وكان للراجل سهم واحد، وكانت خيل المسلمين يومئذ قد وصلت ستاً وثلاثين. وهنا إتضحت أهمية الخيل في المعركة ولأول مرة ينال الفرس سهمين من الغنيمة، بل إن النبي قد باع من سباياهم إلى نجد فابتاع بأثمانهم خيلاً وسلاحاً. واختار لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خنافة، فلم تُسلم فظلت على الرق ولم تزل جارية عنده حتى مات عنها، وقيل إنها أسلمت بعد ذلك لكنها ظلت على الرق ولم تعتق.

وقيل إن عدد بني قريظة كانوا أربعمائة والمكثرون قالوا تسعمائة، فأخذ محمد رجالهم إلى سوق بالمدينة وحفر بها خنادق ووضعهم على حافتها ودق أعناقهم، وكان فيهم زعيم بني النضير حيي بن أخطب وكان قد دخل حصونهم أثناء الحصار، فقال لمحمد:

- أما والله مالمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخزه الله يخذله. ثم قال للناس.

- أيها الناس. إنه لابأس بأمر الله. كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلس فضُربت عنقه (١)

وهكذا جاء حصار الأحزاب بعكس النتائج التي كان يحلم بها أعداء محمد. جاء بسيطرة تامة على مقدرات يثرب، ونمواً هائلاً في

---

(١) انظر سيرة إبن كثير ج٣ ص٢٢٣.

القوة الإسلامية، جاء بسبب فشل قريش وأتباعها، فإزداد فشلها بتحرير يترب تحريراً تاماً بالقضاء على بني قريظة. ولم يملك المترددون والمنافقون إلا أن يتبعوا محمداً وهم يرون نجاحه فوزاً بعد آخر، ويرون ذلك الرعب الذي كان يشع من عيون اليهود وهم يُهشمون تهشيماً، بل إن ذلك الرعب لابد وأن انتشر في كل أنحاء الحجاز، فاهتزت له القبائل وذعرت منه النفوس.

كان محمد يحارب معركة انتصار، ولذا كان عليه ألا يتردد لحظة واحدة، وأحلامه قد تطاولت الى عرش كسرى وقيصر، ولا بد أن يُخضع القبائل التي لم تتعود على الخضوع، وهو يوجه أنظارها بعيداً عن مواطىء قدمها.

ولم يتوقف محمد عند هذا الحد، بل عرف أسلوب الإغتيالات الفردية أيضاً، فقد أمر بقتل كعب بن الأشرف لأنه هجا المسلمين ونساءهم في شعره وكان ذلك قبل أُحُد، أما بعد وقعة الخندق، فقد أرسل ناساً من الأنصار فقتلوا أبا رافع سلام بن أبي الحيقيق اليهودي وهو نائم ليلاً بقصره في خيبر، وكان تاجراً مشهوراً وذكر أن له دوراً في تحزيب الأحزاب ضد محمد.(١) ثم حاول قبل ذلك إغتيال أبي سفيان بن حرب في مكة لكن المحاولة لم تنجح.. وعندما سمع النبي أن خالداً بن سفيان بن بذيح الهذلي يجمع الناس ليهاجم يثرب وهو بعُرنة،(٢) وأد محاولته في مهدها بأن أرسل رجلاً قيل إنه جعفر ابن الزبير فقتله.

واستفاد محمد أيضاً من أسلوب المصاهرة في صراعه مع قريش، وفعل هذا في زواجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان بعد أن مات

---

(١) انظر صحيح البخاري ج٢/ ٢١٤، ٢١٥

(٢) سيرة إبن كثير ح٣ ص٢٦٧ ومابعدها.

عنها زوجها عبد الله بن جحش الذي تنصر بالحبشة، وقال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة)[١].

وكماذكرنا فإنه عرف أسلوب المفاوضة والخدعة كما حدث في حصار الخندق والتحالفات والمعارك السابقة واللاحقة. وكان يبحث عن حلف قبلي يهيء له مواجهة أحلاف قريش، فإن لم يجد حلفاً كهذا فإنه على الأقل يستطيع تحييد قبائل العرب في صراعه مع مكة، لينقض عليها فيما بعد عندما يكون قادراً على ذلك وأعطته تصفية اليهود داخل المدينة قوة متنامية هيأت له الفرصة لأن يبحث عن هذا الحلف، ثم ينفذه فعلاً بالحلف مع خزاعة رغم أغلبيتها الوثنية، ليفاجىء مكة بعد ذلك بدخول الحديبية، وقبل ذلك لم تتوقف سرايا المسلمين وغاراتهم بعد الخندق، فهذه غزوة بني لحيان تنتقم لأصحاب الرجيع جنيب وأصحابه الذين أسرتهم مكة وقتلتهم. وعندما تحرك أظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة، لكنهم هربوا بين يديه فتحصنوا في رؤوس الجبال، فمال إلى عسفان ـ كما سبق وذكرنا ـ وأرسل سرية محمد بن مسلمة قِبَل نجد وأسروا فيها إبن آثال اليمامي.

وكان النبي يرد بقوة على غارات القبائل العربية، ليتبت دائماً أنه قوي وقادر على الرد، فلا يفلت الأمر من يديه ولايذهب الناس عنه، فهاهو يعود ذات مرة إلى يثرب حتى يجد عيينة بن حصن الفزاري قد أغار على لقاحه بالغابة في خيل من غطفان فقتلوا رجلاً من بني غفار واحتملوا المرأة في اللقاح، فجمع محمد الخيل والرجال وسار حتى نزل بالجبل من (ذي قرد)، وتلاحق به الناس فأقام عليه يوماً وليلة، وقال له أحد رجاله: لو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت

---

(١) نفس المرجع ص٢٧٣

بقية السرح وأخذت بأعناق القوم، فقسم في أصحابه في كل مائة رجل جَذوراً وأقاموا عليها ثم رجع قافلاً إلى المدينة بعد أن استنقذ بعض اللقاح والمرأة وقتل بعضهم وولى الآخرون هاربين، وحدثت في هذه العارة طرفة لامانع من أن نقصّها عليك، فالمرأة التي أُنقذت عادت على ناقة الرسول، وكانت قد قررت أن تنحرها إن نجت، فقال لها النبي. بئس ماجريتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها؟ إنه لانذر في معصية الله ولا فيما لاتملكين، إنما هي ناقة من إبلي.''

وسار محمد في مسيرة التصفية، ففاجأ بني المصطلق، وهم غارون في أنعامهم تسقى على الماء، فأمر عمر بن الخطاب أن ينادي. قولوا لاإله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، وبالطبع لم يكن هذا وقت دعوة أو حتى استجابة، وهم مطمئنون إلى سقي دوابهم، ثم يجدون السيوف تحاصرهم. أن قولوا لاإله إلا الله، وفوق ذلك فلهم دينهم وعقائدهم المتمكنة من قلوبهم ويدافعون عنها إن اقتضى الأمر. وهكذا قتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد، فالمفاجأة فعلت فعلها، وقد قال أبوسعيد: خرجنا مع رسول الله في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبياً من سبي العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزوبة وأحببنا العزل وقلنا نعزل، فسألناه عن ذلك فقال: ماعليكم ألا تفعلوا مامن نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا كائنة.(١) وأصاب النبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار وكانت امرأة حلوة ملاحة لايراها أحد إلا أخذت بنفسه كما تروي كتب السيرة والأحاديث، وكانت قد وقعت في نصيب رجل من المسلمين فكاتبته على نفسها ليحررها بعد أن تدفع

---

(١) رواه مسلم في صحيحه

تمن نفسها، لكن النبي كان قد تزوجها وأعتقها.

وبعث النبي عكاشة بن محصن في أربعين رجلاً الى (غرو مرزوق) فهربوا منه ونزل على مياههم وبعث في آثارهم، وأخذ مائتي بعير فاستاقها إلى المدينة. وتحولت يترب إلى مخزن للغنائم الآتية من قطع طرق القوافل ومهاجمة الواحات بذلك الجيش الدي لم يهدأ لحظة واحدة. وانتقم النبي من جذام بحُسمى لأنهم قطعوا الطريق على قافلة تجارية لدحية بن خليفة الكلبي والذي كان صديقاً لقيصر أو تابعاً له وهو الذي كما ذكر كان يأتي جبريل على صورته للنبي. وأرسل سرية أخرى إلى دومة الجندل بقيادة عبد الرحمن بن عوف ـ ونظن أنها لم تكن إلا قافلة تجارية محمية أكثر من كونها سرية قتالية ـ وكان ذلك في سنة ست هجرية في شعبان، وهذا الظن يرجحه إختيار التاجر ابن عوف والمكان ذي السوق العظيم (دومةالجندل)، لكن كتب السيرة تهوى دائما أن تطلق لفظ (غزوة) على أي قافلة أو سرية استكشاف أو غارة.

وأخرج البخاري ومسلم أن قوماً قد أتوا المدينة وأعلنوا إسلامهم ثم قالوا: إنا أناس أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، فاستوخمنا المدينة. وطلبوا الخروج لأن جوها لايناسبهم، فأمر لهم الرسول بذود ذي قطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر وراعٍ ليشربوا فقط من ألبانها وأبوالها. فلما خرجوا وكانوا بناحية الحرة قتلوا الراعي وأخذوا الإبل فبعث محمد في طلبهم، وطاردهم حتى أمسكهم، ثم (قطع أيديهم وأرجلهم وفقأ أعينهم وتركهم في الحرة ينزفون حتى ماتوا وهم كذلك).[1] كان يقتل عندما يجب أن يقتل، ويذبح عندما يكون الذبح ضرورة، ويقطع الأيدي والأرجل ويفقأ

(١) انظر، سيرة إبن كثير ح٣ ص٣٤٠ وأخرجها البخاري ومسلم والبيهقي

الأعين عندمايقتضي العقاب ذلك، ويغنم دائماً. ويهاجم عندما يكون العدو ضعيفاً أو متنغولاً أو غير مستعد، ويدافع عندما يعطيه الدفاع فرصة للهجوم، مستغلاً في ذلك ظروف الجزيرة العربية السياسية والجغرافية، فلم تكن هناك دولة تقف في مواجهته ولا جيش ولا مؤسسات قوية متماسكة تستطيع أن تنهكه أو تسحقه، وإنما كانت القرى متناثرة، والقبائل القليلة السكان تتجمع حول المياه الضئيلة، ووسائل الإتصال بدائية ومحدودة والطرق ضائعة وسط رمال الصحراء، وحروبها ليست حروباً بمعنى الكلمة المعاصرة بقدر ماكانت غارات من أجل السيطرة على قافلة أو عير أو إبل ترعى أو على سيادة سوق من الأسواق أو انتقاماً، ولم تكن الأحلاف والمعاهدات تعطيها انسجاماً أو وحدة واحدة، فلكل قبيلة عاداتها وطقوسها وقوانينها وسادتها ولا ترضخ إلا في حدودها التاريخية والجغرافية . بينما تغيرت الصورة لحد كبير مع حروب وغزوات الجيش الجديد والذي لم يكن وراءه سوى الحرب، وتكونت للهيئة الإسلامية إنسجاماتها واتساقاتها تحت هدف واحد هو السيطرة التامة على القبائل وسيادتها سياسياً وعقائدياً، فتكون لمحمد جيش بمعنى الكلمة بسبب الغارات اليومية والغزوات المتواصلة، بينما لم يكن هذا الجيش نفسه يتوفر للقبائل التي تحولت إلى موقف الدفاع ولا تعرف متى ولا أين يأتي محمد؟، لأنه كان يحارب في كل زمان ومكان، ولم تفكر القبائل إلا كيف تحمي نفسهاقبل أن تفكر: هل هذا الرجل على حق أم على باطل؟

واستفاد الجيش المحمدي من تلك العزلة الجغرافية والتاريخية، لينقضّ ويغنم ثم يعود سالماً، ليعاود الضربة تلو الضربة، كحروب العصابات وقانونها (إضرب واهرب) حتى أتت لحظة (إضرب واحتل ليوم أو يومين أو أسبوع أو أسبوعين) ثم

تتراكم محصلة تلك الضربات، فتتحكم رايته نفسيـاً وتمسك بـالقلوب الفزعة، وتهابها الطرق ليلاً ونهـاراً، ولم يبق أمامـه إلا أن يكمل تلـك السيطرة بالهجوم النهائي وامتلاك السلطة السياسية.

وهذا مافعله باختبار الحديبية، والذي لم يكن إلا تتـويجاً لست سنـوات من الحروب المتـواصلة، ثم انتهى بمـداهمة مكـة وانتزاع السيادة النهائية على كل بلاد العرب.

(٦)
الحصاد

كان محمد يقول (مابال قريش لاتتركني والعرب، أدعو فيهم ماأشاء ويقاومونني ماشاءوا. ياويحهم قد أكلتهم الحرب؟ ماذا لو خلوا بيني وبينهم، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة؟!..) لكن قريشاً كانت تعرف معنى ذلك، فالصراع لم يكن على طرق التجارة فقط ولا على الدين فقط، ولا على السيادة فقط، وإنما أيضاً كان على الناس ومن يفوز بهم، ويسودهم، فإن خلت قريش سائر العرب لمحمد، لأخضعهم وسادهم وبالتالي لن تبقى لقريش تجارة أو طرق أو سيادة بالإضافة إلى ذلك فإن قريشاً لم تنسحب من الصراع بعد، وهذا الصراع يستهدفها هي بالدرجة الأولى، وجيش محمد يصول ويجول في الطرق والأسواق والمراعي، فماذا لو خلت له الساحة، والأمر قد تجاوز الدعوة بالحوار والجدل إلى حوار السيف والحراب؟.

كان العرب يتجمعون من كل مكان في شبه الجزيرة العربية، في مكة، وينطلقون في الأشهر الحرم لأداء العمرة، وليشهدوا منافع لهم، وكانت هذه فرصة لمحمد، فالأسلحة نائمة في أغمادها، ومكة مشغولة في تجارتها الكبرى وطقوسها، ولاتفكر في حرب، ولا هي بقادرة عليها في هذه الشهور، ورغم حدوث بعض الوقعات القديمة

مثل (حرب الفجار) في تلك الأشهر، إلا أن طبيعتها لم تكن كطبيعة الصراع القائم الآن بين محمد وقريش.

يقول إبن إسحق[1] إن محمداً استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب. وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت معظماً له، وأضاف بأن عدد الذين ذهبوا معه كانوا أربع عشرة مائة.

كان التوقيت ذكياً، فمكة واضعة سلاحها، ومحمد يريد أن يفرض وجوده، فالأمر ليس أمر عمرة أو حج، وإنما هو إبراز للقوة المحمدية الجديدة، وبأن هذا الذي طُرد من أرضه ووطنه وحاربوه وحاربهم، عائد ليقول لهم بأن عداءهم له لم يفت في عضده، وبأنه قادر ـ على الأقل ـ أن ينتزع حقه في دخول مكة ولو معتمراً، فهو ماكان له أن يدخلها فاتحاً إلا بعد إختبار للقوى، محاولاً توريط بعض القبائل غير المسلمة وضمها لحشده، ومستخدماً في ذلك أيضاً بعض الأحلاف مع غير المسلمين من العرب، مستنفراً من له حق في أداء وظائفه الدينية، معلناً أيضاً أن الحج والعمرة هما جزء من فرائض وطقوس الدين الجديد، ولعلّ دخولهما الدين الإسلامي لم يكن إلا تعبيراً عن أساس من أسس الصراع على السيادة الدينية والإقتصادية وبالتالي السيادة السياسية، ولعلّ قريشاً بعد الفتح قد رضيت عن بقاء أهم طقس من طقوس عبادتها جزءاً من فروض الدين الجديد الأساسية ـ رغم ماصحبه من تغيرات ثانوية وإنضاف إليه من روح الإسلام ـ، وتنازلت ـ ولو إلى حين ـ عن سيادتها الروحية

---

(١) انظر إبن كثير في سيرته ج٣ باب غزوة الحديبية

والإقتصادية في بلاد العرب ولعل هذا أيضاً كان نفس الدافع الذي دفع المسلمين بعد الفتح إلى الخوف بل إلى الذعر لأن محمداً كان قد منع أن يقرب الوثنيون الكعبة، وقال القرآن **﴿ياايها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . إن الله عليم حكيم. قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمون ماحرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾** .(١)

لأن معنى ذلك هو سقوط أهم مورد من موارد السيادة على جزيرة العرب، لكن مصدر السيادة سيغدو مختلفاً عن ذي قبل، وسيتبع إجبار القبائل العربية على الدخول في الإسلام رغم أنها لاتستغني عن البيت ـ ولو دمرت آلهتها ـ فالبيت كان رمزاً لتاريخ ديني وعاطفي طويل، لايمكن إزالته بقرار، والبيت كان مصدر منافع وتبادل حاجات أساسية للحياة. بالإضافة إلى ذلك فإن محمداً لم يسكت عند حد فتح مكة، بل انطلق ـ وقد تحررت يداه نهائياً ـ إلى القبائل يحصدها حصداً، وتوّج إحتلاله لمكة وضرباته الموجعة بعام الوفود القادمة من كل البلاد العربية، يعلنون إسلامهم وولاءهم للسلطة الجديدة في مكة، وخضعوا خوفاً ووقاية وحاجة إقتصادية ودينية، ثم يقرر النبي ـ بعد منع المشركين عن المسجد الحرام ـ القتال كبديل عن الراحة، والجزية أو الغنيمة «كبديل» عن التجارة.

وصل المسلمون إلى عسفان، فعلموا بخروج سرية خيل

---

(١) قرر الشافعي أن الحج قد فُرض زمن الحديبية (وأتموا الحج والعمرة لله) وأن الحج على التراخي لاعلى الفور لأن النبي لم يحج إلا سنة عشر هجرية، لكن مالك وابا حنيفة وأحمد (يجب على من استطاعه فوراً إبن كثير ج٣ ص٣٤٢.

لقريش يقودهم خالد بن الوليد، فقال النبي: من الرجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟. فسلكوا طريقاً وعراً كثير الحجارة بين شعاب، حتى خرجوا منه، إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وسلكوا ذات اليمين بين «ظهري الحمص» حتى «ثنية المرار» مهبط الحديبية من أسفل مكة، وعندما لم يجدوا جيش المسلمين، انسحب الفرسان راكضين إلى قريش.

أرسل محمد قوماً من خزاعة حلفائه(١)لقريش بأنه يريد العمرة كبقية العرب ولا يريد قتالاً، فاتهموهم وجبّهوهم وقالوا. وإن جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لايدخلها علينا عنوة وإلا تحدث بذلك عنا العرب وظلت المفاوضات جارية، وقريش ترسل رجالها واحداً إثر الآخر، محمد يريد أن يدخل مكة غير مقاتل، وقريش لاتريده أن يدخلها عنوة، خائفة منه في أهم مواسمها على الإطلاق، وهي تهدده بالخروج إليه لقتاله، وأرسل النبي عثمان بن عفان ليفاوضهم داخل مكة، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطفه. واحتبسته قريش عندها، وخاف المسلمون أن تكون قريش قد قتلته، فبايع المسلمون النبي على الموت وعدم الفرار في قتال مكة.

وأرادت قريش أن يمر عامها هذا دون تعكير صفو، فأرسلت سهيلاً بن عمرو وقالوا. إئت محمداً وصالحه، ولايكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لاتتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً. وفي الصلح تغاضى محمد عن الشكليات، فلم يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) وكتب (بإسمك اللهم)، ولم يكتب (محمد رسول الله) وإنما كتب (محمد بن عبدالله). واصطلحا على وضع الحرب عن

---

(١) يقول الزهرى. وكانت خزاعة عيبة (موضع سر وخاصة) نصح الرسول مسلمها ومشركها لايخفون عنه شيئاً كان بمكة

النـاس عشر سنين يـأمن فيهم الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه (حليفه) رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمـد لم يردوه عليـه، وأن بيننا عيبـة (موضـع السـر) مكفوفـة (مطويـة) وأنه لاإسـلال (سرقـة خفيـة) ولا إغـلال (خيانة)، وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وحلفهم دخل فيه.[1]

واشترطوا عليه أن يعود فيقيم بمكة ثلاثاً ومعه سـلاح الراكب. السيف في القرب لايدخلها بغيرها، وكان المسلمـون متعجلين فثاروا على المعاهدة، لكن محمداً كان واعيـاً بموازين القـوى حولـه، وأتاح صلح الحديبية للمسلمين أن يأخذوا أنفاسهم وأن يعقدوا أحلافـاً مع بعض القبائل العربية، فمن ألف وأربعمـائة عـام الحديبيـة لأكثر من عشر آلاف في فتح مكة، يعني أن جهود محمد خلال سنتين قد توجت بانتصار كبير، فلقد أعطى ذلك الحلف لمحمد شـرعية كـانت تنكرهـا عليه مكة من قبل وتنكرها أيضاً القبائل العربية، وأنزلت تلك المعاهدة من رهبـة مكة، وانتقصت من سيـادتها في نفـوس العـرب، فلم إذن لايحالفونـه أو ينصرونـه؟! وفعلت الصراعـات القديمـة فعلها داخـل هؤلاء الذين كانوا يتقاتلون قبل ذلك مثل خزاعة وبني بكر، فدخـل بنو بكـر في حلف قريش، فلِم إذن لاتـدخل خـزاعـة في حلف محمـد؟!. وأسلم رجال وجاءوا من مكة الى يترب، فنصحهم النبي بـالعودة الى مكة، تم تطور الأمر بأن أفلت كثيرون من قريش ولم يعودوا وخرجـوا حتى أتـوا سيف البحر حتى اجتمعت منهم عصـابة، مـا إن يسمعوا بخـروج عير لقـريش إلى الشام إلا اعتـرضوا لهـا فقتلوهم وأخـذوا أموالهم، وهكذا جاء الأمر عكس ماتوقعت قريش، فأرسلت إلى محمد

(١) انظر سيرة إبن كثير ج٣ ص ٣٢٠،٣٢١

تناشده بالله وبالرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن.

وبعد الحديبية مباشرة، أرسل محمد ستة نفر مصطحبين حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس صاحب الإسكندرية وشجاع بن جذيمة الى الحارث الغساني ملك عرب النصارى. ودحية بن خليفة الكلبي الى قيصر هرقل الروم، وعبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس، وسليط العامري الى هوذة الحنفي، وعمرو بن أمية الصخري إلى النجاشي.

عرف محمد، إذن، أن المسألة مسألة وقت حتى يحسم أمر جزيرة العرب لصالحه، ولذا توجه بأنظاره وأنظار العرب إلى خارج الحدود وهو يقول للعالم الخارجي أنه أصبح سيد العرب ونبيهم وعليهم أن يقبلوه بهذه الصفة.

قالت صحيفة الحديبية بأن تتوقف الحرب بين محمد وحلفائه وبين مكة وحلفائها عشر سنين. فهل توقف محمد عن الحرب فعلاً؟! كلا.. فجيش محمد كان قد تعود القتال، وجيش هذا حاله لايمكن أن يتوقف، ربما ترك مكة في حالها، وانطلق يحسم مواقع أخرى. فما إن رجع من الحديبية حتى مكث في يثرب أقل من شهر، ثم خرج إلى خيبر، وفي الأشهر الحرم، فنزل بالرجيع وهو واد بين خيبر وغطفان، فتخوف أن تمدهم غطفان فأسرع وغدا عليهم. وفعل خدعة أتت أكلها مع غطفان، فأرسل خلفهم نفراً من جيشه فأثاروا الرعب، فأقاموا في أموالهم وأهليهم ولم يخرجوا ليظاهروا أهل خيبر. وكان محمد إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح (هكذا يُروى)، فبات ليلة في خيبر حتى أصبح فانقض عليها، وكان عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا محمدا والجيش قالوا: محمد والخميس (الجيش) معه فأدبروا هراباً، فقال محمد: الله أكبر خربت

خيبر، إنا إذا نـزلنا سـاحة قـوم فساء صبـاح المنذرين.[١] وهكـذا أخذتهم المفاجأة، فرجعوا إلى حصونهم، لكنــه كان قــد أجبرهم على الإستسلام، فقتل المقاتلة وسبي الذرية وكـان في السبي صفية بنت حُيي،فصارت إلى دحية الكلبي، فلما رآهـا النبي وكانت جميلـة، قال لدحية: إذهب وخذ من السبي غيرها، وأخذها النبي لنفسه

قال إبن إسحق: وتدنى الـرسول الأمـوال، وأخذهـا مالاً مـالاً ويفتتحهـا حصناً حصنـاً وحاز من الأمـوال ماحـان، حتى انتهى إلى حصنهم الـوطيح والسُـلالم، وكـان آخـر حصـون خيبـر إفتتـاحـاً، فحاصرهم بضع عشرة ليلة، وعند أحد الحصون اقبلت غنم لرجل من اليهود تريد حصنهم، فأرسل محمد رجـلاً فأدرك الغنم وأخـذ شاتين من أخراها وألقاهما عند قدمي الرسول فـذبحوهمـا وأكلوهمـا. وجاء رجل فقال لمحمد: إنك لو أقمت شـهراً تحاصرهم مـابالـوا بك، إن لهم تحت الأرض الجداول، يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم. فقطع دبولهم وجداولهم، فخرجوا حينذاك وقاتلوه، لكنــه كان قـد اقتحم الحصون واحـداً بعد آخـر، ورُوي أن الرسـول استخـدم المنجنيق في حصـاره لخيبر![٢] وهـذا يعني أن قوتـه قـد تجـاوزت (جيوش) القبائل بكثير من ناحية الإعداد والتطور، وقسم النبي أرزاق خيبـر وأعطى بني هــاشم وبني المطلب من الخُمس، ولم يقسم لبني عبد شمس وبني نوفـل شيئاً، وإذا كـان مع الـرجل فـرس فله ثـلاثة أسهم، وإن لم يكن معه فرس فله سهم. ويقول إبن كثير. أن الصحيح أن خيبـر لم تقسم جميعها وإنمـا قسم نصفها فقط، وجعـل النصف الآخر لنوائبه، أي لمن نزل به من الوفـود والأمور ونـوائب الناس.[٣]

---

(١) عن أنس بن مالك. انظر صحيح مسلم ص٥٩٨ دار الكتب العلمية بيروت.
(٢) عن الواقدي السيرة النبوية لإبن كثير ج٣ ص٣٧٦.
(٣) نفس المرجع. ج٣ ص٣٨١.

أي جعل هذا للحياة العامـة ويبدو أن غنـائم خيبر كـانت من الكثرة بمكان إضطر محمداً أن يقسمها بشكل مختلف عما هو متعارف عليه، بحيث لم يخمِّس سـوى النصـف فقط، وهـذا رغم أن عـدد الجيش المحمدي كان ألفاً وخمسمائة رجل كما يروى، وقيل أيضاً أن بخيبـر أربعون ألف نخلة.(١)

وازدادت ثروة النبي زيادة كبيـرة ذكرتهـا كتب السيرة بسبب الخمس أو تلك الأسهم التي إقتطعها لنفسه، كما حـدث في فيء بني النضير وفدك بكاملهما، ونصيبه من أرض خيبر وهي طائفة كبيرة من أرضها قيل إنها تجاوزت النصف، فكـانت هذه الأمـوال له خـاصة، وكان يعزل منهـا نفقة أهلـه سنة، ثم يجعـل ماتبقى مَجْمَـل مال اللـه يصـرفه في الكـراع والسلاح وقـد أثار هـذا مشكلـة بعـد مـوتـه، فـاعتقدت فـاطمة وأزواج النبي وأقـرباؤه، أن هـذه الأراضـي تكـون موروثة عنه، لكن أبابكر رفض وقال: أن النبي قـال (لانورث مـاتركنـا صدقة) ولم يأخذوا نصيبهم من الخمس إلا في أيام عمر بن الخطاب بعـد أن اتسعت الدولـة الإسلاميـة وإزدادت ثروتهـا زيادة هـائلـة. وبالطبع لم يـأخذ العبيـد المسلمون ولا النسـاء مثلما أخـذ الرجـال الأحرار وإنما أعطاهم النبي عطاءً غيـر محدد من الغنيمـة ولم يسـهم لهم من أموال خيبر، وذُكر أنهم أعطوا تمراً وبعض المتاع.(٢)

وهنا تروي كتب السيرة أن عودة جعفر بن أبي طالب بمهاجري الحبشـة من المسلمين ومعهم من أهل اليمن، كـانت وكأنهـا مجـرد صدفة حدثت بعد فتح خيبر مباشرة، وقيل إنهم كانوا ستة عشر رجلاً ومعهم نساؤهم وأولادهم، ولم يُذكر عدد اليمنيين الذين جاءوا بقيادة

---

(١) رواه ابو داوود.

(٢) انظر سيرة إبن كثير ج٣ ص٣٧٤ ومابعدها، ص٣٨٦ ومابعدها

أبي موسى الأشعري، ونعتقد أن الأمر لم يأت صدفة نظراً لتوقيت عودتهم، عودة المهاجرين إلى الحبشة وعودة مسلمي اليمن، فمحمد كان يجهز لفتح مكة، ويحتاج كل مسلم في معركته الأخيرة مع قريش ولذا نظن بأنه استدعى مهاجري الحبشة ومسلمي اليمن.

ولم يرتح محمد بعد خيبر، بعد أن اكتسب ذلك السيف المشهر شرعيته في قطع الطرق والإغارات المستمرة فانطلق إلى وادي القرى، وحاصر أهلها ليالي، وقاتلهم حتى أمسوا وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة وغنموا أموالهم وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كبيراً. وأقام أربعة أيام ليقسم الغنائم وترك الأرض والنخيل في أيدي من صالحوه من اليهود وعاملهم عليها (أي ليدفعوا خراج الأرض على شطر من تمر وزرع غير الجزية). وفعل ذلك في يهود بني تيماء، فصالحوا النبي على الجزية وأقاموا بأيديهم أموالهم، وهكذا وصلت يد محمد قرب الشام لأن تيماء ووادي القرى في أقصى الشمال، ويعتبر بذلك قد سيطر على بلاد شمال الحجاز تقريباً، ولم يبق أمامه سوى مكة وبعض القبائل ليحسم أمر جنوبها.

ومن تأثير هيبته في جزيرة العرب، كان عند عودته من تلك الفتوحات، تفزع العشائر والقبائل وتولي هاربة في الجبال والكهوف بعيداً عن غبار خيله وإبله ورجاله، كما حدث مع بني فزارة أثناء عودته من خيبر، فقتل على الماء من مرّ منهم. ودعنا نقرأ سوياً هذه القصة ـ ونرجو أن لانكون قد خرجنا عن موضوعنا ـ فقد رُوي عن سلمة أنه قال أثناء عودته مع جيش المسلمين من خيبر... ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه الذرية والنساء من بني فزارة نحو الجبل وأنا أعدوا في آثارهم، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم فوقع بينهم وبين الجبل قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر (وكان

على رأس سرية بني فزارة) حتى أتيته على الماء وفيهم امرأة من فزارة عليها فرو ثمين من أدم ومعها إبنة لها من أحسن العرب، فنفلني أبو بكر بنتها، قال: فما كشفت لها ثوباً حتى قدمت المدينة، ثم بتُّ فلم أكشف لها ثوباً. حتى لقيني الرسول في السوق وقال لي: ياسلمة هب لي المرأة، فقلت له. والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً. حتى لقيني في اليوم التالي وسألني إياها فقلت مثل ماقلت، وفي اليوم الثالث قال لي (ياسلمة هب لي المرأة أبوك) فقلت: والله ماكشفت لها ثوباً وهي لك يارسول الله، وظلت معه حتى أرسلها إلى مكة ففادى بها أسارى من المسلمين.(١)

وهنا يبدو قانون السبي شرعياً، كما كان في أي مكان بحيث يفقد الأطفال والنساء حريتهم ويمكن أن يباعوا أو - إن سمحت الظروف - يحرروا، وكانت الغنيمة من العوامل المهمة التي تمثل حافزاً قوياً بالنسبة للأعرابي في إغاراته أو صراعه مع القبائل الأخرى.

ونعود لنرى الجانب الآخر في قريش لاهياً في حياته وتجارته، ظاناً أن صلح الحديبية منع عنها أيدي محمد لعشر سنين، لكن سراياه لم تتوقف، فها هي سرية عمر بن الخطاب في ثلاثين فارساً إلى أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال، وكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار. وهذه سرية عبدالله بن رواحة الى يسير بن حزام اليهودي بعد خيبر، وسرية بشير بن سعد إلى بني مرة من أرض فدك فاستاق نعمهم، لكنهم قتلوا عامة من معه ورجع هو إلى المدينة فأرسل النبي سرية إنتقام بقيادة أسامة بن زيد. وأرسل سرية أبي

---

(١) رواه البيهقي عن عكرمة بن عمار ومسلم في صحيحه انظر سيرة إبن كثير ج٣ ص٤١٧

حدرد إلى جشم في الغابة فولـوا هاربين وتـركوا إبـلاً عظيمة وغنمـاً كثيرة وأعطى النبي أبا حدرد ثلاثة عشر بعيراً نفلاً.

وكـانت بعض القبائـل المهاجَمـة (بفتح الجيم) تضطـر نتيجة الإغارات أن تعلن إسلامها، لكن ذلك لم يكن دائماً ينجيها من سيوف المسلمين كمحلم بن جثـامة بن الأضبط سيـد عامـر قتلـوه وأخـذوا بعيره ومتاعـه رغم اعلانـه الشهادة فقـال القرآن ﴿ **يـا أيها الـذين آمنـوا إذا ضربتم في سبيـل الله فتبينـوا ولا تقولـوا لمن ألقى إليكم السـلام لست مؤمناً، تبتغـون عرض الحيـاة الدنيـا، فعند الله مغانم كثيرة كذلـك كنتم من قبل فمنّ اللـه عليكم...** ﴾ النساء ٩٤، لقـد كانـوا من قبل محتـاجين هذه الغنـائم، ولكن آن الأوان ان يقبلوا بخضوع البعض حتى ولو اعلنوا اسلامهم خوفاً فعرض النبي على قومه الـدية فلمـا لم يقبلوا حتى قـال لهم الأقرع بن حـابس: أو لآتينّ بخمسين من بني تميم كلهم يشهدون أن القتيل كـافر مـا صلى قط فـلا يطلبن دمه[١]. فـالخضـوع لإسم الإسـلام يعني شكـلاً من أشكال الإنتصار ولذا قبل محمد منْ الأعراب الشهادتين وهو يعـرف أنهم لم يؤمنوا ولم يدخل الإسلام الى قلـوبهم، فالأمـر يحتاج فتـرة طويلة من الصراع مع النفس والانتصار الدائم وترسخ العقيدة جيلاً بعد جيل، بل ان حركة الارتداد بعد محمد لم تكن إلا تعبيراً عن قبول الأمر الواقع اكثر منها الاقتناع بالإسلام كعقيدة بديلـة عن عقائـدهم القديمة ظنّاً منهم بأن مـوت محمد يعني أن شـوكة جيشـه ستنكسر وأن الغارات المسلحة لا بد ستتوقف وتعود الحياة الى سابق عهدها.

قال إبن إسحق: فلما رجع الرسول من خيبر إلى المدينة أقـام بها شهري ربيع وجمادين ورجباً وشعبان ورمضان وشوالاً يبعث فيما

---

(١) نفسه، ص٤٢٥.

بين ذلك سراياه، ثم خرج من ذي القعدة في الشهر الذي صده فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها... فلم سمع به أهل مكة خرجوا عنه إلى جبل الخندمة وتحدثت قريش بينها أن محمداً في عسرة وجهد وشقة، وكان النبي يحميه المسلمون من غلمان مكة أن يؤذوه وقام بمكة ثلاث ليال.

وهكذا رأت مكة محمداً داخل الحرم رغم أنفها، ولم ينزل محمد أعزلا ولا بالسلاح في الجراب، ولكن كان السلاح عظيماً وضعه في بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، وبعثت قريش إليه مذعورة: يامحمد ماعُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف في القرب. وعرف محمد إمكانيات مكة عن قرب وعرف فزعها منه، فكان كل ذلك تقدمة لدخول مكة في العام التالي وقد أظلت خيوله رؤوس القوم وسيوفهم رقابهم. كان قد أسقط في يدهم.

ورجع من عمرة القضاء تلك (وتسمى القصاص أحياناً)، فلم يهدأ، وأرسل سرية من خمسين فارساً إلى بني سليم، فقاتلت قتالاً شديداً، وقُتل كثير من المسلمين. وأغارت سرية أخرى على جمع من هوازن وفاجأوهم وهم غارون فأصابوا نعما كثيرة وشاء، فاستاقوا ذلك حتى إذا قدموا المدينة وزعوا الغنيمة والسبي وأنفلهم النبي بعيراً بعيراً، بعد الخُمس، وأرسل سرية أخرى الى (ذات أطلاح) من الشام ولكنهم قُتلوا جميعاً ورُوي أنهم كانوا خمسة عشر رجلاً ويبدو أن هذه السرية كانت تمهيداً لغزوة مؤتة بقيادة زيد بن حارثة في نحو ثلاثة آلاف، إلى أرض البلقاء من أطراف الشام، وقيل أن النبي قال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس، ومعنى ذلك أنه كان مدركاً لطبيعة

المعركة الجديدة من نوعها، فهي تعتبر اول غزوة كبرى تتم خارج أرض الحجاز، وهي توجه أنظار العرب لأبعد من حدودهم الضيقة في الواحات وفي إطار العشيرة، فمكة لم تزل خارج يديه والقبائل العربية لم تخضع للإسلام بعد، وهو يضرب خارج شبه الجزيرة، وهذا يعني أشياء كثيرة. يعني أن القوة الإسلامية تخطت منذ زمن مرحلة القبلية إلى مرحلة وضع نواة لدولة آخذة في التشكل، وهي تمارس تلك القوة ليس على تمرد القبائل فقط، ولكن أيضاً خارج حدودها. ويعني أن بضرب الأبعد يطيب الأقرب سواء على المستوى النفسي أو المعنوي، أو على مستوى حقيقة القوة التي تمارس هذا الضرب. ويعني أن الحرب إنغرست في نفوس المسلمين وسرت في دمهم، وملكت عليهم حياتهم، فتحولوا إلى جنود عبر الغارات والسرايا والمعارك والقتال اليومي أو مايستتبعه من إجراءات وقوانين، فلم يعودوا يهابون حروباً قبائلية صغيرة أو كبيرة، وإنما هم يتوجهون الآن لإزعاج أطراف الإمبراطورية البيزنطية، وهم يقولون بذلك للعالم الخارجي أن احتواء جزيرة العرب قد تم وأن المسألة مسألة وقت فقط. ويعني أيضاً أن مرحلة الدفاع قد انتهت للأبد وبدأ مايسمى بالهجوم الإستراتيجي من أجل إنجاح المشروع الإسلامي.

ومضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقان، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية مشارف، فانحاز المسلمون إلى (مؤتة) وهاجمهم العدو بجيش كبير، فقُتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ثم أُعطيت الراية لخالد بن الوليد الذي كان قد دخل الإسلام منذ وقت قصير، فانسحب ببقية القوات بعد أن أثار الغبار خلف الجيش موهماً العدو أن إمدادات إسلامية كبيرة قد أتت، وكان قد وضع خدعة بعد ليلة من القتال الصعب، فجعل مقدمة الجيش ساقه، وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة،

ففوجئت قوات الشام بناس غير الناس وظنوا أيضاً أن مدداً كبيراً قد جاء، حتى استطاع إبن الـوليد أن يعـود ببقية الجيش إلى المـدينة، وهنا كسب الجيش الإسلامي القائد الفذ خالـد، ووجد هـو نفسه في هذا الجيش أحلامه العسكرية وعبقريته الحربية.

وذُكرت حول هذه المعركة أرقام مبالغ في أمرها، فقد رُوي بأن جيش مؤتـة من نصارى العـرب وبيزنطـة كان مئتي ألف مقـاتل في مواجهة ثلاثة آلاف . ولم يقتل من المسلمين سوى ثمـانية أو أربعـة عشر رجلاً حسب المكثرين وهذا أمر مشكوك فيـه، وذلك لأن تعبئـة مئتي ألف مقاتل لم يكن أمراً سهلاً في هذه الأيام ـ ويظل أمراً صعباً أيضاً في حالة الجيوش الحديثة ـ وفي تلك الفترة القليلة والتي تحرك فيها المسلمون من يثرب إلى مؤتة، ثم إن حجم الخسـائر لايتنـاسب مع معركة كبرى تتطاحن فيها جيوش بهذه الأعداد المهولـة وخاصـة وأن جيش المسلمين كان قليل العدد جداً بـالنسبة لعـدوه في حالـة تصديق تلك الأرقام، وبالطبع فإن عوامل المبالغة قد تكمن في الحمية الدينية، ومحاولة إثبات أن العقيدة قادرة بأن تجعل المقاتل في الدين يـوازي بل ويفـوق مائـة رجل، وهـذا لايعقل في مـواجهة قـوة جيدة التسليـح والإعداد كقـوة بيزنطـة، وربما لم تشتـرك بيزنطـة سـوى إشتراكاً رمزياً وكـانت المعركـة في أساسهـا بين عرب من نصـارى الغساسنة وبين المسلمين.

وفي أي الأحـوال لم تأت هـذه المعركـة بنتائـج أو انتصارات مباشرة، رغم أنها أضافت لرصيد القوة الإسلامية تجربـة قتاليـة مع جيوش أكثر حداثة وإعداداً وتنظيماً، مما سيكون له دوره المستقبلي في حروب الفتوحات القادمة. وأتت هذه المعركة بنتائج غير مباشـرة في توجيه أنظـار العرب نحـو العدو خـارج حدودهم وتنبيههم بـأنهم ينتمون لحدود جغرافية وتاريخية واحدة. وأن راية الإله الواحـد التي

ارتفعت ماهي إلا راية دولة واحدة أو (قومية) واحدة، وثبت أن هذا الأمر قد احتاج وقتاً طويلاً وحروباً مريرة وتجارب موجعة ليخرج العرب من شرنقة القبلية الحرون، إلا أن بذور ذلك كله قد وُضعت بمعركة مؤتة ورسائل محمد لملوك العالم خارج جزيرة العرب، ولم تطرح تلك البذور شجرتها إلا بعد حروب الردة والتي بعدها نقل أبو بكر الصراع من داخل بلاد العرب إلى خارجها، كما يقول في ذلك طه حسين، لولا ذلك ما قدر للإسلام أن يعيش[١] ولأكلت الموارد القليلة وجدب الصحراء الإنجازات المحمدية بعودة الصراع الدائم على موارد الرزق، وقد حُلت هذه المشكلة المستعصية عبر الغنائم والثروات المنزوحة من بلاد الفتوحات الخصبة.

وعلى نفس النمط لغزوة مؤتة أرسل النبي عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلى، فلم رأى قوة عدوه، أرسل إلى يثرب يطلب المدد فبعث له النبي مدداً بقيادة أبي عبيدة بن الجراح فاختلف هو وعمرو على إمارة الجيش، حتى رضخ في النهاية أبوعبيدة لإمارة عمرو. وحمل المسلمون على عدوهم فهزموا وأعجزوا هرباً في البلاد، ودوخ عمرو ماهناك، وأقام أياماً لايسمع لهم بجمع ولامكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم، فكانوا ينحرون ويذبحون ولم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن غنائم تقسم[٢] أي أنها كانت غزوة دعوة وإثبات قوة وسيطرة أكثر منها غزوة للغنائم.

وقد آثرت هنا أن أذكر معظم السرايا في تتابعها الزمني كما ذكر، لالشيء إلا لأثبت حجم العمل العسكرى الذي كان يقوم به

---

(١) أنظر طه حسين الفتنة الكبرى. دار المعارف.

(٢) عن الواقدي سيرة إبن كثير ج٣ ص٥١٦،٥١٧.

محمد بعد أن وطأت قدماه أرض المدينة، وهو عمل - إن قيس بجيوش العصر الحديث - مع النظر إلى الظروف التاريخية التي كان يعمل فيها هذا الجيش، لاعتبر هائلاً بكل المقاييس وكل الحسابات ومدهشاً من جانب هذا الرجل الذي ظل يدعو في مكة بضع عشرة سنة ولم تتبعه إلا قلة، وبصبر شديد يواصل دعوته ولم يكن بجانبه فارس واحد حتى انفتحت له ثغرة يثرب، فكانت فرصة تاريخية التقطها، فأمدته بالنيران ليشعل بها بلاد العرب ولم تنطفيء يوماً أو لحظة واحدة.

وها قد آن الأوان ليقطف ثمرة ذلك الكفاح المتواصل بعد أقل من ثماني سنوات من الحرب الضروس تحكي كتب السيرة ماشاء لها أن تحكي عن أمر جلل أو أمر تافه، لكنها في غالبيتها تمدنا بزاد غير ممل، ومجموع من الحوادث نستطيع أن نغربلها أو نعيد أنظارنا فيما قيل حولها. وغالباً مايبحث مؤيدو وجهة النظ القائلة بأن محمداً لم يكن يحارب إلا دفاعاً عن نفسه، ولا سيما والقرآن يقول**﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها..﴾**، وينتقون من التاريخ أحداثاً قد تؤيد وجهة نظرهم، ويبحثون عن مبرر فردي لكل غزوة، وسبب كل غارة، فهذه السرية إنتقامية، وتلك لنقض عهد، وهذه لفض حلف، دون أن يعملوا النظر في ديمومة هذه الحرب من أول سرية حتى آخر سرية، ودون أن يبحثوا عن ذلك الخيط الذي يجمع كل هذه المعارك الصغيرة والكبيرة في سلسلة واحدة.

نعم يقول القرآن **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها..﴾** وقال **﴿لاإكراه في الدين﴾** البقرة، لكنه قال أيضاً **﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾** وقال **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾** التوبة ١٤، وقال **﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولا يحرمون**

ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ التوبة٩٢، حقاً قال القرآن ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾ الممتحنة، وقال ﴿إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ النحل.. لكنه أيضاً قال ﴿فقاتلوهم أو يسلمون﴾ الفتح ١٦، وقال ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ الأنفال.

فالرسول يتحرك (بإستراتيجية) كانت قد تكونت عبر سنوات طويلة من الجدل والكفاح والمناورة والحرب، وفي تحركه هذا، لابد من تكتيكه ووسائله أن تتناسب وأهدافه الكبرى، فإن كانت اللحظة تحتم المصالحة ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾، وإن كانت اللحظة تحتم الإنقضاض ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ وهي تعني بأن شروط السلم أن يكونوا هم المنتصرين، وما عدا ذلك فتقطيع الرقاب والإثخان في الأرض مطلوب وضروري.

وكأن فتح مكة يحتاج مبرراً، قالوا إن قريشاً هي التي نقضت حلفها بوضع الحرب، وأوردوا سبباً تافهاً، وهو أن بني بكر حلفاء قريش قد وتبوا ليلاً على خزاعة بماء يقال له الوتير قريب من مكة وذلك طلباً لثأر قديم من خزاعة، وقيل إن قريشاً عاونتهم في القتال الذي اندلع حتى وصل الحرم نفسه، فأمر النبي الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يعمي على قريش حتى يبغتهم في بلادهم[1] لنصرة من في عهده من خزاعة.

---

(١) سيرة إبن كثير ج٢ ص٥٢٧.

وبقراءتنا السابقة، نقول بأن فتح مكة لم يكن سوى الخطوة التالية لمحمد، وبالطبع لم يكن لينتظر عشر سنوات أخرى ليحتل مكة (سنوات صلح الحديبية)، ولم يكن لينتظر مبرراً ليباغت مكة بجيشه الضخم الذي قيل إنه وصل عشرة آلاف رجل، لايمكن جمعهم بهذه السرعة وبشكل سري، إلا والأمر لابد مدبر مسبقاً، للدرجة التي يمكن أن يكون هناك احتمال بإثارة حمية الثأر لدى بكر بشكل مامن الأشكال، أو حتى بمهاجمة بعض خزاعة ليلاً، فلايعرفون من أين أتى الهجوم ولابد أن نظرهم سيتجه مباشرة لبني بكر أعدائهم التقليديين وخاصة وأن محمداً في حلف معهم، وربما أتاحت تلك المصادفة الفرصة له ليأخذها مبرراً لاحتلال مكة. فالفتح لم يكن عملية إنتقامية لبعض القتلى الوثنيين من خزاعة في وقعة تأر تافهة لاقيمة لها في جو الجزيرة العربية ولم تكن تحتاج كل هذا الجيش وقبل كل شيء فإن خزاعة لم تكن كلها قد دخلت الإسلام ليتبنى محمد الدفاع عن مسلمها ومشركها وأيا كانت الأحلاف والمعاهدات فالأمر كان أكبر من تلك الواقعة التافهة بين بني بكر وخزاعة، وكان أكبر من معاهدة اتفق محمد عليها لاليتبعها عشر سنوات ولكن إتبعها لينقضها، وهي المعاهدة التي لم تعترف بسلطته أي بنبوته ولا بإلهه أي بدينه، رغم أنها كانت شكلاً من أشكال الرضوخ لمتطلبات الأمور، تم إن فتح مكة يأتي تتويجاً لكل ماسبق من صراع، وإجباراً لقريش للإعتراف بسلطته وسيادته وسيادة إلهه الواحد على كل آلهة الكعبة والقبائل.

فكانت الوقعة إذن، مبرراً وقتياً حدث بالصدفة، أو خُلق خلقاً، وفي الحالتين كان يمكن خلق مئات المبررات أو حدوثها تلقائياً، فأمر الفتح كان قد حُسم وكان قد جُهِّز له منذ مدة وحانت ساعة التنفيذ الآن.

رُوي أن أباسفيان ذهب إلى يثرب وقد توقع شراً بعد واقعة

بني بكر مع خزاعة، أو ربما أُخبر بتجهيز محمد للقتال، وقال لمحمد: يامحمد إشدد العقد وزدنا في المدة، فقال الرسول: ولذلك قدمت؟! هل كان من حدث قبلكم؟! فقال معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لانغير ولانبدل ثم أن محمداً يكتم سر فتح مكة حتى عن أزواجه وهو يقول بعد إعلام الناس (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها).[1]

وقيل أن النبي خرج في رمضان وأفطر ولم يصم حتى انصرم الشهر، وقيل إنه نزل (مرّ الظهران) وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر النبي ولايدرون ماهو فاعل وقد خرجوا يتجسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به، وبعث محمد بين يديه عيوناً يقتصون وخزاعة لا تدع أحداً يمضي وراءها ، فلما جاء أبو سفيان وأصحابه أخذتهم خيل المسلمين وقام عمر يجأ في عنقه، فأجاره العباس بن عبد المطلب وأخذه للنبي،[2] حتى أعلن إسلامه، فقال النبي (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل دار حكيم ابن حزام فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن).

عندما خرج أبو سفيان وأصحابه يلتقطون الأخبار، رأى النيران فقال. مارأيت كالليلة نيراناً قط ولاعسكراً، فقال بديل بن ورقاء: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فكيف تحرك محمد بجيش كبير كهذا الجيش دون علم قريش، ، ثم يفاجئهم في آخر لحظة بخيله ورجاله؟! وهل عرفت قريش، لكنها

---

(١) عن إبن إسحق انظر سيرة إبن كثير ج٣ ص٥٣٥

(٢) عن الزهري وموسى بن عقبة نفس المرجع السابق، ص٥٤٧.

لم تجد الوقت الكافي لمواجهته ولالحشد القبائل؟! أم أنها قد شلت تماماً ولم تستطع أن تمتلك ردا عسكرياً حاسماً، وقد عرفت أنها لاقبل لها بجيش محمد؟ فأرسلت أباسفيان لمحمد على أن يسلموه مكة دون قتال على أن يعفو عنهم ويقيهم شر القتل والأسر؟! وربما خرجت تلك الكتيبة القرشية دون علمها بهذا الاتفاق أو ضده وأثارتها النخوة والعصبية؟!. أسئلة كثيرة لانستطيع الاجابة عليها، لكننا نستطيع القول بأن محمداً لوكان قد نجح في إخفاء أمر تحرك جيش كان هذا حجمه، فإنها مهارة عسكرية فائقة يحسد عليها ولاسيما وأن قبائل عدة وخليطاً من الناس قد خرجوا مما قد يثير الفوضى وعدم الإنسجام ويثير لاشك الإنتباه فتلتقطه العيون. فهل وزع محمد هذه الآلاف في قوافل وسرايا صغيرة تحركت من طرق وعرة غير مأهولة وكلها تنتهي قريباً في مكة في مرّ الظهران؟!.

وعندما مرت القبائل الموالية لمحمد، كل برايتها، وكان معه عمه العباس وقد أعلن إسلامه قبل الفتح بقليل، فسأله عن كل قوم حتى جاء دور الأنصار والمهاجرين، فسأله من هؤلاء ياعباس؟!. قال. هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. قال: مالأحد بهؤلاء من قبل ولاطاقة، والله ياأبا الفضل لقد أصبح ملك إبن أخيك الغداة عظيماً. قال: قلت ياأباسفيان إنها النبوة. قال فنعم إذن!! قال: قلت النجاء إلى قومك[1] الآن قد حق لمحمد أن يفرح بملكه!!

عندما دخل محمد مكة، قال سعد بن عبادة الخزرجي لأبي سفيان ـ وهو يعبر عن عقد قديمة دفينة بين يثرب وقريش ـ اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة.

فطمأنه النبي قائلاً. كذب سعد، بل هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة يوم

---

(١) نفسه. ج٣ ص٥٥٠.

تكسى فيه الكعبة وأمر أحد المهاجرين فأخذ الراية من إبن عبادة بعد أن قال: ((مانأمن من أن يكون له في قريش صولة)).
عن إبن عباس أن النبي قال (إن الله حرم هذا البلد (مكة) يوم خلق السماوات والأرض، وإنه لايحل لأحد من قبلي وإنما هي لي ساعة من نهار ثم عاد كما كان.)

وأصدر محمد قراراته الجديدة قائلا في خطابه العام بعد الفتح (. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج فإنني أمضيتهما لأهلهما على ماكانت، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب).

وأعطى الحجابة مع السقاية (لعتمان بن طلحة). وقام فحطم الأصنام

تم أرسل إلى القبائل سرايا تدعو إلى الإسلام، فها هو خالد ابن الوليد يذهب إلى بني جذيمة من كنانة، وأراد أحدهم القتال فردوا عليه قائلين: ياجحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟! إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس، ونزعوا سلاحه، وقيل إن خالد بن الوليد أمر بتكتيفهم ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فقال النبي: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالف. وأعطاهم دية كبيرة لتهدئتهم.

وأرسل النبي خالد بن الوليد، فهدم العزى وكانت بيتاً بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر، فخرب البيت وأخذ ما كان فيه من الأموال.
وخرج بنفسه على رأس جيش كبير ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من جيشه الذي فتح به مكة، وقيل إنهم كانوا أربعة

عشــر ألفاً لأن جيش الفتــح كان إثنتي عشــر ألفــاً.[1] واستخلف على مكة «عتاب بن أمية»، وذلك لغزو بني هوازن في حنين. وخــرج مالــك ابن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق المسلمين إليها، فأعــدوا وتهيئوا في مضايق الوادي وأخفائه، ولم يدرك النبي الفخ حتى ثــارت الخيول في وجوههم فشدت عليهم وانكفــأ الناس منهــزمين لايقبل أحــد على أحد. وقال أبو سفيان متشفياً: لاتنتهي هزيمتهم دون البحــر، وصرخ كلدة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان بن أمية أخوه لأمه: فوالله لأن يملكني رجل من قريش أحب إلي من أن يملكني رجل من هوازن. وقال النبي يومئذ: من قتل كافراً فله سلبه وصمد وأتباعه من الصحــابة وأقــاربه وهــو يحمسهم، ثم تــراجعــوا ليعيــدوا تنظيم صفــوفهم وراياتهم، وانقضــوا يهاجمــون من جديــد، وتغيــر مصيــر المعركة فــأخذوا يقتلــون ويأســرون، وفر مــالك بن عــوف حتى دخل حصن الطائف هو وأناس من أشراف قومه

وأمر الرسول بالغنــائم فجمعت الإبل والغنم والرقيق، وسيقت إلى «الجعرانة» فحُبست هناك وقيل إنها ملأت الخيام والبيوت بمكــة حتى انتهى محمد من حصار الطائف

وفرت فرقة من هوازن إلى أوطاس فلاحقهم الرسول بسرية من أصحابه عليهم أبو عامــر الأشعري، وقيــل إن دريد بن الصمــة قتله رفيعة السلمي (إبن الدغنة) وهو راحل إليها، وقتلوهم وسبوهم، وكان المسلمون يخشون أن يطــأوا نساءهم وأزواجهم أحيــاء فقال القــرآن ﴿ .والمحصنــات من النساء إلا مــاملكت أيمانكم..﴾ فــاستحلــوا بالآية فروجهن.

واتجه محمد بنفسه إلى الطائف وكان محاربــوا ثقيف وهوازن

---

(١) انظر سيرة ومغازي إبن إسحق، وسيرة إبن كثير ص٦١٥ ج٣

قد دخلوها وأغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال. ونزل محمد قريباً من الطائف فقتل ناس من أصحابه بالنبل، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة وقال إبن هشام. سبع عشرة ليلة،[1] وأمر النبي فقطع الأعناب فقالت لهم ثقيف: لاتفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم. وكان قد أمر كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس كرمات وبعث منادياً ينادي: من خرج إلينا فهو حر، فخرج إليه عبدان فأعتقهما (حكي أن وفد الطائف لما جاء ليعلن إسلامه سأل محمداً أن يرد عليهم رقيقهم الذين أتوه، فقال: لا ولكن ولاءهم لكم)، وقيل إن النبي نصب لهم المنجنيق ورماهم به، وذكر إبن إسحق أن نفراً من الصحابة دخلوا تحت دبابة (ناقبة حصون) ثم زحفوا ليحرقوا جدار أهل الطائف، وأرسلت عليه سكك الحديد محماة، فخرجوا من تحتها ورمتهم ثقيف بالنبل. وتقدم أبو سفيان والمغيرة فناديا ثقيفاً بالأمان حتى يكلموهم فأمنوهم، فدعوا نساء من قريش وبني كنانة ليخرجن إليهم، وهما يخافان عليهن من السبي إذا فتح الحصن، فأبين. وكان من جيش المسلمين عيينة بن حصن زعيم غطفان عندما أذن محمد برحيل الجيش فقال مادحاً ثقيفاً. والله مجده كراما، فقال له رجل أتمدح المشركين وقد جئت تنصر محمداً؟! فقال: وإني والله ماجئت لأقاتل ثقيفاً معكم ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها لعلها تلد لي رجلاً فإن ثقيفاً ذوو دهاء.

وإستشار النبي نوفل بن معاوية. يانوفل ماترى في المقام عليهم؟ قال: يارسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك.. فترك الحصن، لكن موازين القوى كانت قد جعلتهم

---

(١) أنظر سيرة إبن هشام باب غزوة الطائف

يأتون في العام التالي مسلمين، فهم لايمكن أن يستغنوا عن مكة ولـو بشكلها الجديـد. وعندمـا عاد الـرسول إلى مكـة قسم الغنائم وقـال الواقدي: أصاب كل رجـل أربعاً من الإبـل وأربعين شاة.(١) ولم يعط الأنصار شيئاً رغم اشتراكهم في الحرب وكما ذكر سابقاً

سأل النبي عن مالك بن عوف زعيم هوازن قالوا: سر بـالطائف مع تقيف. فقال: أخبروه إنه إن أتـاني مسلماً رددت إليـه أهله ومـاله وأعطيته مائـة من الإبل. فجـاء من فوره وأعلن إسـلامه، وإستعملـه النبي على من أسلم من قومه وقبائل ثمالة وسلمة وفَهْم، بل بدأ يقاتل تقيفاً التي أمنته ولايخرج لهم سرح إلا أغـار عليه حتى ضيق عليهم، فلماذا لايأتون مسلمين في العام التـالي؟!. حقاً لقـد فشل محمـد أن يفك حصارهم لكنه نجح في أن يفـرق بينهم ويضرب بعضهم ببعض، حتى كان له ماأراد

وبدأت سرايـا محمد بعـد الفتح تجـوب جزيـرة العرب، فبعث عمـرو بن العاص إلى جيفـر وعمرو ابن الجلنـدي من الأزد وأخـذت الجزية من مجوس بلدهما ومن حولهما من الأعراب وهدم إبن العاص سواعاً الذي كانت تعبده هذيل برهاط ولم يجد في خزانته شيئاً

واتجهت السرايا إلي اليمن، فهـذه سريـة من مائـة وخمسين فـارساً تتجـه إلى ذي الخلصة وهـو بيت لخثعم، وبجيلة، فيـه نصب تعبد يقال لها الكعبة اليمانية، فأتاها جرير برجاله وحـرقها في النـار وكسرها. ففي مواجهة كعبة الحجاز كـانت محاولات اليمن للسيطـرة على بلاد العرب قديمة سواء بواسطـة سكانهـا أنفسهم أو بواسطـة الغزاة الأجانب من الأحباش أو الفرس، ولعـل محاولات أبـرهة فيمـا عرف بعام الفيل بهدم الكعبة الوثنيـة وإنشاء كنيسـة ضخمة (كعبـة

---

(١) عن الواقدي، أنظر سيرة إبن كثير ج٣ ص٦٧١

أخرى) في اليمن ليحج إليها الناس من سائر البلاد، كانت تدخل في نفس الإطار، لكنها رغم ذلك لم تطلع بذلك الدور الديني والتجاري لأن الحياة الإقتصادية فيها كانت تعتمد أساساً على الإستقـرار الزراعي ، ثم إن السيطرة اليهودية حيناً والمسيحية حيناً آخـر والصراع بين الفـرس والروم على اليمن بـاعتبـارهـا تقـع على الممـرات المـائيـة التجارية الموصلة إلى أفريقيا وبـلاد الهند، بـالإضافـة إلى موقعهـا الجغـرافي في أقصى جنوب شبـة الجزيـرة، فجعلها كـل هذا ليست مركزاً للحياة التجارية والدينية، بل إنقـادت هي إلى مكة التي قـامت بهذا الدور باعتبارها كانت في مركز الجزيرة العربية وأسهلهـا طرقـاً وأقدمها كعبة وأكثرها إستقراراً.

ولذا عندما آل الأمر إلى محمد في مكة، فلم لايكـون لها أيضـاً نبي مثل بلاد الحجاز؟! تقسم الأرض بينهما فكتب مسيلمة بن حبيب من بني حنيفـة إلى النبي قائـلاً: من مسيلمة رسـول الله إلى محمـد رسول الله، سلام عليك، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشاً قوم يعتدون. فـرد عليه النبي قائلاً (من محمد رسـول الله إلى مسيلمـة الكذاب. سـلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فـإن الأرض لله يـورثها من يشـاء من عباده والعاقبة للمتقين..).(١)

وهكذا كان التمرد قائماً على السلطة في مكة وازداد عنفوانـه بسيطرة محمد على مقـاليد الأمـور، لكن الموت لم يمهلـه لينتهي من أقوى حركة سياسية ودينية مضادة، وعادة مايضعها المؤرخـون في حركات الردة أيام أبي بكـر ولكن سيادة مسيلمـة في اليمامـة وبلاد اليمن كانت قد تنامت أيام النبي نفسـه، ولم تكن السلطة الإسـلامية

---

(١) انظر صحيح البخاري وسيرة إبن كثير باب الوفود

الجديدة قد سيطرت على كل بلاد العـرب، ولم يكن الدين الإسـلامي قد تمكن بعد من قلوب قبائلها ونفوسـهم، ولم يحسم أمرها إلا بعد أن تطاحنت الجيوش تطـاحناً رهيبـاً في موقعـة اليمامـة الشهيرة والتي أودت بحياة معظم حفظة القرآن، وكانت سبباً من أسباب جمعـه أيام أبي بكر، ومن كثرة القتلى من الجـانبين أطلق عليها حـديقة المـوت. ويشير الى وضع العرب هذا د طـه حسين قائـلاً (.. فالصـراع إذن بين الحياة الجاهلية والحياة الإسلامية قد انقضى وانقطع في عصر معاوية، بل سأقول شيئاً ربما تنكرونه وهو أنـه لاأدري هل تم حقيقـة إنتصار الإسلام في جميع بلاد العـرب على الحياة الجـاهلية؟ وهـل استطاع الإسلام أن يحول عقلية العرب في شبه الجزيرة إلى عقليـة إسلامية خـالصة؟! وهـذا شيء أشك فيـه، وأعتقد أن الإسـلام غير كثيراً من الأشياء في جزيرة العـرب ولكنه كـذلك لم يصـل إلى قلوب الكثرة من قلوب العرب ويدلنا على ذلك قوله تعـالى ﴿**الأعراب أشـد كفراً ونفاقاً**﴾ فإن هذه الآية لم تصدق على الأعراب الذين عاصـروا النبي فقط، بـل على الـذين استمـروا أيـام الـراشـدين والأمـويين والعباسيين).(١)

ونعود مرة ثانية لنقول بأن حركة الفتوحات لم تبدأ أيام الخلفاء الـراشدين، بـل إن محمداً نفســه كان قـد وضع لبنتهـا بغزوة مؤتـة وبـرسائلـه للملوك والقيـاصرة، ثم بـأكبر غـزوة في تاريـخ السلطـة الإسلامية الجديدة وهي غزوة تبوك وقام بأكبر تعبئة في حياته وقـد ازدادت امكانياته كثيراً عن قطع طريق أو غارة أو سريـة أو حتى عن إمكانيات فتح مكة، وإنمـا تجاوز تلـك الصراعـات الأولية إلى شكـل صراع (دولة) لدولة. حقا لم تكن الدولة الإسلامية قد انتهت ملامحها

---

(١) طه حسين، تاريخ الأدب العربي ج٢ ص٩، ١٠

بعد. لكن السلطة السياسية كانت قد آلت إلى محمد بتعبيرها (الأيديولوجي) وهو الإسلام، ونواة جيش كانت قد وضعت عبر محاربين ذوي تجارب طويلة، أصبحوا متخصصين في قيادة الألوية والسرايا ويخرجون في كل معركة ويجهزون لكل حرب، وتشريعات إقتصادية إزداد وصوحها واحتوتها مؤسسات ذات طابع قانوني أو حبائي بعد الفتوحات الكبرى

نعم، لم تكن المؤسسات الإسلامية واضحة كل الوضوح كما في مؤسسات الدولة ذات التاريخ الطويل ولكنها اختلطت واندمجت ثم تطورت وانفصلت فيما بعد لتأخذ شكلها الأنقى بعد معاشرتها لحضارات جديدة عليها، وشعوب مختلفة فاستوعبت التغيرات، واستوعبتها تلك التغيرات.

وضعت غزوة تبوك وبشكل كبير نظام الجزية في الميزان العملي، فبجيش قوامه ثلاثون ألفاً (أنظر تنامي حجم الجيش المحمدي تدريجياً وبشكل متسلسل من سرية بعشرة مثلا إلى ثلاثين ألفاً) إستطاع أن ينتزع من أهل «أيلة وجرباء وأذرح» الجزية وكانوا نصارى، وتعاهد معهم على أن لهم أمنة منه ومن جيشه في البر والبحر (سفنهم وسيارتهم) ولهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لايحول حاله دون نفسه، وإنما طيب لمن أخذه من الناس وأنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر... وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ومائة أوقية طيبة وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم منهم..).[1]

---

(١) أنظر سيرة إبن كثير ج ٤ ص٢٩ ـ ٣٠، وسيرة إبن هشام وإبن إسحق عن غزوة تبوك

وأرسل إبن الوليد إلي أكيدر دومة من بني كندة وكانوا نصارى وصالحه على الجزية وهم عائدون من تبوك. لم يكن محمد لينتظر حتى يعود، لم لا يكسب الوقت والأموال والأتباع ويفرض سلطانه على من لم يعترف به بعد؟! واتسعت المعاهدات وتغيرت لهجتها وحدّتها باتساع رقعتها، وتغيرت شروطها بانتصار المسلمين على أصحاب البلاد الأصلية في الشام أو في مصر أو مي العراق وفارس.

ويشير د. علي عبد الرازق إلى طبيعة الدولة الجديدة قائلاً (كانت دولة عربية قامت على أساس دعوة دينية وكان شعارها حماية تلك الدعوة والقيام عيها. أجل، ولعلها كانت في الواقع ذات أثر كبير في أمر تلك الدعوة، وكان لها عمل غير منكور في تحول الإسلام وتطوره، ولكنها على ذلك لا تخرج عن أن تكون دولة عربية أيدت سلطان العرب، وروجت مصالح العرب ومكنت لهم في أقطار الأرض، فاستعمروها استعماراً، وإستغلوا خيرها إستغلالاً، شأن الأمم القوية التي تتمكن من الفتح والإستعمار).(١)

ونعود فنقول أن المجهودات المحمدية توجت بعد فتح مكة وغزواته شرقاً وغرباً وجنوباً، بالوفود من كل بلاد العرب يأتون ليثرب ليعلنوا ولاءهم للنظام الجديد وليحصلوا على مايريدون من عهود ومواثيق. وعادت مكة من جديد العاصمة الدينية لبلاد العرب ولكن تحت ظل العاصمة السياسية يثرب وفي ظل راية إله واحد، وحلت لغة الوطنية مكان القبلية، والقومية مكان العصبية، ولكن هل تخلص تماماً من تلك الروح القبلية وتلك العصبية العربية في مواجهة العالم الخارجي؟!

---

(١) أنظر كتاب علي عبدالرازق. الإسلام وأصول الحكم ص١٧٥.

لا نعتقد أن أمراً كهذا تحسمه سنوات قليلة، بقدر ما تحسمه قرون من التطورات والتلاحقات وتغيرات الأفكار ولكن العصبية العربية حملت طابعاً وطنياً، والروح الوطنية صبغت بالصبغة القبلية.

كيف؟!

لنجيب على ذلك، فلنقرأ الفصل القادم.

(٧)
إشــارة حــول الدولــة الإسلاميـة

بانتصـار محمد وفتح مكة، تراجع الاتجاه القبلي خطوة للخلف، لكنه كان يتحفـز للإنقضــاض (وكانت فتــرة ترقب لـزعماء هــذا الإتجاه حيث سقطت رموزهم فقط، أبوسفيان، أبوجهـل، عتبة بن ربيعـة، في الوقت الذي أتيح للجيل الثاني منهم الدخول مبكراً إلى قلب الأحداث وشغل أدوار هامة على المستوى العسكري «يزيد بن أبي سفيان» أو الإداري «معاوية»).[١] وخـاصـة بعـد تولي البيت الأمـوي ممثلا في عثمان بن عفان أمر الخلافة

لكن جـذور هذا الـوضع كـانت قد وضحت في حيـاة الرســول نفسـه، وذلك بإعادة الإعتبـار للبيت الأموي أثنـاء فتح مكـة وإن كان بشكل رمزي، إلا أن ذلـك كان يعني أن هؤلاء الـذين حاربـوا محمداً وقادوا الصراع ضدهَ حتى آخر لحظة، سقط تاريخهم العـدائي وحان لهم أن يندمجوا في الدولة الجديدة بإمكانياتهم الإقتصـادية القـديمة والتي لم تمس، والتاريخية الغـارقة في جـذور السيطرة على جـزيرة العرب.

بل إن ذلك الإتجاه نفسه كـان قد انــزرع في القيادة ليس على مستــوى القرار الأعلى ولكن على مستــوى القرارات التحتيـة والتي

---

(١) إبراهيم بيضون. تكون الإتجاهات السياسية في الإسلام الأول ص٣٢٨

تمخضت فيما بعد عن السيطرة على الخلافة نفسها، وقد ذكر أبو حيان التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة» أسماء بعضها من بني أمية وبعضها من أسر أرستقراطية قرشية أخرى وهو بذلك يلمح إلى اعتماد كامل في إدارة الدولة الإسلامية الجديدة، على الأكابر دون غيرهم معتبراً ذلك تمهيداً أفاد الأمويين للاستيلاء كممثلين للارستقراطية العربية على الخلافة.(١) ويقول بأنه لاخلاف بين الرواة وأصحاب التواريخ أن النبي توفي و«عتاب بن أسيد» على مكة، وخالد بن سعيد على صنعاء، وأبو سفيان بن حرب على نجران، وأبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وسعيد بن القشب الأزدي حليف بني أمية على جرش ونحوها، والمهاجر بن أمية المخزومي على كندة، والصرف وعمرو بن العاص على عمان، وعثمان بن أبي العاص على الطائف، فإن كان النبي أسس هذا الأساس وأظهر أمرهم لجميع الناس، فكيف لايقوى ظنهم ولاينبسط رجاؤهم ولا يمتد في الولاية أملهم؟!.(٢)

ولعل كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، ليعبر أصدق تعبير عن ذلك وهو يقول (إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم، فأكرم قبلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف العدل أن ينصف في الحكم وفي القِسم.) (٣)

بل إن سيادة العصبية القرشية هو الذي أبعد الأنصار عن كل موقع أساسي لاصدار القرار وقد توج ذلك بالصراع على السلطة،

---

(١) أنظر هادي العلوي نصوص منسية من التراث مجلة دراسات عربية ص ٦٧ مايو ١٩٨٦، عن ابي حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤاسة.
(٢) نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٣) أنظر تاريخ الطبري. ج٣/٢٧٢

الذي احتدم في سقيفة بني ساعدة، وكما يقول د. بيضون (فقد أثبت المهاجرون أنهم القوة المعنوية والمادية المتفوقة في الدولة الصاعدة دون إغفال ماكان لموقعهم «التجاري القديم» وارتبط بالنفوذ والزعامة في الحجاز فضلاً عن موقعهم الإسلامي الريادي من تأثير على المعادلة المستجدة والقدرة على إمساكها بإحكام شديد.. وكان من الطبيعي أن يتعاطف الأنصار مع الإتجاه غير المنتصر في السقيفة الذي تزعمه علي بن أبي طالب بصورة طبيعية، فهو على الرغم من انتمائه لمجموعة المهاجرين التي حسمت قرشية الخلافة، فقد بدا واضحاً أن ثمة إتجاه يقوده علي ويلتزم بالدفاع عنه وهو الإتجاه الإسلامي الذي كان من أبرز تطلعاته إستمرار الصيغة - النموذج التي حققها النبي في المدينة والمحافظة على موروثها السياسي والإجتماعي.... وبسقوط الإتجاه الوسطي كسب معركة الخلافة في السقيفة، بإعادة الإتجاه القبلي «المهزوم» وتكوين نفسه مجدداً وبروزه قوياً في أعقاب اغتيال عمر بن الخطاب واختيار خليفة له، مما أدى إلى ذلك الفرز السياسي الواضح الذي كان عمر والاتجاه الوسطي من ضحاياه الكبار. وإذا إنتقلنا (بعد ذلك) إلى الفتوح الإسلامية الأموية سنجد أمامنا - على الرغم من الانبهار ببعض منجزاتها (الأندلس على سبيل المثال) - أعمالاً توسعية أكثر ما تتوخى السيطرة والفخامة وشتى المظاهر الإمبراطورية وكل مارافق هذا الامتداد الأفقي للفتوحات الأموية المصحوبة بضمور الدور الإسلامي إلى حد كبير.).[1]

وهنا ينفجر سؤال قديم جديد. كيف استطاع العرب وهم أقل حضارة وتقدماً أن يغزوا ويحتلوا أجزاء ضخمة من أكبر

---

(١) انظر إبراهيم بيضون، تكوُّن الإتجاهات السياسية ص٣٢٧

إمبـراطوريتين في ذلـك العصر، ولهمـا تاريـخ حضاري كبيـر وأكثر إمكانيات من جميع النواحي العسكرية والإقتصادية والتقافية؟!

فنقرأ تفسيرات أحادية الجانب غالباً، فالتفسير الديني يسـرع في وضع العقيدة الإسلامية القـائمة على مبـدأ الجهاد والـرغبة في المـوت عن الحياة، مهمـلاً العوامـل الأخرى والتي قـد تكـون أكثـر أهمية، ويستتبع تلك الإجابة سؤال عن تلك الأمبراطورية التي قادهـا التتـار وهم يجتاحـون العالم شـرقاً وغـرباً من الصين وحتى مصـر، فيدمروا ويحرقوا في طـريقهم تراث الشعـوب الثقافي والحضـاري؟ فأي عقيدة تلك التي حركت الجحافل التترية لاجتياح العالم القديم؟!

ثم إن العقيدة الإسلامية كانت حـديثة النشـأة وكانت تحتـاج الوقت الطويل لتتمكن من نفوس العرب أولئك الذين قال عنهم القـرآن أنهم أسلموا ولم يؤمنوا، بـل إن الأعراب في شبـه الجزيـرة إتخذوا موقفاً سلبياً من حركة الفتوح في أيامها الأولى. بـالإضافـة الى ذلك، فإن اتساع حركة الفتوح قد تم على أيدي بني أميـة والذين إتخـذوا من الإسلام مظاهره وإسمه أكثر من تمكنه من قلوبهم وسلوك قادتهم قبل الإسلام وبعده ليدل على ذلك أصدق دليل، ولعل قـول طه حسين (.هم لم يظهـروا على العالم إلا بـالإسـلام، فهم محتـاجـون إلى أن يعتزوا بهذا الإسلام ويرضوه ويجدوا في اتصـالهم به مـايضمن لـهم هـذا الظهور وهـذا السلطان الـذي يحرصـون عليه، وهم في الـوقت نفسه أهل عصبية وأصحاب مطامع ومنـافع، فهم مضطـرون إلى أن يـراعوا هـذه العصبية ويـلائمـوا بينهـا وبين منـافعهم ومطـامعهم ودينهم)،[١] لعل هذا القول يؤكد مـاذهبنا إليـه. وهنا يهمـل أصحاب التفسير الديني العناصر الأخرى والتي يمكن أن يكون لها دور حاسم

---

(١) طه حسين. في الأدب الجاهلي ص١١٨

في ذلك الانسجام والتماسك الذي شمل الجيش الإسلامي رغم ماينخر تحت السطح من خلافات قديمة وجديدة، ذلك التماسك الذي أعطاه الأصل العربي لذلك الجيش الأول والذي وقفت على عاتقه حركة الفتوح، فالعربي خرج في مواجهة العالم الخارجي وهو لايحمل إلا انتماء لجزيرة العرب وفكراً حديث النشأة، وفي مواجهة الإختلاف والتناقض خارج عالمه كان يعود إلى أصوله فيتوحد بها، ويرى فيها القوة والمنعة والأصل، ولعل السيادة العربية إستمرت فترة طويلة شملت أغلب الفتوحات الإسلامية، قبل أن تدخل عناصر أخرى أجنبية في قيادة عملية الغزو والتوسع سواء من فارس أو غرب أفريقيا، لكن دورها رغم ذلك في اتخاذ القرار كان هامشياً. ثم إن طاعة العربي لسادة قبياته فقط عوّدته عندما انتقل من الحالة القبلية للحالة القومية على الطاعة للسادة الجدد وهم يحملون تراثهم ودينهم الجديد على أكتافهم.

ويرى البعض (أن العامل الإقتصادي كان المحرك الأقوى لدوافع الفتوحات عند العرب المسلمين وقد بلغ الأمر ببعضهم إلى أعتبار هذه الأخيرة وكأنها إحدى الهجرات السامية المتأخرة التي أعتادت على قذفها شبه الجزيرة الجدباء.... فالخطبة المنسوبة إلى خالد بن الوليد أمام جنوده قبيل إحدى المعارك ضد الفرس في العراق (ولو لم يكن إلاّ المعاش لكان الرأي أن نقارع هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثّاقل عما أنتم فيه).(١) ويقول جولدتسير (لم يكن هذا الفتح موجهاً نحو المثل الأعلى وحده لأن كنوز المدائن ودمشق والإسكندرية لم تسمح طبيعتها بإيجاد ميول للزهد والتقشف).(٢)

---

(١) أنظر إبراهيم بيضون نفس المرجع ص٣٦ ومابعدها

(2) Goldziher : Le dogme et la loi de LISLAM P123

يقول البلاذري في فتوح البلدان واعياً بهذا العامل الإقتصادي ـ وعياً دقيقاً أم لا ـ بأن أبابكر قد دعا للجهاد (أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم... فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل صوب..)[1]

ورغم أهمية العامل الإقتصادي والعامل الديني ، إلا أن هناك عاملاً لايقل أهمية عنهما وخاصة في منظوره التاريخي حول نواة ذلك الجيش التي تكونت عبر المعارك المتواصلة التي لم تهدأ منذ بدأ محمد صراعه حتى وفاته كان القتال قد صنع هذه النواة وجذر الصراع حولها، فانخلقت روح من التماسك والانسجام التاريخي والذي لم يأت بقرار، وإنما أتى من خلال كفاح دموي مرير. فالجيش الكبير الذي خرج للفتوحات كان معظم قادته صغاراً وكباراً قد دخلوا مئات المعارك الصغيرة والكبيرة، وعُمِّدوا بالدم والجروح وهم ينتزعون شرعيتهم وسلطتهم بدءاً بالهجرة وانتهاءً بفتح مكة، وانطلق هذا الجيش وقد امتدت يداه إلى اليمن وأطراف الشام والعراق، فأحرز الإنتصار تلو الإنتصار، وزرعت تلك الإنتصارات داخله الثقة بقدرته، فدعمت تماسكه وعجنت ذلك الخليط القبلي بوحدة واحدة، فاختلطت العصبية القبلية بالعصبية القومية العربية، بالدين. وأتاح هذا التماسك لقوة أقل تقدما لأن تسحق قوى أكثر تقدماً، لكنها (الأخيرة) كانت قد تفككت بفعل صراعاتها الداخلية، فالصراع الدائم بين الروم والفرس، والصراع على السلطة داخل كل إمبراطورية على حدة، والصراع الشعبي مع السلطة داخل الإمبراطوريتين، فأرخى هذا قبضتيهما ـ بشكل ما ـ عن شعوب

---

(١) انظر البلاذري. فتوح البلدان. تحقيق محمد رضوان

البلدان الرازحة تحت احتلالهما، وضاعف من هذا إحساس الإمبراطوريتين بالأمن في مواجهة عالم ضعيف حولهما، فأتاح ذلك لتلك القوة الأقل إمكانيات وأقل تحضراً ولكنها أكثر تماسكاً وطاعة وانسجاماً وأكثر اندفاعاً أيضاً بحكم العوامل الأكثر سخونة سواء اقتصادية أو دينية والتي هدأت بمرور الزمن، فانهار ذلك التماسك بعد قرون وتفككت تلك القوة وسقطت تحت أقدام الغزاة من كل حدب وصوب. نقول أتاح ذلك لها أن تقتلع النمر البيزنطي العجوز، وتخنق دولة الفرس الغارقة في مشاكلها.

ومن عوامل ذلك التماسك، وضوح الهدف ودقته أثناء الغزو فذلك العربي الذي اعتاد قتال الآخرين وكان وهو يعتدي يفخر بإعتداءاته، وكان وهو يغزو الآخرين يعتز بذلك الغزو بدءاً بمستواه القبلي، وانغرست داخله قيم البطولة والتضحية، بل ونستطيع القول بأن (الإعتداء) ـ وإن حمل أسماء أخرى أكثر وجاهة ـ غدا يمثل الهيبة والقوة والإحترام وكان مصدراً للمحافظة على الحياة في مواجهة جدب الصحراء، ولذا لم يكن الأمر غريباً على هذا العربي، وهو يهاجم الآمنين خارج حدوده، فذلك أمر تاريخي قديم انزرع في أعمق أعماقه قانون حفظ النوع. فإن كان الخارج للمعركة خارجاً من أجل دين أو غنيمة فإنهما قد اندمجا واختلطا للدرجة التي لايمكن فصلهما فصلاً ميكانيكياً، لأن العربي كان غازياً للعالم الخارجي وهو لايحمل صفته كعربي فقط، وإنما يحمل راية الإسلام أيضاً. وباسم هذه الراية يكتسب شرعية الأسر والغنم أو الجزية والخراج على أقل تقدير.

ومن أسباب تماسك الجيش الإسلامي الأول هو وزن الهيكل العشائري فيه آنذاك، فهذا الوزن كان يعكس ركود مايسمى بالصراع الطبقي. فالوحدة الأساسية في جزيرة العرب كانت هي العشيرة

والتي كانت تتجمع حول المياه والآبار ومناطق الرعي وكانت غالباً تشترك في هذه المصادر، مما جعل التمايزات الطبقية أقل حدة بشكل عام،[1] ويضاف إلى ذلك تلك العزلة الجغرافية الصحراوية والتي جعلت كل عشيرة أو قبيلة تمثل وحدة إقتصادية مستقلة عن الأخرى فلا ترى الآخرين إلا كغرباء عنها، بينما كانت تلك التمايزات الطبقية في دولتي الفرس والروم قد وصلت إلى حد إثارة الثورات والحروب الأهلية الضارية والتي كانت تنخر في بنية تماسكها نخراً واضحاً، من ثورة أو تمرد، ولعل مقتل الخليفة عثمان بن عفان كان أحد التعبيرات البيِّنة عن ذلك التمايز.

وقد تطور الجيش الإسلامي هذا تدريجياً فبعد أن كان يشمل قادة وأمراء من كل العشائر في شبه الجزيرة، بحكم تطور الصراع، غدا بعد فترة ليست طويلة يخضع لنفس الإعتبارات التي خضعت لها السلطة السياسية، فكما أصبحت الخلافة وراثية في بني أمية

---

(١) يقول أحمد صادق سعد في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج ص٦٠، ٦٧ (..فنعتقد أن جانباً كبيراً من حديثنا يمكن أن ينطبق أيضاً على منطق النمط الآسيوي ومركباته لدى شعوب البراري المنتجعة في الماضي في المناطق التي ليس فيها أنهار . ويمكن أن يقال مع ذلك أن الانتجاع دورية سنوية مثلما لفيضان النيل، ولكن أليست المواسم المناخية في هذه الحالة ـ ظاهرة عامة على الكون كله؟! حقا كون المنتجات الأساسية للشعوب الرعوية عبارة عن منقولات (القطعان) يجعلها أكثر عرضة للمؤثرات السلبية عن المشتركات الفلاحية من بعض النواحي. ولكن ثمة عوامل أخرى كانت تعمل على إبقاء التسوية المشتركة حيث لدى (الرعاة) ومنها إعتبار أراضي المراعي ملكاً للقبيلة كلها وقروض التضامن القبلي بين الأسر والعشائر وقواعد توزيع الغنائم ـ وكانت جزءاً لايتجزأ من وسائل المعاش لديهم، وغيرها من مناهج النشاط المراعية للتقاليد وفوق هذا وذاك فهناك معيشة البدو وهي أدنى مستوى عموماً من معيشة الفلاحين الأمر الذي يفرض حداً عالياً من المشتركية بينهم) يستثنى من ذلك مكة نظراً للدور الخاص تجارياً ودينياً لكن ذلك الحديث يمكن أن ينطبق بشكل عام على أرض الحجاز.

وبعدها الخلافة العباسية كان أقارب الخليفة وقادة الجيش يأخذون مواقعهم في المقدمة. لكن تداخل الشعوب الأخرى بأغلبية سكانية كبيرة، واتساع الدولة أتاح لقادة «بيروقراطيين» غير عرب وغرباء عن قرابة الخليفة أن يتبوأوا مواقعهم. وبحكم توسع بيت المال وموظفيه والحروب المستمرة كانت الإدارة والديوان ينموان بجانب تنامي مهمات ذلك الجيش ومتطلباته ونتائج حروبه، بل وتركت النظم البيزنطية التي كان يعمل بها في بلاد الفتوحات على ماهي عليه، عندما بدت التشريعات العربية غير كافية لحل المشاكل الجديدة، واتسع باب الإجتهاد وانفتح على مصراعيه ليواكب ذلك التطور الفجائي بحكم القفزات العسكرية التي حققها الفتح الإسلامي.

ونعود مرة أخرى لنقول بأن الفصل بين العوامل لابد وأن يخل بموضوعية أي بحث، فالتفسير الديني يغرق في الصوفية، والتفسير الإقتصادي يغرق في أحاديثه فيبدو أعزلاً من قوته ومنطقه.

وهكذا (جرت الفتوح في لحظة خاصة من التاريخ حيث التطورات لاتخضع دائماً لقوانين الزمن، وما يكون بديهياً في عصر ما، قد لايكون كذلك في عصر آخر، فالظروف المتزامنة، بمناخها السياسي العام وعواملها النفسية المختلفة تساهم بدور مؤثر أو مساعد في تحقيق هذا الحدث أو ذاك ومن الطبيعي أن تخلق حركة الفتوح - وهي ظاهرة متميزة في التاريخ - وراءها عاصفة من الجدل نتيجة السرعة المذهلة التي تم فيها للعرب المسلمين تحطيم إمبراطورية عظمى وتحجيم أخرى في نطاق الإمكانات العسكرية المتواضعة المتوفرة لهم في ذلك الحين).(١)

ولتكون الدولة المركزية في شبه الجزيرة العربية واتساعها

---

(١) ابراهيم بيضون، تكون الإتجاهات ص٣٨ - ٩٣

فيمـا بعد لتشمـل البـلاد المحـاورة والبعيـدة، كـان من الضـروري السيطرة على القبائل البدوية والمجموعات المتخلفة حضارياً، وتلـك التي لم تكن تعترف للعالم إلا بحـدودها هي ولاتـرضـخ إلا لقـانونهـا الخـاص، وكان يجمـع كل قبيلـة أو عشيرة مشتـرك إقتصادي ينظم استعلال المياه وعمليـة الرعي وتـوزيع الثـروات أو نواتـج الغارات، (وبالتالي فالقبيلة التي تستولي عليها أخـرى وتخضعها تصبـح دون ملكية وجزءاً من الشروط غير العضـوية لإعـادة الإنتاج لـدى القبيلة الغانمة. تلك الشروط التي يعتبرها هذا المشترك ملكاً له وعليـه تكون العبـودية والقنـانـة في بسـاطـة تطـورات الملكيـة المؤسسـة على القبائلية، وهمـا تغيران بـالضرورة أشكـالها جميعـاً (الملكية). وفي شكل وحدة الإنتـاج المعتمدة على الـذات مثل الصنـاعة اليـدوية أو الزراعة، لايمثل الفتح أو الغـزو الشرط الجـوهري الـذي يكون عليـه حيثما تسود الزراعة مع ملكية الأرض سيـادة دون منازع. وفي هـذا الشكـل لايصبح الفـرد مالكـاً أبداً بـل حائـزاً فقط، فهـو أيضـاً في الأساس العميق ملك وعبد لذلك الذي يجسد وحدة التجمـع..)[1] كما سيتضح هذا بعد ذلك.

وكـانت غارات ذلـك الجيش الإسلامـي الأول غيـر قـادرة على احتلال دائم للأراضي التي تغزوها، عدا بعض النماذج المحدودة في أراضي اليهود في بني قريظة وفدك ووادي القرى، بل إن بعض تلـك البلاد كان أهلها يزرعـون أو ينتجون ثم يـرسلون بخـراج الأرض أو بالجزية المتفق عليها إلى السلطـة الجديـدة مثل خيبـر وبعض بلاد الشام كما ذكرنا من قبل في حياة النبي وقال النبي بعد فتح مكة (إن

---

(١) أنظر الأشكال الإقتصادية قبل الرأسمـالية النسخـة الإنجليزيـة ص٩١ ـ ٩٢ ماركس.

كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو موضوع تحت قدميَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج..).

وكانت المصلحة العامة تنمو في جانب المصلحة الخاصة، فالغارات لم تكن قادرة على إشباع الحاجات الخاصة للمسلمين الأوائل، وفي إتساعها بدأ يتكون فائض كبير كان يستخدم في الأعمال العامة وتجهيز الجيش أو القتال، لتعاد الدورة بشكل أوسع لتزداد الملكية الفردية ومعها يزداد الفائض وتتطور الملكية العامة وهكذا دواليك

ونستطيع أن نعدد المصادر الأساسية للتراكمات والتي كانت تتنامى مع السيطرة الكاملة على كل القبائل العربية فتكون بذلك الحياة الإقتصادية لتلك الدولة الآخذة في التشكل.

فالمصدر الأول كان يعتمد أساساً على الغارات والغزوات وإخضاع القبائل والسيطرة على مخازن الحبوب والأراضي والمراعي والمنازل وقطعان المواشي الكبيرة والصغيرة (فمثلما كانت تؤخذ ثمار الطبيعة عنوة عبر القنص والصيد والإلتقاط (والرعي والزراعة المحدودة) أصبحت تغتنم الخيرات التي أنتجها المهزوم والخاضع كحق ناتج عن العنف وهو حق الحرب. ومثلما كان يمارس القنص أو الرعي أو الجمع في نفس المنطقة مجدداً مع حلول الموسم السنوى لمرور القطعان البرية أو (لظهور الحشائش) مثلما أصبحت تفرض الجزية على الأرض المزروعة).(١)

وقد ازداد هذا المصدر بشكل واسع عبر عملية الفتوحات لبلاد الأنهر من خلال الجزية المفروضة على الرؤوس من أهل الكتاب والعجم والمجوس، وكانت المسائل إجتهادية، ففرض عمر على أهل

---

(١) أنظر، أحمد صادق سعد، حول النمط الآسيوي ص٥٩.

الـذهب أربعة دنـانير، وعلى أهـل الـورق (الفضــة) أربعين درهمـاً بالإضافة إلى أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثـة أيام وقـال (الشافعي) أقله محدود وهو دينار وأكثره غير محدد وبحسب مايصالحون عليـه، وقال قوم لاتوقيف في ذلك وهو متروك إلى اجتهاد الإمام،[1] كما قال عمرو بن العاص لصاحب اخنا في مصر رداً على سؤاله حول الجزية (أخبرنا ماعلى أحدنا من الجزية فيصبر لها؟!) فرد قائلاً. (وهو يشير إلى ركن الكنيسـة) لو أعطيتني من الأرض إلى السقف مـا أخبـرتـك ما عليك، إنما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خُفف عنا خُفف عنكم.[2]

(غير أن التوازن الناتج عن الصراع الطبقي كان يجبـر الهيئة الحاكمة على الإلتزام بجانب الإعتدال في تحديد حجم الجزية، وذلك لأنه إذا زاد عن مستوى ما بحيث تصبح المعيشـة غير محتملـة لدى المنتجين، لتعـرضت الإمكانيـات الضـريبيـة لخطـر النقصـان، بـل الإنعدام).[3]

(قـال يحيى: ونحن نقول الجـزية جـزيتان، جـزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القريـة، يؤخذ بهـا أهل القـرية، فمن هلك من أهل القرية التي عليها جزيـة مسماة على القـرية ليست على رؤوس الرجال، فإننا نرى أن من هلك من أهل القريـة ممن لاولد له ولا وارث أن أرضه ترجع إلى قريته في جملة ماعليهم من الجزية، ومن هلك ممن جزيتـه على رؤوس الرجـال ولم يرث إرثـاً فإن أرضـه للمسلمين عامة).[4]

---

(١) انظر الوليد بن رشد، في بداية المجتهد ونهاية المقتصد ص٢٩٣، ٢٩٤

(٢) إبن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص٢٠٧، المقريزي، المـواعظ والإعتبار ج١ ص٧٧

(٣) أحمد صادق سعد، النمط الآسيوي. ص٧٢.

(٤) إبن عبدالحكم، فتوح مصر والمغرب ص٢٠٨، ص٢٠٩

(ويقول عبد الملك بن سلمة. أن عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فُتحت عنوة وأن الجزية إنما هي على القرى، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم، وإن موت من مات منهم لايضع عنهم من الجزية شيئاً).[١]

وكانت هناك عدة أنواع من الضرائب (فالجزية وكانت تدفع نقداً وكانت ضريبة مالية صرفة، ضريبة الطعام وهي ضريبة عينية تؤدى قمحاً وشعيراً ويمكن إستبدالها بمحاصيل أخرى حسب حاجة الدولة كالعسل والخل والزيت والنسيج والجلود. وكانت ضريبة الرؤوس الملزمين بدفع الضرائب المطلوبة منهم بإعتبارهم من أهالي الجهة الأصلية (إذا سمح لهم بتغيير محال إقامتهم)، وكان لايسمح لهؤلاء الأشخاص بالإنتقال من ناحية إلى أخرى إلا بإذن خاص ولمدة محدودة... وكانت الجزية مقدرة جملة على أهل القرية وعليهم أداؤها جملة بصرف النظر عما يصيب الأفراد من الموت).[٢]

واحتفظ العرب بالنظم الإدارية البيزنطية فلم يغيروا فيه تغييراً كبيراً، فعلى سبيل المثال كانت مصر ـ أيام الرومان ـ مقسمة إدارياً إلى مصر العليا والسفلى، وهذان القسمان كانا مقسمين إلى أقسام وكور، وكان هناك (جسطال) أي الموظف المشرف على مالية الكورة، أي مندوب ديوان الخراج والأموال. أما (موازيت) فمعناه رؤساء أو مشايخ القرى. وظل نفس النظام معمولاً به أيام العرب، فكُلِّف صاحب الكورة بالإتصال بالوالي أو عامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التي تدخل في دائرة هذه الكورة،

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨، ص ٢٠٩

(٢) أحمد أمين صالح، النظم الإقتصادية في مصر والشام في صدر الإسلام ص١٤٤ - ١٤٨.

ويشرف على تقدير الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت إشراف صاحب الكورة. وتضيف (سيدة كاشف). والظاهر أن العرب وجدوا في مصر عند الفتح نظاماً زراعياً ومالياً لم يستطيعوا تركه تماماً، وكان هذا النظام يبعدهم إلى حدٍ كبير عن الإتصال بالفلاحين دافعي الضرائب المباشرة. وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض إلى حد كبير جداً وكانوا لايغيرون مقرهم إلا بترخيص، وقد كان فلاحو القرية متضامنين في الضرائب التي تفرض عليهم كما كان لايجوز نقل المحاصيل والمنقولات من مكان لآخر إلا بتصريح . ونرجح أن العمال الذين كانوا يكلفون بالعناية بالترع والجسور وإقامة القناطر كانوا يعملون بطريقة السخرة كما كان الحال قبل الفتح العربي..)(١)

وعندما استولى العرب في بداية الفتوحات على الأراضي وُزِّعت كمغانم للجند الذين كانوا بدوا ولم تكن لهم أدنى علاقة بالزراعة، فتدهورت إنتاجيتها تماماً، مما إضطر الخليفة عمر بن الخطاب أن يعدل عن ذلك ويعيدها للسكان الأصليين على أن يدفعوا خراجها كما فعل النبي مع أهل خيبر، لكن ذلك لم يمنع بعض العرب من الإستقرار في الأراضي والعمل في الزراعة. وقد كان نظام القطائع معروفاً بأن يهب الإمام أو الأمير قطعاً من الأرض لمن يرى من أقربائه أو قادة الجيش أو المقربين، ليعمرها وينتفع بها أو يجعلها مزدرعاً ينتفع بما يحصل من غلتها ولاخراج عليه فيها وربما جعل على مزدرعها خراجاً مثل قطائع المنصور وولده بعده ببغداد في

---

(١) أنظر، سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام ص٢٦٧.

القطائع ومن ذلك أيضاً قطيعة الربيع وقطيعة أم جعفر. ويقول ياقوت الحموي في معجمه (وأما القطيعة الأخرى فهي أن يُقطِع السلطان مايشاء من قواده وغيرهم القرى والنواحي، ويقطع عليهم عنها شيئاً معلوماً يؤدونه في كل عام ـ قلَّ أو كَثُر ـ توفر محصولها أو نذر لامدخل للسلطان معه في أكثر من ذلك).(١)

(وعادت أراضي البلاد المفتوحة إلى التبعية للدولة ولكن الملكية الخاصة لم تختف تماماً وذلك بسبب أن بعض أفراد الصفوة العربية وضعوا أيديهم على حيازات كبيرة، وخاصة وأن الإصلاحات التي أدخلها العباسيون الأوائل أدت إلى تفكيك المشترك القروي في فترة تحول عرب كثيرون إلى الإستقرار الزراعي).(٢)

وكان من الممكن أن يستأجر المسلم أرضاً خراجية، وعلى صاحب الأرض الخراج المفروض عليه، وعلى المسلم أن يزكي أرضه إذا بلغ مايخرج منها (خمسة أوسق)، ويرى سفيان أن أجور الخراج على السلطان وأجور العشر على أهل الأرض، وقال مالك: وإذا كانت أرض من أرض الخراج لعبد أو كاتب أو إمرأة، عليها الخراج ومابقي من الغلة العشر، وأراضي العشر هي الأرضون التي أسلم عليها أهلها وهي في أيديهم مثل اليمن والمدينة والطائف فإن الذي يجب على هؤلاء العشر، وقد أدخل بعض الفقهاء في هذا القسم أرض العرب الذين لم يقبل منهم إلَّا الإسلام أو السيف، وكان بين من أسلم طوعاً ومن أسلم كرهاً فرق النبي بينه بالفعل وذاك أنه جعل لأهل الطائف المسلمين مما لم يجعل لغيرهم. حرم واديهم وأن لا تغير طوائفهم ولا يؤمر عليهم إلَّا منهم، وأخذ من دومة الجندل بعض أموالهم واستثنى عليهم الحصن ونزع الحلقة (السلاح والخيل) لأنهم

---

(١) معجم البلدان، لياقوت الحموي ج١، ص٤٢ ومابعدها

(٢) أنظر، أحمد صادق سعد، في ضوء النمط الآسيوي

جاءوا راغبين في الإسلام، لكن أبا بكر في حروب الردة نزع منهم الكراع والحلقة، نتيجة تغير الظروف السياسية والأمنية.

والصدقة هي زكاة أموال المسلمين من الذهب والورق والإبل والغنم والبقر والحب والثمر لاحق لأحد من الناس فيها سواهم، وأما مال الفيء، فما اجتُبي من أموال أهل الذمة من جزية رؤوسهم التي حقنت بها دماؤهم وحرمت أموالهم بما صولحوا عليه من جزية، ومنه خراج الأرضين التي افتتحت عنوة ثم أقرها الإمام بأيدي أهل الذمة عن قسط يوفونه كل عام، ومنه وظيفة أرض الصلح التي منعها أهلها حتى صولحوا على خراج مسمى، ومنه مايأخذه العاشر من أموال أهل الذمة التي يمرون بها عليه في تجارتهم، ومنه مايؤخذ من أهل الحرب إذا دخلوا بلاد الإسلام للتجارات، فكل هذا من الفيء وهذا الذي يعم المسلمين غنيهم وفقيرهم، فيكون في أعطية المقاتلة وأرزاق الذرية).[1]

وقد افتتحت أرض السواد في العراق أيام عمر بن الخطاب، وكانت خصبة الأرض، وكانت تعطي الخراج للملك الفارسي قباذ بن فيروز. وبعد الفتح الإسلامي حتم عمر الجزية على ستمائة ألف إنسان وجعلها طبقات، الطبقة العالية ثمانية وأربعون درهماً والوسطى أربعة وعشرون درهماً والسفلى إثنا عشر درهماً، فجبى السواد مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم (أي مائة وثمانية وعشرون مليوناً من الدراهم فضة) بل إن عمر بن عبد العزيز (رغم ماروُي عن سلوكه من روايات في عدالته) قال: لعن الله الحجاج، فإن عمر بن الخطاب جبى العراق بالعدل والنصفة مائة وثمانية وعشرون ألف ألف درهم وجباه زياد (١٢٥ مليوناً) وجباه إبنه

---

(١) أنظر، معجم البلدان لياقوت الحموى. ج١ ص٤٢ ومابعدها.

عبيد الله أكثر (بعشرة ملايين)، ثم جباه الحجاج مع عسفه وجبروته ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط، وأسلف للفلاحين للعمارة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم فحصل له (١٦ مليوناً)، ثم أضاف وها أنذا قد رجع إلي على خرابه فجبيته مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم بالعدل والنصفة، وإن عشت له لأزيدنّ على جباية عمر بن الخطاب.(١)

وقال عبد الرحمن بن سليمان: مال السواد ألف ألف ألف درهم (مليار) فما نقص مما في يد السلطان منه فهو في يد الرعية، وما نقص من يد الرعية فهو في بيت مال السلطان. وقالوا. ليس لأهل السواد عهد. إلا الحيرة وألبس وبانقيا، فلذلك لايصح بيع أرض السواد دون الجبل لأنها فيء للمسلمين عامة إلا أراضي بني صلوبا وأرض الحيرة، وقيل: أراد عمر قسمة السواد بين المسلمين فأمر أن يحصوا فوجدوا الرجل يصيبه ثلاثة من الفلاحين فشاور أصحابه فقال علي: دعهم يكونوا مادة للمسلمين وقال لسعد بن أبي وقاص بعد فتحها عنوة: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس قد سألوك أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم، وإن أتاك كتابي فانظر ما أجلب عليه العسكر بخيلهم وركابهم من مال وكراع فاقسمه بينهم بعد الخمس، واترك الأنهار والأرض بحالها ليكون ذلك في عطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يبق لمن بعدهم شيء. وقالوا: إن أرض السواد لاتباع ولاتشترى لأنها فتحت عنوة، ولم تقسم فهي فيء عامة للمسلمين.(٢) أي أن الأرض رغم عدم تقسيمها وتركها للفلاحين

---

(١) نفسه ج٣ ص٢٧٢.

(٢) معجم البلدان ج٣ ص٢٧٢ ومابعدها. باب السواد، وقد قال سعيد بن العاص الأموي (السواد كله لقريش فما نشاء قطعتها، وهذا عندما رفض الكوفيون ولايته عليهم =

الأصليين أصحاب البلاد، إلا أنهم لم يكونوا حائزين لها لايستطيعون بيعها أو شراءها أو التصرف فيها بأي شكل من الأشكال، لأنها عطيات للمسلمين عامة (ملكية عامة)،[1] وهذا لأنهم حاربوا دفاعاً عنها. ولم يسلموها صلحاً. وقال أبو حازم القاضي: جبى عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب إثني عشر ألف ألف دينار (١٢ مليوناً)،[2] فصرفه عثمان بن عفان وقلدها عبدالله بن أبي سرح فجباها أربعة عشر مليوناً، فقال عثمان لعمرو: **يا أبا عبد الله أعلمت أن اللقحة بعدك درت ؟ !** . **فقال : نعم ولكنها أجاعت أولادها** ، وقال أبو حازم : إن هذا الذي رفعه عمرو بن العاص وإبن أبي سرح إنما كان عن الجماجم خاصة دون الخراج وغيره[3] .

وقد أوردنا كل هذه النصوص السابقة لالشيء إلا لنؤكد إلى أي مدى كان قانون الحرب يدر مصدراً هائلاً من الأموال على بيت المال، سواء على مستوى الديوان في كل بلد على حدة أو على مستوى عاصمة الأمبراطورية الإسلامية في المدينة، ثم في الشام أو في العراق فيما بعد. ونلاحظ أن البلاد تقسم إلى بلاد فتحت عنوة وأخرى صلحاً عنوة، أي بسبب مقاومة أهلها أو بعض القوات البيزنطية أو الفارسية المصاحبة لهم. وصلحا هي تلك البلاد التي احتلت دون مقاومة أهلها، فيشترطون على أنفسهم الشروط الوارد ذكرها من قبل.

وبسبب هذا المصدر تكونت طبقة ثرية عربية تبدأ من أدنى

= وخرج إليه الأشتر النخعي بقوة مسلحة ومنعه من دخول المدينة ورد عليه. أتجعل من مراكز رماحنا وماأفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟! والله لو رآه أحد لقرع قرعاً يتأصص منه فرضخ عثمان بن عفان وعين أبا موسى الأشعري اليمني بدلاً منه (انظر ابراهيم بيضون تكون الإتجاهات. ص١٠٥).

(١)، (٢)، (٣) انظر معجم البلدان ج٣ ص٢٧٢، ج٥ ص١٣٢ باب مصر

المستويات في القرى وترتفع إلى قادة الجيوش والأمراء لتصل في النهاية إلى بعض الخلفاء والصحابة، ولندع نصاً للمسعودي يتكلم بنفسه عن هذا الأمر كمثل واحد من الأمثلة الكثيرة المعروفة فناهيك عن الأمور الخفية، يقول:

إن عثمان يوم قُتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار (ذهباً) وألف ألف درهم (مليوناً) وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار. وامتلك الزبير في أيام عثمان (دارة) بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت (٣٠٢هـ) تنزلها التجار وأرباب الأموال، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة، والإسكندرية، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وألفا فرس وألف عبد وأمة... وكذلك طلحة ابتنى داراً بالكوفة المشهورة به في هذا الوقت، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار.. أما عبد الرحمن بن عوف ابتنى دارة ووسعها، وكان على مربضه مائة فرس، وله ألف بعير وعشر آلاف شاة من الغنم.. وابتنى سعد بن أبي وقاص دارة بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات..[1]

ورغم ما تثيره الأرقام من شك، وخاصة وأنها كلها مرتبطة بالأرقام عشرة وخمسين ومائة وألف، مما لا يمكن معه اعتبارها إحصائيات دقيقة ـ فهذا العصر لم يتطور فيه علم الإحصاء ـ إلَّا أن ذلك يعكس إلى أي مدى وصلت ثروات هؤلاء الأمراء، ودون ذكر أرقام فإن معظم هذه الثروات جاءت عبر الحروب كفيء أو جزية أو خراج أو جاءت عبر صدقة أو عشور أو تجارة، وصبت كلها في عاصمة الدولة

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ج٢ ص٣٣٢ ـ ٣٣٣، محمد عمارة مسلمون ثوار ص٣٢ ـ ٣٥.

الإسلامية بشكل أو بآخر، ولا بد أن جـزءاً كبيراً قـد صُبّ في جيوب القادة والأمراء وغيرهم المرتبطين بهم، مما كان له أثره فيما بعد على شكل الصراعات داخل الدولة الإسلامية حيث بدأت التمايزات الطبقية تأخذ مظاهرها الأكثر حدة مع تطـور الفتوحـات واتساع رقعتهـا، ولا يعنينا هنا أن عثمان بن عفان قد قتل وهو يقرأ القـرآن، وإنما يعنينـا كيف عادت العشائـرية الأمـوية لتسيطـر سياسيـاً واقتصاديـاً على مقدرات الأمور ثانية، بل ولتسيطر مـع حلفائهـا من أغنياء الصحـابة الأحياء حينذاك على حصة لابأس بها من عائدات الحروب.

وهكـذا أتاحت التـراكمات السيـاسيـة والعسكـريـة تـراكمـاً إقتصادياً ذا شأن كبير، وكـان ضرورة لابـد منها لـلإبقاء على هـذه الدولة الحديثة النشأة، بل واستمراريتها وانتقالتها خطـوة أعلى إلى طور الحضارة ذات الدولة المركزية وبدلاً من أن تكون الغنيمة أمـراً متقطعاً في أيام الرسول الأولى، تطـورت بصراعـه وتنامت مـع نشأة الدولة لتصبح أمراً ثابتاً لتتحول إلى نوع من الضريبة أو الجزية.

وبـالطبع، إعتمـد هذا المصـدر على مجهود السكـان والبشر والفلاحين من زراعة أو صنـاعة يـدوية أو رعي أو خـلافه وتم ذكـره سابقاً.

المصدر الثاني وكان قد انتعش باكتشاف طرق جديدة وبلاد جديدة ومـوارد جديـدة، وهو التجـارة سواء تجـارة المقايضـة أو التجـارة بالأموال، وتحت حماية الجيوش المنتصرة وفي ظل سيطرتهـا التامـة على الأسواق وأخذ الضرائب والمكوث والعوائد ورسوم المرور. وكان التجار يقومون بدور بارز في نقل وتوصيل المنتجات التي تجمع وفـاء للجزية إلى العاصمة الحاكمة مثلما كان يحدث بالنسبة لخراج مصـر أيـام عمـر بن الخطـاب، أو يشتـرون جـزءاً منهـا ويتـاجـرون فيهـا لحسـابهم، ومع تطـور القوى الإنتـاجية جـاء جزء من النـاتـج المحلي

(البلاد المفتوحة) مادة للتجارة الداخلية المباشرة ومصدراً للعملة اللازمة لسداد جانب من الخراج نقداً[١] واستخدم العمال فيما بعد لحفر الترع والمصارف كحفر خليج أمير المؤمنين أيام عمرو بن العاص في مصر، وتم استخدامهم أيضاً في مناجم الحديد والنحاس والذهب.

وظلت دورة المال تلك في النمو أو التراجع حيناً، لكنها لم تتحول إلى رأسمال أبداً حتى العصر الحديث، فالوجود المحض للثروة النقدية، بل وحتى انتزاعها لنوع من مركز الهيمنة ليس كافياً لكي ينتج رأسمالاً، فلو كانت كذلك لكانت روما القديمة وبيزنطة قد ختمتا تاريخهما بالعمل الحر ورأس المال، بل لكانت دخلتا تاريخاً جديداً، فهناك كان نمو علاقات الملكية القديمة مرتبطاً بنمو الثروة النقدية والتجارة ومع ذلك فإن نتيجة هذا الوضع لم تكن الصناعة هي المسيطرة، ولكن ظل الريف مسيطراً على المدينة [٢] فالرأسمالية تحتاج دائماً أن تكون قوة العمل وأدوات العمل سلعة، الأمر الذي لم يحدث لعدة قرون من الزمن، وذلك لأن التجمعات الإقتصادية ظلت مكتفية وقائمة كأساس للهيكل الإجتماعي الإقتصادي، رغم مامرّ عليهامن سادة وقادة سياسيين كانوا يتغيرون دائماً، ولكنها ظلت تعيش أكثر من ألف ومائتي سنة في نفس الدائرة المفرغة حتى نقل الإستعمار الحديث أشكاله لكل بقاع الأرض.

ورغم اعتراف الإسلام بالرق وتنظيمه، وتحديد العلاقة مابين السادة والعبيد، ورغم وجود العبيد سواء قبل الإسلام أو بعده وربما بالفتوحات قد ازدادت أعدادهم بشكل كبير وكما ذُكر من قبل، عن

---

(١) احمد صادق سعد، في ضوء النمط الآسيوي ص٩٨

(٢) أنطر، ماركس. التكوينات الإقتصادية قبل الرأسمالية النص الإنحليري ص١١٠

بعض الصحابة الذين يملكون آلاف العبيد والإماء، بل وذُكر للرسول نفسه ـ وفي كتب السيرة ـ عدد كبير من العبيد والإماء وقد ذكر الإمام إبن كثير [1] عن إبن عساكر (في باب ذكر عبيده عليه السلام وإمائه) أكثر من أربعين عبداً وأكثر من عشرين أمة أو جارية كن له ولنسائه ورغم وجود تجارة للعبيد بيعاً وشراءً سواء أيام النبي أو بعده، فإننا لانستطيع أن نعتبر أن الدولة الإسلامية قد مرت بما يسمى في الإقتصاد السياسي بمرحلة (العبودية) كنمط رئيسي من أنماط الإنتاج السائدة، وحيث يعتمد على العبيد أساساً في العمل الشاق وفي صنع التراكم الإقتصادي عبر هذا العمل وعبر بيعهم وشرائهم فهذه المرحلة مرت بها أوروبا، وازدهرت بعد أن غزت القبائل الجرمانية الإمبراطورية الرومانية، فاستخدم العبيد لإنتاج الفائض الذي يوجه بعد ذلك للتداول ولشراء عبيد جدد، بينما لم نجد هذا الأمر واضحاً في الدولة الإسلامية، حيث كان العمل والفائض يقوم به أناس «أحرار» يدفعون الجزية والخراج أو الصدقة أو العشور، ذلك الفائض الذي يوظف إما في الملكية العامة وإعداد الجيوش أو في الهبات والتجارة، وكان دور العبيد هامشياً في العملية الإقتصادية حيث يقومون بأعمال الخدمة في المنازل والقصور أو للتسرية عن السادة وأحياناً يستخدمون في أعمال السخرة أو يباعون ويشترون، إلا أن هذا لم يتحول أبداً إلى نمط أساسي لخلق الفائض الإقتصادي والذي يعاد توظيفه بشراء عبيد جدد يضافون إلى الجيش القديم فينتجون فائضاً جديداً وهكذا.

وبالمقارنة بالعبودية في اليونان وروما، تعتبر العبودية في الدولة الإسلامية ضئيلة الدور، محدودة التأثير، وظلت هكذا هامشية

---

(١) سيرة إبن كثير ج٤ ص٦١٦.

أواخر القرن الماضي حتى ألغيت [١] وربما لهذا الدور الهامشي في الحياة الإقتصادية إختلفت حالتهم بشكل أو بآخر عن عبيد روما أو بيزنطة فمنحوا بعض الحقوق وعوملوا معاملة مختلفة لحد ما (فنظام الرق في الإسلام لايختلف كثيراً عنه في بداية العصر المسيحي، لكنه ليس بالضبط كما هو في القانون الروماني موضوعاً طبقاً للإرادة المطلقة للسيد، فقد كان للعبد حق الزواج والذي اختلف في إجرائه طبقاً للمذاهب الشرعية، ولكن لم يكن للأمة نفس الحق إلا بأمر سيدها وبالمبلغ الذي يريد، وإن كان لها الحق في عدم الانفصال عن طفلها. وفي العصور الإسلامية اللاحقة كما في العصر العباسي كان بعض الأمراء أبناء لجوار. وأما النساء (الإماء) فكن غالباً يربين بعناية خاصة بسبب دورهن في نظام التسري السائد حتى وقت قريب أو لتصبحن مغنيات أو راقصات في الاحتفالات. وإذا كان العبد المسلم متعلماً فهو يستطيع أن يصبح مفتياً خاصاً ولكنه غير رسمي فيستطيع أن يقود الصلاة غير صلاة الجمعة، ويمكن أن يشترط السيد تحريراً لبعض عبيده في وصيته أو بالمكاتبة، وهناك أيضاً نظام التحرير الجزئي إذا كان السعر المشترط لإعادة الشراء والذي يمكن أن يشارك فيه العبد بنفسه غير كاف وكان هناك أيضاً العبيد العموميون وهؤلاء يمتلكهم عدة أسياد في نفس الوقت.) [٢]

وبجانب تلك العبودية القانونية في الدولة الإسلامية أطلق البعض [٣] على هؤلاء السكان الذين يعملون من أجل الدولة وكان عليهم سداد الضريبة أو الجزية أو الخراج والقيام بالسخرة خدمة للأشغال

---

(١) أُلغي الرق في المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٤ فقط بقرار من الملك فيصل (انظر د. ابراهيم سعد الدين، النظام الإقتصادي العربي الحديث ص ١٦١

(2) LOUIS GARDET: Les Hommes de LıISLAM . P 104- 111.

(٣) انظر، صادق سعد ص٩٢

العامة وبعض الأبنية التي تقيمها السلطة المركزية.الـخ. (العبوديـة المعممـة)،وهي تلك العلاقة الناشئة بين التجمع الإقتصـادي الأدنى (المشترك القروى) وبين الدولة (المشترك الأعلى) وهـي علاقة تبعية دائمة يفرض فيها العمل والضريبة ثم جـزية الـرؤوس وعدم مغـادرة الأرض إلاّ بتصريح وكـل ذلك من أجـل ملء الخـزينة العـامة وكـان هذا هو النمط الإقتصادي والإجتماعي السائد في ظل الدولة الإسـلامية. فهـل يمكن وضـع تلـك الـدولـة الإسـلاميـة تحت مـا يسمى (النمط الآسيوي للإنتاج)؟ ربما. لكن الموضوع يحتـاج لبحث أخر. ونكتفي هنـا بتلك الإشـارات والتي نرجـو ألا تكون قـد خرجت عن مـوضـوع بحثنا.

خاتمـــة

التقديس عاهة مضرة بـالنقد، وتؤدي بـالمؤرخين إلى الخوف حيناً وعدم التعمق حيناً آخر، وهـو يضفي على الأشياء هـالة وهميـة لاتستحقها، وينزع من بعض الأشياء حقاً تستحقه.

وهذا ماحاولنا أن نضعه جانبـاً ونحن نكتب بحثنا لكي لانسقط في مستنقـع العواطف القـديمـة. وفي عمليـة البحث نقـرأ في كتب السيرة الإسلامية، فنكتشف ذلك الحجم الكبير من العمل العسكـري في مسيـرة القوة المحمـدية وخـاصة بعـد الهجرة، ومـا جـاوره من أحـداث لايتعدى أن يكـون تابعـاً له بشكـل أو بآخـر، ومن هنا يمكن اعتبـار أي كتاب يتحـدث في المغازي والحـروب النبويـة هـو كتـاب يشمل التاريخ الإسلامي في أساسه. فحق الحرب هو حق الدين، وهو حق المغنم، وهو حق السيادة، وهو حق التاريخ القديم الذي فرضتـه حالة الصراع على موارد الرزق في الصحراء العربية.

وبدون الهجرة النبوية إلى يثرب، كان يمكن أن نتخيـل مصيراً آخر للإسلام ولجزيرة العرب وماحولها، فلقد ظل محمد في مكـة أكثر من ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إليه ويجادلهم، لكن الدعوة والجدل بقوة الحجة فقط، لايكفي دائما لتحريك جموع كبيرة، والسيطرة على خلافات وتناقضات مستفحلـة، كانت تحتـاج لحسم، والحسم يحتاج

شروطاً خاصة بطبيعة تلك التناقضات، وأهمها حق (الإعتداء) ذلك الذي اكتسب شرعيته وتحول إلى مفخرة لكل عربي وتأصل داخله بحكم الحروب القبلية المستعرة منذ (وُجد) الناس على أرض هذه الصحراء.

وربما أدرك محمد هذا قبل أن يبدأ غزواته، وربما أدركه خلال مسيرة الصراع بحكم أهمية نتائجه على مستوى تنامي قوته، فانطلق فيه لايلوي على شيء، يضرب ويضرب، ولا يرتاح إلا ليضرب. تدفعه الحاجة دفعاً للاستمرار في الحروب وهي حاجة إقتصادية وحاجة إستراتيجية تميزت عبر احتدام صراعه داخل جزيرة العرب.

ونستطيع أن نقول ـ وبلا مبالغة ـ أن حياة النبي منذ الهجرة حتى وفاته، هي حياة قائد عسكري منغمس في المعارك. قائد لاينام إلا وفي حضنه السيف ولا يصحو إلا شاهراً إياه.

قد ينزعج البعض من هذا الكلام صائحين بأن الدين انتشر بالإقناع ولم ينتشر بالسيف، وكأن السيف عيب، وكأن القوة وباء، وكأن من أدرك أهمية ذلك قد إنزلق إلى أرض الواقع وذلك جريمة ـ من المؤكد جريمة ـ في ذهن الذين يريدون تقديس كل شيء.

وليست كل قوة ولا أي قوة قادرة على الإنتصار وحسم التناقضات لصالحها، وأيا كانت إمكانياتها، فهناك لحظات تبدو فيها هذه القوة (دون كيشوتية) تضرب دون هدف محدد وربما بتأثير عكسي. وهناك لحظات تضرب ـ وربما بأقل قوة ـ فتقوض وتهدم وتغير مصائر. هذه اللحظات الفعالة من التاريخ أو مايمكن قوله ـ مجازاً ـ الفرص التاريخية التي لاتتكرر إلا قليلاً، وإن تكررت ربما يكون التاريخ قد تجاوزها بحل آخر أو تهدئة جديدة للتناقضات القديمة.

والفرصة التاريخية، ليست يوماً وليست شهراً ولا عاماً ولا ردحاً من الزمن، وإنما هي الاختلال الواضح للقوى الحية بتناقضاتها، أو بمعنى آخر، أزمة حادة يعانيها القديم ويختنق بها فلا تتنفس إلا بجديد أو عبر مسارب جانبية تضعها الأحداث لتصرف ذلك الضغط. وقد تظل الأزمة قائمة أياماً وسنين وربما عشرات السنين، وداخل هذه الأزمة تعلو لحظة فعالة يمكن أن تحكم مصيرها كله.

وهكذا جاء محمد والأزمة ممسكة بشبه جزيرة العرب، والتناقضات تحكم حياة الناس بدءاً بمركزها في مكة، وانتهاء بالقبائل المنعزلة في واحاتها وحول مراعيها في أطرافها لكن الفرصة التاريخية لم تأت إلا بعد الهجرة، واللحظة الفعالة للانقضاض بدأت بسرايا قطع الطرق التجارية ومهاجمة القبائل وهي منعزلة، ففاجأها، وأصابها واحدة واحدة وهو ينفرد بها، دون مقاومة جيش ولا بوليس ولادولة ولاسجن ولاحكومة وتوجت بفتح مكة، فحسمت تناقضات قديمة آتية بتناقضات مابعد النصر والتي لم يواجهها محمد فقط، بل واجهها بعده قادة الدولة الإسلامية التي تشكلت وأخذت في الاتساع يوماً بعد يوم، ومع اتساعها إتسعت المشاكل، وانضافت إليها تناقضات جديدة لم تعرفها شبه الجزيرة ولاعرفتها في يوم من الأيام.

وقد بدأنا بما يمس موضوعنا من التاريخ، وما يمس التاريخ من شخص محمد كقائد لهذه المسيرة، وانطلقنا معه في سراياه وغزواته، محاولين قدر الإمكان أن نتلمس جذور القوة وعوامل النصر الموضوعية، وبعض العثرات حتى بداية تشكل الدولة الجديدة، مشيرين إلى بعض السمات الخاصة لطبيعة هذه الدولة وأسباب

اتساعها السريع.

فنكون بذلك قد حددنا جذور نجاح المشـروع الإسلامي، وهـو ما أطلقنا عليه (جذور القوة الإسلامية). فلعلنا نكون قد أضـأنا بعـد الفجوات المظلمة في تاريخنا دون الغرق في المطلق والمعمم، أو دون الضياع في متاهات الإحتمالات والترجيحات.

المراجــع العربيــة

- القرآن الكريم.
- ابـراهيم العدوي. تـاريخ العـالم الإسلامي. دار الإتحـاد العـربي للطباعة القاهرة ١٩٨٣م
- ابـراهيم بن حسن التفسير المـأثور عن عمـر بن الخطاب. الـدار العربية للكتاب. بيروت ١٩٨٥م.
- ابراهيم بيضون. تكـون الإتجاهـات السياسيـة في الإسلام الأول دار إقرأ بيروت ١٩٨٦م.
- ابـراهيم سعد الـدين. النظام الإجتمـاعي العربي الجـديد. مـركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٢م.
- إبن الأثير. (عز الدين أبو الحسن علي بن محمـد بن عبدالكـريم - ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ. دار صادر. بيروت ١٩٧٩م
- ابن إسحق (محمد بن المطلبي - ١٥١هـ). كتاب السيرة والمغازي تحقيق سهيل زكار. دار الفكر بيروت ١٩٧٨م
- ابن خلدون. (أبو يزيد عبد الرحمن بن محمـد - ٨٠٨هـ) «جزءان» المقدمة. لجنة البيان العربي. القاهرة ١٩٥٨م.
- إبن رشـد (الوليـد) بدايـة المجتهد ونهـاية المقتصـد دار الفكـر للطباعة والنشر. (دون تاريخ).
- ابن سعـد (أبو عبـد اللّٰه محمـد - ٢٣٠هـ). (ابن سعد البصـري الزهري)

- الطبقات الكبرى. دار صادر. بيروت (دون تاريخ).
- غزوات الرسول وسراياه. دار بيروت ١٩٨١م.

- إبن سيد الناس (فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس الشافعي الأشبيلي - ٦٥١هـ).
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير. الباب الحلبي. القاهرة (دون تاريخ).

- إبن عبد الحكم (أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله القرشي المصري - ٢١٤هـ). فتوح مصر والمغرب. لجنة البيان العربي. القاهرة ١٩٦١م.

- إبن كثير (عماد الدين أبو الفداء الحافظ إسماعيل ٧٠١ - ٧٧٤ هـ).
- تفسير القرآن العظيم. كتاب الشعب. القاهرة ١٩٧١م.
- السيرة النبوية (٤ج) تحقيق مصطفى عبدالواحد. دار المعرفة. بيروت ١٩٨٢م.

- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك ـ ٢١٣ أو ٢١٨هـ). السيرة النبوية. مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة المدني. القاهرة ١٩٧١م.

- أبو حيان التوحيدي (- ٣٥٦هـ). الإمتاع والمؤانسة. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. مكتبة الحياة. بيروت (دون تاريخ).

- أحمد صادق سعد. في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج. نشأة التكوين المصري وتطوره. دار الحداثة. بيروت ١٩٨١م

- أحمد أمين. فجر الإسلام. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٥م.

- أحمد أمين صالح النظم الإقتصادية في مصر والشام في صدر الإسلام. مكتبة سيد رأفت. القاهرة ١٩٧١م.

- أدونيس (علي أحمد سعيد). الثابت والمتحول (٣ج) تأصيل الأصول ج٢. دار العودة بيروت ط٣ ١٩٨٢م
- البخاري (أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل - ٢٥٦هـ) الصحيح. مطبعة مصطفى الحلبي. القاهرة ١٣٤٥هـ .
- البلاذري (أبو جعفر أحمد - ٢٧٦هـ). فتوح البلدان. تحقيق محمد رضوان. المكتبة التجارية الكبرى (دون تاريخ).
- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن موسى الخسروجردي. صاحب التصانيف من خراسان. ٣٨٤ - ٤٥٨هـ) السنن الكبرى والصغرى.
- السيوطي (جلال الدين بن عبدالرحمن - ٩١١هـ).
  - تفسير وبيان أسباب النزول للقرآن الكريم. أعده محمد حسن الحمصي. دار الرشيد. مؤسسة الإيمان. بيروت (دون تاريخ).
  - الدر المنثور في التفسير بالمأثور. بيروت (دون تاريخ).
  - المزهر في علوم اللغة. القاهرة ١٩٧٨م.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير - ٣١٠هـ).
  - تاريخ الأمم والملوك (١٠ج) دار المعارف المصرية. القاهرة (١٩٦٧ - ١٩٦٩م).
  - جامع البيان في تفسير القرآن. بيروت ط٢. ١٩٧٢م.
- العقاد (عباس محمود). العبقريات الإسلامية دار المعارف المصرية.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين - ٣٤٦هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ج) تحقيق يوسف أسعد داغر دار الأندلس. بيروت ١٩٧٣م
- المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي - ٨٤٥ هـ).

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. مطبعة بولاق. القاهرة ١٩٧٠م.
- الواقدي (محمد بن عمر بن واقد - ٢٠٧هـ). كتاب المغازي تحقيق مارسون جونس (٣ج). عالم الكتب بيروت (دون تاريخ)
- جواد علي. تاريخ العرب في الإسلام. مكتبة النهضة العربية. بغداد ط١، دار الحداثة بيروت ١٩٨٣م.
- خالد محمد خالد. رجال حول الرسول. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٨٤م.
- ريشنباخ. نشأة الفلسفة العلمية. ترجمة د فؤاد زكريا. دار الكتاب العربي. القاهرة ١٩٦٧م.
- سيدة إسماعيل كاشف. مصر في فجر الإسلام. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٤٧م.
- صوفي أبو طالب. تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية. دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٨٦م.
- طه حسين. في الأدب الجاهلي ج ٥. دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢م. بيروت.
- من تاريخ الأدب العربي ج٢. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧١م.
- الفتنة الكبرى. دار المعارف المصرية. القاهرة ١٩٧٣م.
- علي عبد الرازق. الإسلام وأصول الحكم. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٢م.
- عمر شريف. نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية. دار الشباب للطباعة. القاهرة ١٩٨٧م.
- محمد عمارة. مسلمون ثوار. القاهرة. روزا اليوسف. ١٩٧٦م.
- محمد ماهر حمادة. الوثائق الإدارية والسياسية في العصر

الأموي. دار النفائس. بيروت ١٩٨٥م.
- مسلم (أبو الحسين بن إسماعيل - ٢٦١هـ) الصحيح. دار الكتب العلمية. بيروت (دون تاريخ).
- ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي. القاهرة ١٩٥٦م.
- هادي العلوي. نصوص منسية من التراث. مجلة دراسات عربية. مايو ١٩٨٦م دار الطليعة. بيروت.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبدالله الرومي - ٦٢٦هـ).
- معجم البلدان (٥ج). دار صادر وبيروت. بيروت ١٩٧٩م.

المراجع الأجنبية

1. **CARUS :** IL PROBLEMO SCIENTIFICO DEL DIRINT-TO MUSULMANO IN. RIVISTA ITALIANO PER LE SCIENZE GIURIDICHEC P. 147.
2. **GOLDZIHER:** IN BYZANTIENISCHE, ZEITSCHRIFT 1893 P.317-325.
3. **GOLDZIHER:** LE DOGMA ET LA LOI DE LıISLAM TRADUCTION DE FEBIC ARIN-PARIS 1920.
4. **JAMES C.O.:** CHRISTIAN MYTH AND RITUAL P.Vi AFTER HOOKI, S.H. 1963 " MIDDLE EASTERN MYTHOLOGY - TRANSLATED TO ARABIC BY SOBHI HADIDI DAR IL-HEWAR SYRIA 1983
5. **LOUIS GARDET:** 1984: LES HOMMES DE L'ISLAM ED. COMPLEXE : BRUXELLE.
6. **MARX .K.:** PRECAPITALIST ECONOMIC FORMATIONS PROGRESS - EDITION . MOSCOU 1978.

الفهرس

للمؤلف

روايات

١ـ نفاية الوجودية ١٩٧٠.

٢ـ البوابة ١٩٧٥

٣ـ الزمن المر ١٩٨٥.

٤ـ أدماوي ١٩٨٧.

٥ـ رغبة الجن (قصص قصيرة) ١٩٨٠.

مسرحيات

١ـ البدروم ١٩٨٣.

٢ ـ لعبة الدكتاتور ١٩٨٥

٣ ـ المحاكمة ١٩٨٦

٤ ـ زغلول البهلول ١٩٨٦

(٢ ـ ٤) تحت الطبع بعنوان (جنون اللعبة).

دراسات

١ـ حرب أكتوبر والصراع العربي الإسرائيلي ١٩٧٨ نال بها المؤلف الجائزة الثالثة على مستوى ضباط الجيش المصري، أثناء تأديته للخدمة العسكرية.

٢ـ تخدير مرضى قصور الدورة التاجية ١٩٨١ (باللغة الإنجليزية). حصل بها المؤلف على درجة الماجستير. جامعة القاهرة.

٣ـ الإبر الصينية بين العلم والفلسفة. ١٩٨٦ (تحت الطبع)

٤ـ وهم القداسة. قراءة جديدة في النصوص القديمة. ١٩٨٦.

٣٠٠٠/٨٨/١٠٧٦